بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة الأستاذ الاديب عبد العزيز الميمنى استاذ اللغة العربية فى الجامعة الاسلاميه بعليگڑه – الهند

ماذا رأيت بخزائن البلاد الاسلامية

سعادة الوزير الخطير وسادتى من العلماء الأعلام!

كنت أمنى النفس برحلة الى بلاد الاسلام منذ ثلاثين سنة حتى آن أوانها وتيسرت الأسباب نقمت بها على نفقة نفسى ومما توفر لدى من نفقات عيالى فى ١٦ سپتمبر سنة ٣٥ م ورجعت فى ٢١ يونيه سنة ٣٦ م . ونقبت عن جل المكاتب العمومية وبعض الخصوصية على ما تسنى لى – وهى لا تقل عن ٧٥ خزانة فى مصر والاسكندرية واستنبول وحلب ودمشق والقدس وبغداد والنجف، وعلقت مذكراتى وما سقطت عليه من الشوارد والنوادر فى الجزازات والدفاتر وأراها من خير ذخيرة اقتنيتها فى حياتى وأخلفها بعد مماتى، وهو شيء كثير فى ضروب العلم ولكنى أرفق بساعاتكم العزيزة فلا أسرد كلها عليكم غير أن ما لا يدرك كله لا يترك كله وفى المذكور دليل على المتروك .

لا يخفى على كل من طالع فهرستى ابن النديم وابن خير الاشبيلى وجملة من الأثبات المعروفة وكشف الظنون إلى غيرها من كتب التراجم والتواريخ كثرة الأسفار والمؤلفات التى خلفها لنا الأسلاف ووفرتها إلا أن معظمها كما هو معلوم ضاع وباد فى عدة طامات حاق بالمسلمين نكالها ولكننا بعد كيت وذيت فى حال لا يمر علينا شهر الاويأتى بخبر اكتشاف بعض ما كانوا يظنونه مكتوما وباحياء بعض آثارهم الخالدة مما كان يحسب معدوما .

ووضع علماء المشرقيات بالمغرب فهارس وافية لما تجمع شمله فى خزائنهم من كتبنا التى تناثر عقدها وتبدد شملها بحثوا فيها عن كل دقيق وجليل وقليل وكثير ووصفوا المخطوطات وصفا لم يغادر فى النفس حاجة إلا نضاها . ونحن فى المشرق والجهل مخيم علينا سرادقه يقرع علينا فى كل حين منه قارعة

ويطرق علينا طارقة . هذه خزائننا سدى كهمل النعام لايلتفت اليها الأنام وإنما هى نهزة للسراق ونهبى للديدان والحوادث فى الآفاق .

وأما هؤلاء الشداة والنشأ من شبا بنا ونقهم الله فنراهم يهرعون الى أوربا حيث يصححون فى غالب الأحيان كتبا على مايزعمون ليفوزوا بالدكترة وإنما هم مخدوعون يخدمون الاجانب من حيث لا يشعرون إلا من أتى الله بقلب سليم . ولو منحوا خزائن الشرق من عنايتهم لفتة لخدموا العلم فى مشارق الأرض ومغاربها خدمة تعد وتذكر فى مآثرها ومناقبها. ولا أغمطهم نعمتهم والله يشهد أنى لا أغض منهم وإنما أنا بصنيعى هذا أنبه من هممهم الراقدة الراكدة وعزائمهم الهامدة الخامدة وآخذ بحجزهم الى مافيه صلاحهم وخير بلادهم لو وجدت قلبا واعيا وهم فاعلون بمشيئة الله وتوفيقه .

إلا أن كثيرا من الآثار التى خدموها بالطبع والنشر اعتمدوا فيها إما على نسخ غير قيمة أو يكون غيرها أولى منها أو ذهب عليهم فيما هم بصدده من الأخلاق الخطيرة بعض ما لم يتوفقوا لرؤيتها فلم يقضوا نهمتهم منها ، ومن جراء ذلك ربما جرت عليهم أغلاط وراجت فى سوقهم ثم تسربت إلى العلماء والكتاب فضلوا عن القصد وتاهوا .

ثم إن هاتيك الكتب منزوية فى زوايا الإهمال لم يقدرلها من يخدمها بالتعريف والتنويه والوصف والتنبيه بعد ، وإن كان فى تلك الزوايا خبايا ولسلفنا مآثر وبقايا فاعتمدنا فى الأبواب على ملتقطات الخلف ومزخرفاتهم فتناقص العلم وبار ونضب معينه وغار .

فانتقطت فى كل باب من الأبواب غيضا من فيض وبرضا من عد ليكون نموذجا يدل على ما وراءه . وعندى بيان أماكن وجودها . وأقدم قبل كل شيء أن عدة من الكتب التى طبعت عن نسخ دار الكتب المصرية وغالبها بخط الطيب الذكر محمد محمود الشنقيطى أو غيره إنما توجد أمهاتها وأصولها بخزائن استنبول ، كالموشح للمرزبانى والصاحبى لابن فارس والميسر للقتبى ودواوين

ابن الدمينة وجران العود ونابغة شيبان وابن قيس الرقيات والحماستين للخالديين والبصرى ومنتهى الطلب إلى غيرها فيجب علينا إذن أن نبحث عن الأصل ثم نحكم بما نرى .

إذا أنشد بشار   فقل أحسن حماد

جملة من المطبوعات التى أعرف بعض نسخها التى تزيد فى الفائدة

١ ـ طبع كتاب البيان للجاحظ بمصر عدة طبعات ولكنه مع ذلك يحتاج الى طبعة منقحة معارضة بعدة نسخ توجد فى كوپرولو ونورعثمانيه وغيرهما

٢ ـ وكذا الحيوان طبعته من اردأ ما كان أو يكون ونسخه الجليلة فى كوپرولو ونورعثمانيه وعاشر أفندى .

٣ ـ وهذه طبعة الخواجه ريط من الكامل للمبرد وأعرف النسخ التى فاتته وهى بعاشر وكوپرولو والفاتح .

٤ ـ وطبع اليسوعيون نوادر أبى زيد عن نسخة بخط صاحب اللسان وكانت ملكا لجرجس صفا إذ ذاك وهى الآن بالتيمورية مع أن أصوله بكوپرولو وغيرها ونقل عنها الشنقيطى وغيره ونسخهم بالدار فهى تحتاج الى المعارضة فان هذه الطبعة على نقائها مصحفة .

٥ ـ ورسائل أبى العلاء طبعت ببيروت وأكسفرد وفاتتهما عدة رسائل أصولها باستنبول ونسخها بالتيمورية، وبكوپرولو نسخة جليلة جدا من رسالة الغفران ورأيت من الصاهل والشاحج نسخة بالنجف .

٦ ـ والابانة عن سرقات المتنبى للصاحب العميدى طبعته رديئة وأصله الجليل بأيا صوفيا .

٧ ـ ١٠ ـ وأشعار ابن قيس الرقيات وجران العود ونابغة شيبان وابن الدمينة أصولها باستنبول ولم يعرفوها .

١١ ـ ١٤ ـ ودواوين العجاج ورؤبة وأبى ذؤيب وذى الرمة سلخت من الشروح اللازمة وأساء ناشروها السادة الوارد وهيل ومكارتينى الى

العلم وهي فى حاجة ماسة الى الشروح .

١٥ ــ والمنقوص والممدود لابن ولاد نشره الاستاذ پال برونله واعرف منه رواية المهلبي عصرى المتنبى مع زياداته (ويقول على بن حمزة فى التنبيهات ان معظمها من المتنبي وإنما تغلبه عليها المهلبى) وفيها تعليقات لابن خالويه ايضا .

١٦ ــ وديوان امرئ القيس يحتاج الى عناية وزيادة من نسختيه روايتى الطوسى ونحر ابنداد .

١٧ ــ وكذا شعر زهير انما المطبوع نحو نصفه والتمام فى رواية ثعلب أو السكرى ونسخها باستنبول ومصر والاسكوريال وألمانيا .

١٨ ــ والآثار الباقية لأبى الريحان طبعته تنقص نحو ٣٠ ورقة ونسختها الكاملة الجليلة بالعمومية باستنبول .

١٩ ــ وطبع الانصاف للكمال ابن الأنبارى بليدن وأعرف كتابا بهذا الاسم والمعنى للثمانينى بخزانة ولى الدين جار الله .

٢٠ ــ وطبع الاستاذ كوديره الاسپانى صلة ابن بشكوال طبعة ليست بتلك ورأيت بفيض الله نسخته الجليلة بخط الحافظ أبى الخطاب ابن دحية تلميذ المؤلف كتبها فى حياته .

٢١ ــ وطبع صديقنا نعمان الأعظمى النور السافر للعيدروس ببغداد ورأيت بالتيمورية ذيله للشلى فى مثل حجمه المسمى السنا الباهر وهو لا يقل عن أصله فى الفائدة .

٢٢ و ٢٣ ــ ويوجد من ذيول تاريخ الخطيب ذيلا الدبيثى وقطعة من ابن النجار . ومختصر الدبيثى للذهبى بخطه فى الدار فى خمسة أجزاء ومختصر ابن النجار لابن الدمياطى بخطه بالدار فى ٨ أجزاء .

٢٤ ــ ورأيت مختصر ذيل ابن خلكان لابن زيرك والأصل للزركشى .

٢٥ وطبع مشارق الأنوار لعياض بالمغرب الأقصى وأعرف إصلاحه مطالع الأنوار لابن قرقول رواية ابن دحية فى ٣ أجزاء .

إلى

إلى غيرها وفيها كثرة .

وثما يخص دائرة المعارف منها

٢٦ ـ كتاب التيجان لابن هشام نسخه بعضها أردأ من بعض على أنها سقيت بماء واحد وإنما الأم والإمام باستنبول كتبت بفاس سنة ٦٣١ ﻫ .

٢٧ ـ والاستيعاب لابن عبد البر ياليتهم كانوا طبعوا معه الاستدراك عليه لابن الأمين الطايطلى .

٢٨ ـ ولدول الاسلام للذهبي ذيل للسخاوى وصل به الى سنة ٨٩٥ ﻫ يسمى وجيز الكلام .

٢٩ ـ ورأيت للدرر الكامنة ذيلا لابن حجر نفسه وبخطه وصل به الى سنة ٨٣٢ ﻫ فى ٢٢٢ ص .

٣٠ ـ ونسخة رامپور من أفعال ابن القطاع مختلة لا تفى بالغرض ورأيت منه عدة نسخ وكلها أحسن من نسخة رامپور ولا أجل من نسخة الدار المنقولة سنة ٥٦٣ ﻫ عن نسخة ابن القصار الصقلى وقرأها على المؤلف وأعرف نسخة من أفعال ابن القوطية باصلاح ابن القطاع جعل الرمز فيها للأول ـ ق ـ وللاخر ـ ع ـ لابد من المقابلة بها . على أنى رأيت نسختين من أفعال السرقسطى المغبوز بالحمار فيه ..٥٥ فعل وهى الغاية القصوى وعليها خاتمة الباب .

٣١ ـ وسنن البيهقى رأيت منه جزءا عليه حواش منقولة من خطه .

بعض غرائب ما وجدته فى تطوافى

يوجد عند صديقنا خواجه اسمعيل صائب مدير الكتبخانة العمومية باستنبول كان نسخة جليلة مقروءة مسموعة (وبآخر كل جزء جزء منها الخطوط بذلك) من مسند معمر بن راشد اليمانى من أقدم ما دون فى الحديث حقا على رق الغزال نسخت بطليطلة نحو سنة ٣٦٣ ه وهى ذخيرة المسلمين العظمى والبركة .

وأقدم نسخة رأيتها فى الخزائن كتاب المسائل عن سيدنا أحمد بن حنبل رواية أبى داود السجستانى وثبت فى ختامها « وسمعنا سنة ٢٦٦ ه » وهى بالظاهرية .

كان طبع قبل نحو ثلاثين سنة الجزء الاول من شرح ما يقع فيه التصحيف لأبى أحمد العسكرى الامام طبعة رديئة وكنت بأشواق الى نسخته الكاملة وإنما الأم بمصر فى جزئين فى مجلد وهى فريدة لكل نسخه المنتشرة فى الآفاق ولما كنت بدمشق على وشك الرحيل جاءنى الشيخ حمدى السفرجلانى من علمائها وبيده دشت مبعثر كان اشتراه بحلب بثمن باهظ يسألنى عن اسمه ورسمه ومؤلفه وكنت فطنت له فى أول نظرة ولكن شرطت عليه أن يخلينى أصوره أولا ثم أدله على ذلك فخضع لذلك بعد لأى . وهو الجزء الثالث من نسخة التصحيف بالدار عينها انفرد عن صاحبيه .

أخيين كنا فرق الدهر بيننا   إلى أمد والمرء لا يأمن الدهرا

فلا تدرون يا سادتى مبلغ سرورى بهذا الفوز العظيم فتم تمام الكتاب عندى ولله الحمد .

ورأيت باستنبول قصة طويلة غريبة المغزى فى نحو ٢٠ مجلد ضخام متفرقة فى عدة من خزائنها تعرف بقصة الدلهمة والبطال تشبه قصة داستان أمير حمزة (قصة حمزة البهلوان) أو طاسم هوش ربا بديارنا .

ومما رأيته فى معنى كشف الظنون التذكار الجامع للآثار فى مجلدة طويلة

بائنة الطول فى عرض لايناسبه .

ويوجد من شرح ابن ماجه لمغلطاى بن قليج جزء من مسودته بخط يده فى بانكى پور وجزؤه الفائت من المسودة عينها بخزانة فيض الله فسبحانه من مقدر !

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به   وقبلنا سبح الجودى والجمد

ووقفت على الجزء الثانى من نسب قريش للزبير بن بكار صاحب الموفقيات (الذى يوجد بعض أجزائه فى لپسيك بألمانيا) فسبحان من أحياه لنا بعد مماته. ورأيت فى المغنى التبيين فى نسب القرشيين للموفق بن قدامة. وكنت رأيت عند الشيخ ناصر حسين سنة ١٩٢٥ م بلكهنؤ كتاب المنمق لابن حبيب فى أخبارهم .

وممايفيد دائرة المعارف

طبعوا كتاب المجتنى لابن دريد عن نسخة ابن ابى جرادة وهو ابن العديم الحلبى مع ان اهل حلب كانوا عاروا عليه قبل مدة غير قصيرة فطبعوه ولما كنت بحلب ابريل سنة ١٩٣٦ م صحبة الشيخ راغب الطباخ اهدى الينا ناشره ثلاث نسخ اخذ منها الصديق واحدة وبقيت لى نسختان اقدم منهما واحدة للدائرة ان شاء الله .

والسيد مير معصوم المدنى كان اقام فى القرن ١٢ مع الملوك القطب شاهية بحيدرآباد دكر ما ورأيت له رحلة الى حيدرآباد عن طريق اليمن سماها سلوة الغريب واسوة الاريب لاتخلو عن فائدة فى ٣٥٤ ص نسخت سنة ١٢٠٦ هـ رقمه بالتيمورية ١٣١١ تاريخ .

ما يتعلق بالكتاب كتاب سيبويه

وهو وان سبق طبعه ثلاث مرات او اكثر فان الحاجة باقية بعد وفى النفس رغبة فأحسن ما رأيت من نسخه نسخة كاملة جليلة جدا كتبت بمراكش سنة ٦٠٥ بخزانة ملا مراد .

واما شرحه لابى سعيد السيرافى ثمنه نسخ عتيقة أوبناتها بالحميدية وعاطف وايا صوفيا ودار الكتب المصرية والتيمورية ووضع له المرحوم احمد تيمور فهرسا حافلا الحقه بآخر نسخته وهو فى مجلد ضخم . ورأيت نسخة من مختصر هذا الشرح بخط المختصر نفسه .

وكتاب الانتصار أو نقض ابن ولاد على المبرد فى رده على سيبويه وتعليقة ابى على الفارسى عليه .

وشرحه للرمانى (فيض الله) .

وتفسير غريب ما فيه من الأبنية عن السجستانى (شهيد على) .

وتقبيح الالباب فى غوامض الكتاب لابن خروف (التيمورية)

وقد اجتليت بعينى نسخة فريدة من شرح ابياته لابى محمد ابن السيرافى . ولابى محمد الاسود الاعرابى الغندجانى رد عليه غريب سماه فرحة الأديب بالدار .

الحماسة الطائية وما فى معناها وشروحها

اعرف منها نسخة جليلة برواية ابى رياش القيسى (ترخان خديجة سلطان ملحق بنى جامع) .

واخرى جليلة جدا مقروءة (بينى جامع) .

واخرى بجمع روايتى التبريزى عن ابى العلاء وابن ابى الصقر بسنده الى النمرى ونسخت سنة ٥٩٠ ﻫ ورأيت الجزء الثانى من اخرى عليها خط التبريزى بالإقراء بخزانة الفاتح .

ولأبى محمد الأسود اصلاح ما غلط فيه النمرى من شرح الحماسة وكأن التبريزى أخذه كله فى شرحه ونسخته العتيقة الفريدة بالدار فى ٤٢ ق .

والحماسة بتفسير ابن فارس اللغوى منه نسخة عتيقة ملوكية

ورسالة فى تفسير بعض أبيات الحماسة لابى هلال العسكرى .

والتنبيه على مشكل أبيات الحماسة لابن جنى رأيت منه ثلاث نسخ .

وشرحها لأبى العلاء المعرى بالدار .

والنسخ الأمهات من شرح المرزوق بالعمومية وكوپرولو والفاتح .

وشرحها للعكبرى المسمى باب الحماسة منه نسختان .

وشرحها للبيارى براغب پاشا .

وشرحها للجعبرى للعله بلاله لى .

والباهر فى شرح الحماسة لأبى على الطبرسى .

وحماسة الأعلم الشنتمرى وهى حماسة ابى تمام هذه بعد ترتيبها على الحروف كما قد أخذ الشيخ نائل مرصفى فى مثل ذلك يوجد منه نسختان جليلتان بالدار .

ورأيت شرحها لابن زاكور من علماء القرن الثانى عشر عند الشيخ طاهر الجزائرلى حفيد الامير عبدالقادر بدمشق .

والأشباه والنظائر وهى حماسة الخالديين وهى من أجل ما كتب فى المعنى ولا تدانيها حماسة فى الفائدة ــ منها نسختان امان باستنبول وبنتاهما بدار مصر

والحماسة البصرية منها نسخ عتيقة جليلة للغاية بنورعثمانيه وراغب وعاشر، وبالآصفية ودار مصر والاسكوريال نسخ دونها .

والحماسة المغربية فيها كثير من اشعار القرون المتأخرة الى القرن السادس ونسختها المكتوبة سنة ٦١٨ بالفاتح .

وأما حماستا ابن فارس وأبى هلال العسكرى فانى رأيت بأيا صوفيا التذكرة السعدية نقل فيه فى جل الابواب منهما اشياء كثيرة .

ولأبى تمام حماسة اخرى صغيرة وهى الوحشيات .

ديوان المتنبئ

توجد عدة نسخ من شرحه لأبى العلاء بالدار ومكتبة شيخ الاسلام بالمدينة ودار تحف بريطانيا وهى ان شاء الله من شرح الواحدى وانما النسخة الحقيقية من الشرح وهى الفريدة وكتبت فى قرن ابى العلاء فهى بالحميدية

وهناك عنوانه اللامع العزيزى على ماسماه ابو العلاء نفسه .

وشرح بعض أبياته لابن القطاع بالدار .

وشرح المشكل من شعره لابن سيده ــ شهيد على جار الله ؟ الدار .

النظام وهو شرح ابن المستوفى ثلثاه بينى جامع .

شرح مشكله للصقلى نسخة تامة جليلة .

وشرحه لعبد القاهر الجرجانى (فيض الله) .

وكتاب الصفوة فى معانى شعر المتنبئ للحافظ أبى اليمن الكندى .

وشرحه لعبد القادر المكى المسمى الكلم الطيب على كلام أبى الطيب بالدار .

والمآخذ على شراح المتنبئ كابن جنى والمعرى والواحدى والتبريزى والكندى للهلبى وهو كتاب نقد جليل المغزى ــ بفيض الله .

الاستدراك على المآخذ الكندية من المعانى الطائيــة لابن الدهان من استدراك ابن الأثير عليه ــ الخالدية ، كوپرولو .

وجوه الذم المستخرجة من كافوريات المتنبى ــ عاشر افندى . ٤ ق .

تنبيه الأديب الغريب فى نقد اعتراضات على شعر المتنبى لعبد الرحمن باكثير المكى ــ الأزهرية الزكية .

نبذة فى أخباره بالتيمورية حديثة فى ٩ ص .

اللغـــة

وللأئمة مئات من المؤلفات المرتبة على الأجناس والأبواب وبعضها وهى أقلها على حروف المعجم . ولسهولة الكشف عن المواد أكب المتأخرون على معاجم المتأخرين كاللسان والتاج وهما ديوانان لم يأت مؤلفاهما فيهما إلا بالجمع والتنسيق والتدوين والتلفيق وأما تحقيق ماوجداه فى النسخ المختلفة فليسا من بابه ولاهما خطيبا محرابه كما قد صرح ابن منظور بذلك ولا توفر لديهما مادة ذلك والغرض أنهما ليسا فيما هنالك فهذان كتابا هما فيهما ألوف مؤلفة من الأغلاط الفاضحة وهى فى كفة النقد راجحة على أن الذى سقط بأيديهما من مؤلفات اللغة

غيض

غيض من فيض وقليل من كثير .

وإن كانت مؤلفات الأقدمين قد ضاع معظمها وباد سائرها ففيما بقى منها فى هذه الأعصار وهو شىء كثير ربما يزيد على ما ظنه السيوطى فى المزهر بعض مقنع فالحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

وهى على ما أعرف بعد المطبوعات .

كتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى وندعو الله أن يوفق صديقنا سالما الكرينكوى لخدمته كما أرجو أن يوفقنى لخدمة نوادر أبى مسحل الراوية عبدالوهاب بن حريش رواية ثعلب .

وكتاب العين المنسوب الى الخليل منه نسخ بالعراق .

ومختصره لأبى بكر الزبيدى ويقال انه خير من أصله عدة نسخ .

الغريب المصنف باستنبول .

والتهذيب عدة نسخ باستنبول ورواية جنادة بالدار .

والمحكم عدة نسخ .

ومقاييس اللغة لابن فارس بالعجم .

المحيط للصاحب بالنجف ومصر واستنبول .

وجزآن من البارع لأبى على البغدادى .

ومن تآليف كراع الغميم أو كراع النمل المنجد والمنضد والمنتخب والمجرد بمصر واستنبول .

وعدة ما بقى مما ألف فى الأغربة كغريب أبى عبيد وإصلاح غلطه للقتبى وغريب القتبى والهروى والتنبيه على أغلاطه للسلامى وغريب الخطابى وأبى موسى المدينى وأبى إسحق الحربى وعبداللطيف البغدادى (المسمى المجرد وعليه خطه) وعبدالغافر الفارسى، ولا أغرب من الدلائل لقاسم بن ثابت السرقسطى ولا أنفع الذى تممه أبوه بعد وفاة ولده ورأيت منه الجزء الثانى وكتب سنة ٤٩٩ ه .

وعدة ما ألف فى الأفعال وقد تقدم .

ومن تآليف أبى الطيب اللغوى المثنى والإتباع والقلب ـ والأسف أن نسخ الثلاثة وعليها خط ابن مكتوم القيسى ناقصة .

والزاهر لابن الأنبارى باستنبول، ومختصره للزجاجى بمصر .

والزاهر للأزهرى .

ومن شروح الفصيح للرزوقى والتدميرى واللبلى الفهرى باستنبول ومصر وتمامه للزاهد وابن فارس .

وجملة مما ألف فى معنى النوادر وبقى كنوادر أبى مسحل وم ، ونوادر اليزيدى ونوادر أبى على الهجرى والجزء الأول من نوادر ابن الأعرابى .

ومن كتب النقد كالتنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصبهانى بالعجم والتنبيهات على أغاليط الرواة وشرح مايقع فيه التصحيف لأبى أحمد العسكرى وم ، وتصحيح التصحيف للصفدى .

ولكن الامام الصاغانى اللاهورى اعتنى بما ألفه الأئمة فى جميع هاتيك الأبواب وجمع منها مجاميع لغويةهى من أنفع ما كتب فى معنى المعاجم ولاأرجع عليها شيئا من ملفقات المتأخرين وما المجد على قاموسه الامن المغترفين من بحره ان لم نقل من المغيرين على كد يمينه وعرق جبينه .

ومن حسن حظنا ان جميعها أو معظمها بخط يده الذى لا مزيد عليه فى الاتقان والعناية وهو الغاية القصوى فى الصحة والدراية وهى العباب بمصر واستنبول ، والتكملة وذيلها ومجمع البحرين وشوارد اللغة باستنبول ومصر ونسخ خزانة مؤيد الدين ابن العلقمى الوزير الذى كان مربيه ومرشحه لهذه الأعمال اللغوية العظيمة، ولا أرى فى هذا العصر خدمة علمية تضاهى نشر مؤلفاته، وادعو الله أن يوفق مجامع العلم لذلك .

التفاسير

من أولها مجاز القرآن لأبى عبيدة ، ومعانى القرآن للفراء ، وللزجاج ، وتفسير

وتفسير عبدالله بن المبارك ، وعبد القاهر الجرجانى ، وابن فورك ، والحاكم ، وابى حاتم الرازى . وعدة نسخ جليلة عتيقة للغاية من الحجة لأبى على الفارسى ، والمحتسب لابن جنى فى معناه ، ونظم الدرر للبقاعى ، ومصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور ، كتابان جليلا الغرض ، ورأيت فى معنى اتقان السيوطى فنون الأفنان لابن الجوزى والبرهان للزركشى وقد وقف عليه السيوطى واستفاد منه ، وهذه كلها باستنبول .

الحديث

توجد عدة نسخ كاملة أو ناقصة من مصنف ابن ابى شيبة باستنبول ، ومنتخب مسند عبد بن حميد بالظاهرية ، وجزآن من صحيح ابن خزيمة باستنبول والأوسط والكبير للطبرانى عدة نسخ ، ومسند البزار ، ومصنف عبدالرزاق ، وصحيح ابن حبان ومختصر أبى عوانة على كتاب مسلم ، ومسنده ، ومسند أبى بكر الحميدى شيخ البخارى ، وتخريج الأحاديث الضعيفة من سنن الدارقطنى للغسانى متأخر ، والتنبيه على ما أشكل فى مسلم لابن الصلاح ، وشرح منتخب البخارى للنواوى بخط يده ، وشرح الترمذى لابن سيد الناس والعراقى ، وشرح ابى داود لابن رسلان والمنذرى ، والاعلام شرح البخارى للخطابى ، وإتحاف المهرة بزوائد المسانيد العشرة ، وله مختصر أيضا ، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر ، وأطراف المزى وتهذيبه لابن فهد المكى .

ومن مؤلفات الطحاوى الجزء الأول من سنن الشافعى بروايته ، وكتاب مشكل الأحاديث له فى ـ ٧ ـ أجزاء ـ وهذه كلها باستنبول إلا أن أية خزانة فى مشارق الأرض ومغاربها لا تدانى الظاهرية فى كثرة مؤلفات الحديث والرجال والمسلسلات والأجزاء والجزازات والدشوت ومعظمها بخطوط حفاظ المقادسة وبناتهم وفيها من أقدم ما ألف فى الحديث وما اليه شىء كثير لا تجد له فى غيرها اسما ولا رسما وبعضها على رق الغزال وفيها نحو ٦٠ جزءا من شرح مسند أحمد وينقصه نحو عشرين جزءا .

وقد أتيت ياسادتي على وقتكم الثمين وفي النفس نهمة وللكلام بقية وصلة في سرد كتب الأدب والدواوين وشروح الأبيات والتواريخ والرجال والتراجم والطبقات والأنساب والنحو. وهي مجموعة مرتبة عندي فان بدت لي من بعضكم نشطة وظهرت لي منه رغبة ألقيت إليه بعجري وبجري وأطلعته على عيبتي وإلا فان ما أتيت عليه منه فيه كفاية وزاد يبلغ بالراجي منزله .

(وعن البحر اجتزاء بالوشل)

خادمكم وخادم العلم

عبدالعزيز الميمني بجامعة عليگڑه الهند

يونيه سنة ١٩٣٨ م

وكتب بصدر بازار راجكوٹ كاتهياوار في عطلة الصيف

بسم الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة المؤرخ العلامة السيد سليمان الندوى

مدير دار المصنفين باعظم كڑه

كتاب المعتبر وصاحبه

لقد قدر الله لآل العباس مفاخر لا تمحى ، ومآثر لا تنسى ، فبنوا للاسلام بيوت الحكمة ، وشادوا له صروح العلم ، وخطوا له ديار الحضارة ، وعمروا له منازل الادراك ، واسسوا له دوائر المعارف ، ومنحوا اهل العلم جوائز وصلات ، وجامكيات وادرارات ، واسبغوا عليهم سوابغ النعم ، وافرغوا عليهم سجال الكرم .

قد كان العلم ترعرع فى عهد الامويين لكنه نشأ فى عهد العباسيين ، فنبغ العلماء من الحكماء ، ونقل الى العربية ما كان فى خزائن الامم من العلم والحكمة ، فاستفرغوا جهدهم فى نزح ما عند اليونان من كنوز الرموز وذخائر الدفائن ، فربت به ارض بغداد واخضلت رباها ، ونشأ فيها من العلماء المبرزين الذين طبقوا الخافقين ، ومن الحكماء الذين رفعوا الاعلام على المشرقين فمنهم فيلسوف العراقين وطبيب بغداد الفيلسوف اوحد الزمان ابو البركات هبة الله بن على بن ملكا البغدادى صاحب المعتبر .

الفلسفة التى نقلت كتبها الى العربية كان اكثرها للمشائين اتباع ارسطاطاليس وكانت مختلطة بشروح الاسكندرانيين ، فنسبت آراؤهم الى ارسطو صاحب الكتاب ، فتطرق الخلل اليها من جانبين ، اولهما ان انحصرت الفلسفة وآراؤها عند المسلمين فى كتب ارسطو واعرضوا صفحا عن المشارب المتعددة المختلفة فى الفلسفة ، وحسبوا المعلم الاول اماما فذا لا يدرك شأوه ولا يشق غباره غير كلمات لشيخه افلاطون ، ثم التبس عليهم افلاطون ان افلاطون اليونانى شيخ ارسطو وافلاطون الاسكندرى المعروف بالإلاهى ، فعزوا الى الاول ما كان للآخر .

وثانيهما ان اخذوا اقوال الشراح لكتب ارسطو من الاسكندرانيين واعتبروها كالنصوص لارسطو وآمنوا بها ايمانا لايزيد ولا ينقص .

واول من قام يجمع بين رأيي الحكيمين ارسطو وافلاطون المعلم الثانى الحكيم محمد بن طرخان ابو نصر الفارابى المتوفى سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة له كتاب فى اغراض افلاطون وارسطاطاليس يشهد له بالبراعة فى صناعة الفلسفة والتحقق بفنون الحكمة ، والكتاب قد طبع فى آخر هو امش شرح حكمة الاشراق الذى طبع بايران سنة ١٣١٣ — سنة ١٣١٥ ﻫ .

ويرى الناظر فى هذه الرسالة ان الفارابى نسب الى الحكيمين من الآراء ما هما براء عنه ، وما ذلك الالانه اعتمد فى النقل على الناقلين من الشراح الاسكندرانيين والالتباس بين افلاطونين افلاطون اليونانى شيخ ارسطو وافلاطون الالاهى الاسكندرى الذى مزج الدين بالفلسفة واتى بآراء كلامية مرة وصوفية اخرى وهو الذى ابدع فلسفة الاشراق الالاهى وظنها الناس انها لافلاطون شيخ ارسطو وشتان بينهما .

وعلى كل حال فالفلسفة التى تلقاها المسلمون على ايدى الناقلين من يهود ونصارى لم تكن صافية محضة فانها كانت مشوبة بآرائهم . واوهن بيوت الفلسفة فلكياتها وإلاهياتها فليست اولاها الاتأويل ما كان يعتقده اليونان فى تأله الكواكب واساطيرها فجعلوها فلسفة وعبروها بكلمات فلسفية ولم يجدوا لها سلطانا من البرهان غير نزر يسير من الاوهام، كالقول بالافلاك وحركاتها وطبائعها ونفوسها وتأثيرها فى القوى .

اما الالاهيات فليست الامن عقائد الاسكندرانيين اوكلام المتكلمين من فلاسفة اليهود والنصارى. فاثولوجيا الذى قبله الناس كأنه نص ارسطو فى المسائل الالاهية ليس الا كلام الاشراقيين من الاسكندرانيين وهو الاس المرصوص للتصوف الفلسفى . انخدع به العلماء حتى العالم النحرير الشاه ولى الله الدهلوى فى تفهيماته .

وهى

وهي الآراء التي دونها الفارابي في فصوصه وجعلها دينا جديدا او قل كلاما حديثا بني عليه ماباح به فلاسفة الاسلام وهي البذرة الصغيرة التي نبتت ونمت فصارت شقتين لشجرة واحدة وهما التصوف الفلسفي والإلهيات فلاسفة الاسلام وليست آراء اخوان الصفاء الا السعي الحثيث المتين، للجمع بينها وبين نصوص الدين .

ولما ضعفت دولة العباسيين وقام الفرس بملك ديلم وتستروا بالتشيع فصار في عهدهم لهذه الفلسفة سوق قائمة، وانتهض لها الحكماء ينصرون، فجاءت السلاجقة ومحوا آثار الديلم ظاهرا وباطنا ودينا وسياسة فاختفى من اختفى منهم في الجبال وزور وافلسفة دينية باح بها الحكيم ناصر خسرو في زاد المسافر وكتبه الاخرى .

والشيخ الرئيس ابوعلي الحسين بن سينا البخاري قد كان ابوه ممن اجاب داعي المصريين ويعد من الاسماعيلية كما هوحكاه عن نفسه وكما تراه في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة وقدسمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه وكذلك اخوه وكانوا ربما تذاكروا بينهم وهويسمع وكان يجرى على السنتهم ذكر الفلسفة ثم جاء الى بخارى ابوعبدالله الناتلي وكان يدعي المتفلسف ولعله كان من دعاة الاسماعيلية فأخذ ابوعلي منه ما اخذ من علوم الفلسفة والرياضة ثم صرح بانه قرأ مابعد الطبيعة وهوالالهيات فلم يفهمه حتى دفع اليه كتاب لابي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة فانفتح به عليه ابواب العلم الالهي وهو الذي ابدع الالهيات واودعها عقائد القوم وآراء المتكلمين من الاسماعيلية ممزوجة .

هذه نبذة وجيزة قدمتها لينجلي ما اظلم علينا من تاريخ الفلسفة في الاسلام .

قد نقم نقاد تاريخ الفلسفة من الافرنج على فلاسفة المسلمين انهم لم يأتوا بشيء بديع، بل قضوا اعمارهم في اتباع آثار ارسطو وتصفح كتبه،

ونقل شروحه ، وشرح ايجازه ، حتى قال بعض الظرفاء من مؤرخى الافرنج ان ليس فلاسفة المسلمين الا الخدم من المركب الارسطاطاليسى ، وانى رددت هذه الفرية بمقالة كتبتها فى مجلة الثقافة الاسلامية (اسلامك كلچر) قبل ذلك بسنين .

والحق الصريح ان للمسلمين فى الفلسفة دورتين متميزتين اولاهما من القرن الثانى للهجرة الى ايام نبوغ ابن سينا فى اواخر القرن الرابع ، واخراهما من ذلك الحين الى القرن الثانى عشر اى القرن الذى افل فيه نجم العقل فى المسلمين وتغير الزمان بتغير الحدثان فصار فلاسفة المسلمين بعده لا فى عير ولا فى نفير .

الدورة الزاهرة للفلسفة فى الاسلام عندنا هى الدورة الاولى قبل ابن سينا ، وكان الفلاسفة فى الاسلام يعرفون مشارب الفلسفة بأجمعها ، وما تفرقوا فيها وما اجمعوا عليها ، ولم يحسبوها جامدة لا تتحرك ، وقاصرة لا تزيد ولا تنقص ، وشريعة لا تتغير ولا تنسخ ، فكان كل يرى رأيه ويبتنى افكاره ، وينتقى اقوال القوم وينتقد آراء الرجال . ولكنهم لقبوا بالمتكلمين الأول اومتكلمى المعتزلة لأنهم مزجوا افكارهم الفلسفية بشيء من آرائهم الدينية فغلب عليهم اسم المتكلمين ، مثل العلاف والنظام والجاحظ وغيرهم من جهابذة العلم واساتذة الفضل ، غير ان آراءهم ذهبت ادراج الرياح ، واناخ الدهر على كتبهم بكلاكله ، فلا يعرف منها خبر ولا اثر ، وما بقى منها فى كتب المقالات والملل والنحل نزر يسير مختل النظام ، مبعثر القوام ، لعبت به اقلام خصمائهم فصوروا كيف شاؤا ، وركبوا كيفما ارادوا ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم .

فلما جاء ابو على جمع الاشتات ، وهذب الاصول ونقح الفصول ورتب الكتب والابواب ، وجمع كل ما تفرق من علومهم فى سفر حافل لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، كان القدماء من نقلة الاسلام وفلاسفة المسلمين ينقلونها رسالة رسالة وبابا بابا فى كل فن فنقلوا وكتبوا رسائل فى السماع الطبيعى واخرى فى الكون والفساد وثالثة فى السماء والعالم ، ورابعة فى الطبائع والاحداثيات . حتى انهم كانوا يفرقون المنطق بابا بابا فى رسائل مختلفة

فى

فى ايساغوجى وقاطيغورياس ، وريطوريقا ، وطوبيقا ، وغيره من انواعه ، وهذا ظاهر لمن نظر فى فهرست ابن النديم وغيره من مؤرخى القدماء اوكتب سلف الحكماء .

فمن مزايا ابى على فاق بها الذين سبقوه بالعلم انه جمع هذه الفنون فى كتاب جامع وحشد هذه العساكر فى نظام واحد فوضع كتابه الشفاء واحتذى فيه حذو ارسطو فى كتبه بجمع واوعى واثبت ونفى فجاء كتابه كأنه دائرة لمعارف الفلسفة ودع ماعزا الى ارسطو مالم يقله وما ابدع من عند نفسه ولم يرد أن يميز ما ملكت يداه مما استعار من غيره فقد لامه عدوه الالد القاضى ابن رشد فى كتبه على صنيعه هذا لينجى ارسطو من عدو الفلسفة متكلم الاسلام الشيخ الامام ابى حامد الغزالى .

على كل حال هذا اول كتاب جمع انواع الفلسفة بين الدفتين ولم يزد عليه من جاء بعده الا ايجازا او اقتضابا مرة وتأويلا وتعديلا اخرى فكأنه صار كتابا لاتنسخ آياته ولا ينسج على منواله .

فجاء بعده اوحد الزمان ابو البركات هبة الله بن ملكا البغدادى فى وسط المائة السادسة فانتقد فلسفة المشائين واعتبر مسائل ارسطو واستدرك كتبه ونظر فى آرائه ودون مارأى وارتأى فى سفر عظيم سماه كتاب المعتبر .

صاحب المعتبر

هو هبة الله ، لقبه اوحد الزمان ، كنيته ابو البركات ، اسم ابيه ملكا ، كان اسرائيلى النحلة ، قال ابن ابى اصيبعة هو بلدى لان مولده ببلد ، ثم اقام ببغداد فقيل بغدادى ، والبلد كما وصف ياقوت اسم عدة مواضع واشهرها مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فرسخ واسمها بالفارسية شهر آباذ ، ينسب اليها جماعة من العلماء ، والبلد ايضا يقال لمدينة الكرج التى عمرها ابو دلف وسماها البلد وينسب اليها بهذا اللفظ جماعة ، والبلد نسف بماوراء النهر ، والبلد ايضا يراد به مرو الروذ ، وايضا بليدة معروفة من نواحى دجيل لايعرف من ينسب اليها

وذكره السمعانى فقال هذه النسبة الى موضعين احدهما البلد اسم بلدة تقارب الموصل يقال لها بلد الحطب والمشهور بهذه النسبة جماعة ، والثانى منسوب الى بلد الكرج التى بناها ابو دلف وسماها البلد .

والاقرب ان صاحبنا ولد فى بلدة تقارب الموصل ، ثم انتقل الى بغداد وسكنها فاشتهر بغداديا .

مصادرنا لا تخبرنا بسنة ولادته ، ولكن قال من هوا قربهم عهدا بل معاصره التالى الامام ظهير الدين البيهقى فى تتمته انه توفى سنة سبع واربعين وخمسمائة ، يوم مات السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه » وقال « انه عاش تسعين سنة شمسية » فان وضعنا من سنة وفاته تسعين سنة تبقى سنة ٤٥٧ ﻫ ثم جعلنا السنة الشمسية قمرية وزدنا ثلاث سنين صارت ٤٦٠ ﻫ .

ولكن القاضى القفطى قال فيه « انه عاش ثمانين سنة » فان اعتبرناه وركنّا الى قوله صارت سنة ولادته سنة سبع وستين واربعمائة -

هذا اذا اخذنا تاريخ وفاة السلطان مسعود السلجوقى الذى مات ابو البركات يوم موته كما رواه البيهقى والثقات من المؤرخين كابن الاثير وغيره سنة سبع واربعين وذكر الراوندى فى راحته (ص ٢٤٥) ان السلطان مات فى غرة رجب سنة ست واربعين وخمسمائة ، فلينظر .

حكى الشهرزورى وابن ابى اصيبعة انه اخذ العلم عن الشيخ ابى الحسن سعيد بن هبة الله المولود سنة ست وثلاثين واربعمائة والمتوفى سنة خمس وتسعين واربعمائة (طبقات الاطباء ـ ج ٢ ـ ص ٢٥٤) كان فاضلا فى العلوم الحكمية مشتهرا بها وكان فى ايام المقتدى بامرالله العباسى وخدمه وولده المستظهر بالله بصناعة الطب ، والف كتبا كثيرة طبية ومنطقية وفلسفية وغير ذلك .

قال الشهرزورى وابن ابى اصيبعة انه كان من دأب الشيخ ان لا يعلم يهوديا فلما سأله ابو البركات ان يعلمه ابى وقال انى لا اقبل يهوديا فاحتال ابو البركات وصادق بوابه فكان يأتى ويجلس فى دهليزه ويسمع البحث فذات يوم

كان

كان اصحابه يتباحثون فى مسئلة من المسائل الصعبة العويصة ، فأعجزتهم ولم يدروا الجواب فاذا بابى البركات دخل الدار وحضر المجلس واستأذن الشيخ فأذن له فتكلم فى المسئلة واحسن الكلام واجاد فى الجواب واعجب الشيخ كلامه فسأله عن الحقيقة فقص عليه ما جرى عليه فقال من كانت هذه حاله لا يجوز منعه فصار من خواص تلاميذه . وقال ابن ابى اصيبعة فى ترجمة شيخه سعيد بن هبة الله (ج ٢ ف ٢٥٥) وكان ابو الحسن سعيد بن هبة الله موجودا فى سنة تسع وثمانين واربعمائة لانى وجدت خطه فى ذلك التاريخ على كتابه التلخيص النظامى وقد قرأه عليه ابو البركات » وبه استنبطنا ان قراءة ابى البركات على شيخه سعيد بن هبة الله كانت حول سنة تسع وثمانين واربعمائة ولعله كان يومئذ ابن ثلاثين .

ولما قضى ابو البركات وطره من طلب العلم طارت سمعته الى الآفاق فطلبه الخلفاء والملوك فخدم من الخلفاء المسترشد بالله العباسى (سنة ٥١٢ — ٥٢٩ ﻫ) فلما وقعت الحرب بينه وبين السلطان مسعود سنة ٥٢٩ اخذ ابو البركات اسيرا ثم خلى سبيله ، قال ابن ابى اصيبعة « وكان (ابو البركات) فى خدمة المستنجد بالله » والمستنجد بالله ولد سنة ثمان عشرة وخمسمائة وخطب له ابوه بولاية العهد سنة سبع واربعين ، وبويع يوم موت ابيه سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وابو البركات لقى ربه سنة سبع واربعين وخمسمائة فلا شبه ان ابا البركات خدمه وهو لم يل الخلافة . وخدم من الملوك السلطان محمد بن ملك شاه (٤٩٨— ٥١١ﻫ) وابنه السلطان محمود (٥١١—٥٢٥) والسلطان مسعود (٥٢٨—٥٤٧)

وهذا نص ما قاله البيهقى فيه

فيلسوف العراقين ومن ادعى انه نال رتبة ارسطو ، وكان له طبع وقاد وله تصانيف كثيرة مثل كتاب المعتبر وكتاب النفس والتفسير وغير ذلك وعاش تسعين سنة شمسية واصابه الجذام فعالج نفسه فصح وعمى فى آخر عمره ، فبقى اعمى مدة وقد اتهمه السلطان محمد بن ملكشاه بسوء علاجه وسوء تدبيره

فحبسه مدة وفى شهور سنة سبع واربعين وخمسمائة اصاب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه قولنج بعد ما افترسه اسد فحمل من بغداد الى همذان ابا البركات فلما يئس الناس من حياة السلطان خاف ابو البركات على نفسه ومات بضحوة ومات السلطان بعد العصر وحمل تابوت ابى البركات الى بغداد مع الحجاج .

ثم قال ولما اخذ ابو البركات فى مصاف المسترشد بالله والسلطان مسعود وقرب حينه اسلم فى الحال وكان من قبل يهوديا فنجا من القتل وخلع عليه السلطان وحسن اسلامه .

وقد جاءت فى اسلامه روايات اخر اولاها انه دخل يوما الى الخليفة فقام جميع من حضر الا قاضى القضاة فانه كان حاضرا ولم ير أنه يقوم مع الجماعة لكونه ذميا ، فقال يا امير المؤمنين ان كان القاضى لم يوافق الجماعة لكونه يرى انى على غير ملته فانا اسلم بين يدى مولانا ، ولا اتركه ينتقصنى بهذا واسلم ، هذا ما رواه ابن ابى اصيبعة .

واخرى ما رواه القاضى الاكرم انه لما مرض احد السلاطين السلجوقية استدعاه من مدينة السلام وتوجه نحوه ولاطفه الى ان برأ فاتاه العطايا الجمة من الاموال والمراكب والملابس والتحف وعاد الى العراق على غاية ما يكون من التجمل والغنى وسمع ان ابن فلح قد هجاه بقوله .

لنا طبيب يهودى حماقته	اذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب اعلى منه منزلة	كأنه بعد لم يخرج من التيه

فلما سمع ذلك علم انه لا يبجل بالنعمة التى انعمت عليه الا بالاسلام فقوى عزمه على ذلك وتحقق ان له بنات كبارا لا يدخلن معه فى الاسلام وانه متى مات لا يرثنه فتضرع الى خليفة وقته فى الانعام عليهن بما يخلفه وان كن على دينهن فوقع له بذلك فلما تحققه اظهر اسلامه وجلس للتعليم والمعالجة وقصده الناس وعاش عيشة هنية واخذ الناس عنه مما تعلمه جزءا متوفرا .

وثالثها ماروى القفطى عن ابن الزاعونى ان اسلام ابى البركات كان

سببه انه كان فى صحبة السلطان محمود ببلاد الجبل و الى محمود ولاية العراق وكانت زوجته الخاتون بنت عمه سنجر وكان لها مكرما محبا معظما واتفق ان مرضت وماتت فجزع جزعا شديدا ولما عاين ابو البركات ذلك الجزع من محمود خاف على نفسه من القتل اذ هو الطبيب فاسلم طلبا لسلامة نفسه .

فان كان ماروا ه ابن الزاغونى حقا فيكون اسلام ابى البركات من حوادث سنة اربع وعشرين وخمسمائة فان الخاتون ابنة السلطان سنجر زوجة السلطان محمود توفيت فى هذه السنة كما ذكره ابن الاثير فى حوادث هذه السنة .

كان ابو البركات طبيبا نطاسيا يخدم الملوك بصناعته والعامة بحسن تدبيره وكم له من خوارق طبية ذكرها ابن ابى اصيبعة فى طبقاته ، ضربنا عنها صفحا لانها لا تعنينا ، وكذلك ما دار بينه وبين معاصره ابن التلميذ الطبيب من المشاجرات .

وكان يجلس للتدريس ، فيتصدر فى حلقة اصحابه فتخرج بعض ذوى الشان بتعليمه ، ومنهم الشيخ يوسف والد موفق الدين عبد اللطيف البغدادى وجمال الدين بن فضلان ، وابن الدهان المنجم والمهذب بن النقاش وغيرهم . وكان عمى فى آخر عمره ، فكان يملى على اصحابه .

اما كتبه فأجلها كتاب المعتبر . قال ابن ابى اصيبعة وله من الكتب كتاب المعتبر وهو من اجل كتبه واشهرها فى الحكمة ، ومقالة فى ظهور الكواكب ليلا واختفائها نهارا الفها للسلطان المعظم غياث الدين ابى شجاع محمد بن ملكشاه ، واختصار التشريح اختصره من كلام جالينوس ولخصه باوجز عبارة ، وكتاب الاقراباذين ثلاث مقالات ، مقالة فى الدواء الذى الفه المسمى برشعثا (قلت يقولون اصلها برء الساعة) استقصى فيه صفته وشرح ادويته ، مقالة فى معجون آخر الفه وسماه امين الارواح ، رسالة فى ماهية العقل .

وذكر له البيهقى كتابين كتاب المعتبر وكتاب النفس ، والتفسير ، وقال له غير ذلك ولم يسم غيرهما .

كتاب المعتبر

هذا كتاب جليل الشان عظيم القدر لم ينسج على منواله ، عرف العلماء قدره ، واعطوه حقه من الاكرام والتبجيل ، قال القاضي الاكرم جمال الدين القفطي .

وكان موفق المعالجة ، لطيف الاشارة ، وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين فى هذا الشان واعتبرها واختبرها فلماصفت لديه وانتهى امرها اليه صنف فيها كتابا سماه المعتبر ،اخلاه من النوع الرياضي واتى فيه بالمنطق والطبيعي والالهي ، فجاءت عبارته فصيحة ومقاصده فى ذلك الطريق صحيحة ، وهو احسن كتاب صنف فى هذا الشان فى هذا الزمان .

ذكر الشهرزورى الامام فخر الدين الرازى فمما قال فيه ان اكثر الشبه التى اورد (الرازى) على الحكماء لابي البركات اليهودى. وان كان فيه غض من شان الامام لان الشهرزورى كان اشراقيا كان لا يحب الامام فاكثر فيه من الطعن المبرح ، ولكن هذا يرفع شان ابى البركات ، ويعلى قدره فان النكت التى اودعها كتابه اصبحت موقع قبول عند الامام .

وقد اكثر متكلم الاسلام العلامة ابن تيمية الحرانى ذكره فى كتابه الفذ النادر« الرد على المنطقيين ، وكتابه العقل والنقل ذكر فى الثانى فقال « فقال ابو البركات ما قيل فى منع التغير مطلقا حتى يمنع التغير فى المعارف والعلوم فهو غير لازم فى التغير مطلقا » (٢ — ٨٤) وكذلك نقل العلامة فيه ماحكى ابو البركات فى المعتبر من المقالتين عن غيره بل عن القائلين بقدم العالم (٢ — ٨٣) وقال « «واعترض ابو البركات على ماذكره ابن سينا بمايبين فساد الفرق بين الذاتى المقوم والعرضى اللازم وابو البركات لما كان معتبرا لما ذكره ائمة المشائين لا يقلدهم ولا يتعصب لهم كما يفعله غيره مثل ابن سينا وامثاله » (٣ — ٢٢٣) ثم ذكره فى هذا الكتاب فى صحفة ١١ من الجزء الثانى ، فى صحفة ٢٠٧ من الجزء الرابع .

وكذلك ذكره فى كتابه منهاج السنة ومدحه بكونه اقرب الى السنة

والحديث

والحديث فقال « ولكن ابن سينا نشأ بين المتكلمين النفاة للصفات ، وابن رشد نشأ بين الكلابية، وابو البركات نشأ ببغداد بين علماء السنة والحديث » (١ - ٩٨) وقال قبل ذلك « واما ابو البركات صاحب المعتبر ونحوه فكانوا بسبب عدم تقليدهم لاولئك وسلوكهم طريقة النظر العقلى بلا تقليد واستنارتهم بانوار النبوات اصلح قولا فى هذا الباب من هؤلاء وهؤلاء فاثبت علم الرب بالجزئيات ورد على سلفه ردا جيدا » (١ - ٩٦)
ثم ذكره فى صحيفة ٩٩ و١١٨ من الجزء الاول .

وقال العلامة فى كتابه الاول الرد على المنطقيين « وابو البركات وامثاله قد ردوا على ارسطو ما شاء الله لأنهم يقولون انما قصدنا الحق ، ليس قصدنا التعصب لقائل معين ولالقول معين » (١٩٩ من نسخة دار المصنفين)، وقال « وهى العقول العشرة او اكثر من ذلك عند من يجعلها اكثر من ذلك كالسهروردى المقتول وابى البركات وغيرهما » (١٢١) وقال فى مسئلة جواز قيام الحوادث بالقديم « ومن جوز قيام الصفات بالبارى منهم جوز قيام الحوادث به مثل كثير من اساطينهم القدماء والمتأخرين كابى البركات » (٢٢٤) وقال فى موضع آخر منه « وعلى طريقهم مشى ابو البركات صاحب المعتبر لكن لم يقلدهم تقليد غيره بل اعتبر ما ذكره بحسب نظره وعقله » (٢٩٢) وقال فى مسئلة الصفات « ولهذا لما تفطن ابو البركات لفساد قول ارسطو افرد مقالة فى العلم وتكلم على بعض ما قاله فى المعتبر وانتصف منه بعض الانتصاف مع ان الامر اعظم مما ذكره ابو البركات » (٤٥٤) ثم قال « ويجوزون حوادث لااول لها ولهذا كان كثير من اساطينهم ومتأخريهم كابى البركات خالفوهم فى اثبات الصفات وقيام الحوادث بالواجب وقالوا لاخوانهم الفلاسفة ليس معكم حجة على نفى ذلك » (٤٠٦) وآخرما قال « وليس هذا من لوازم القول بقدم العالم بل فى القائلين بذلك من يقول ان الله يفعل بمشيئته وقدرته كأحد القولين اللذين ذكرهما ابو البركات واختاره » (٤٥٧)

ولابى البركات اياد بيضاء فى نقد المسائل الطبيعية وايرادات صحيحة على الطبيعيات فقد كان الناس يعتقدون ان الطبيعيات كالالهيات والمنطقيات جامدة لا تنمو مسائلها ولا تزيد على ما علم منها من قطمير ، وهذا ظن فاسد كشف عنه ابو البركات الستر وازاح عنه الظلم ، فعرفنا ان سبيل المسائل الطبيعية التجربة والاختبار لا التقليد والاقتداء الاعمى .

كان الحكماء يقولون ان السكون بين الحركتين المستقيمتين لازم ، وبه انكروا حركة الافلاك حركة مستقيمة ذهابا وايابا لأنه يستلزم السكون وسكون الافلاك جالب لفساد العالم ، فتعرض له ابو البركات وقال فى جزء الطبيعى فى مباحث الحركة .

« واما الذين لا يوجبونه فانهم قالوا ان هذا لا يلزم لانا لو فرضنا حجرا عظيما هبط من علو كالرحى مثلا فلقى فى طريقه مدرة صغيرة مثل نواة تمرة أتراه كان يعيدها هابطة معه حيث يلقاها ويمنع سكونها قبل حركتها الهابطة، او كانت هى عند لقائها له توقفه فتكون نواة التمرة قد اوقفت حجر الرحى العظيم ومنعته عن حركته زمانا وذلك مستحيل » .

هذا نص ابى البركات فغير الناقلون عنه عبارته ونقلوه كما تراه فى شرح هداية الحكمة للفاضل الميبذى (فصل فى ان الفلك يتحرك على استدارة دائما) والشمس البازغة للعلامة محمود الجونفورى (ص ٩٠ - فى مباحث الحركة طبع المصطفائى) وهذه الحجة ناطحها الناطحون من جبابرة الحكماء فاجاب عنها المحقق الطوسى وغيره وذكره الامام ابن الخطيب وحاكم بين المثبتين والنفاة ثم قال وحجة نفاة السكون كأنها اقوى » (١ - ٦٢١ من المباحث المشرقية طبع دائرة المعارف » .

قد نقل الفاضل الميبذى فى شرحه من آرائه السديدة فى الطبيعيات ماترتاح اليه النفوس وتسلمه العقول ، فقال فى فصل ان الفلك قابل للحركة المستديرة (ص ٧٤) « وقال ابو البركات البغدادى وجود الحركة من حيث هو لا يتصور الا

فى

فى زمان فذلك الزمان الذى تقتضيه ما هيتها يكون محفوظا متحققا فى جميع الحركات الثلاث (اى حركة عديم الميل وحركتى ذى الميل الاقوى والاضعف) وما زاد عليه يكون بحسب المعاوق ، فيجب ان تشترك الاجسام الثلاثة فى ساعة واحدة لاجل اصل الحركة وهى زمان حركة عديم الميل ويكون الخ ، وقد اجاب عنه المحقق الطوسى فما اصاب ، وما قال ابو البركات واضح لذى عينين كالشمس فى رابعة النهار .

ثم نقل الفاضل الميبذى فى شرحه رأيه فى حدوث العيون والقنوات فقال « قال ابو البركات فى المعتبر إن السبب فى العيون والقنوات وما يجرى مجراها هو ما يسيل من الثلوج ومياه الامطار لانا نجدها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها وان استحالة الاهوية والابخرة المنحصرة فى الارض لا مدخل لها فى ذلك واحتج بان باطن الارض فى الصيف اشد بردا منه فى الشتاء فلو كان سبب هذه استحالتها لوجب ان تكون العيون والقنوات ومياه الآبار فى الصيف ازيد وفى الشتاء انقص ، مع ان الامر بخلاف ذلك على مادلت عليه التجربة » ثم قال الفاضل الميبذى » ان السبب الذى ذكره صاحب المعتبر معتبر لامحالة » ص ٢٠١ .

فيرى القارئ مما تلوت عليه من اقتباسات الكتب المعتبرة ان لصاحب المعتبر آراء صائبة ، ومسائل صحيحة استجادها رواد العلم ، واستحسنها الذين يبتغون الصواب ولا يتعصبون للاحزاب .

قال ابو البركات فى مقدمة كتابه انه الف هذا الكتاب « اغلبا اجابة لرغبة كبير تلامذته وقد يبهم الذى هو كاتبه و مستمليه . والذى تصفح تعاليمه وراجع فى علومه حتى كمل وانتهى باستملائه مع تعليمه وتحقيقه » .

ولم يسم كبيره الذى فعل ، ولكن ابن ابى اصيبعة حكى عن « الشيخ موفق الدين عبداللطيف البغدادى (صاحب الاعتبار وكان والده من تلامذته) فيما ذكره عن ابن الدهان المنجم (تلميذ ابى البركات انه) قال كان الشيخ ابو البركات قد عمى فى آخر عمره وكان يملى على جمال الدين بن فضلان وعلى ابن الدهان

المنجم وعلى يوسف والد الشيخ موفق الدين عبد اللطيف وعلى المهذب ابن النقاش كتاب المعتبر » طبقات الاطباء (ج ١ ص ٢٨٠ - مصر) .

وكما ترى انصاره من العلماء تجد له اعداء قال ياقوت فى معجم الادباء كان ابن التلميذ هبة الله من افاضل الاطباء واوحد الزمان ابو البركات فى خدمة المستضىء بامر الله وكان بينهما شنآن وعداوة ثم ذكر واقعة تدل على ان ابا البركات اراد الحيلة على معاصره فخاب ، (٧ - ٢٤٤) .

وقد برز الى ابى البركات من كماة العلم وحماة ارسطوظهير الدين على بن زيد البيهقى المتوفى سنة ٥٦٥ ه فاراد أن ينقض مابناه ابو البركات فوضع كتابا سماه المشتهر فى نقض المعتبر الذى صنفه الحكيم ابو البركات ، ذكره فى قائمة كتبه التى عددها سنة ٥٤٩ ه (ياقوت فى معجم الادباء - ٦ - ٢١٢) ولا علم لى بوجوده فلا اعرف منزلته ، قال الشيخ ابو البركات فى مبتدأ كتابه .

اما بعد حمد الله على نعمه التى حمده من افضلها وشكره على آلائه التى شكره من اتمها واكملها ، فانى اقول مفتتحا لكتابى هذا ان عادة القدماء من العلماء الحكماء كانت جارية فى تعليم العلوم لمن يتعلمها منهم وينقلها عنهم بالمشافهة والرواية دون الكتابة والقراءة فكانوا يقولون ويذكرون من العلم مايقولونه ويذكرونه لمن يصلح من المتعلمين والسائلين فى وقت صلوحه كما يصلح وبالعبارة اللائقة بفهمه وعلى قدر ماعنده من العلم والمعرفة المتقدمين ، فلا يصل علمهم الى غير اهله ولا الى اهله فى غير وقته ولا على غير الوجه الذى يليق بعلمهم ومعرفتهم وذكائهم وفطنتهم ، وكان العلماء والمتعلمون فى ذلك الوقت كثيرى العدد طويلى الاعمار ينقلون العلوم من جيل الى جيل بأسرها وعلى اتم تمامها فلا يضيع منها شيء ولا ينسى . ولا يقع الى غير اهله فلما قل عدد العلماء والمتعلمين وقصرت الاعمار وقصرت الهمم وانقرض كثير من العلوم لقلة المتعلمين والناقلين اخذ العلماء فى تدوين الكتب وتصنيفها لتنحفظ فيها العلوم وتنتقل من اهلها الى اهلها فى الازمان المتباينة والاماكن المتباعدة ، واستعملوا فى كثير منها

الغامض

الغامض من العبارات، والخفى من الاشارات اللذين يفهمها ارباب الفطنة ويعرفهما الاكياس من اهل العلم. صيانة منهم للعلوم عن غير اهلها.

فلما استمر الامر فى تناقص العلماء وتلاتهم فى جيل بعد جيل اخذ المتأخرون فى شرح ذلك العويص وايضاح ذلك الخفى ببسط وتفصيل وتكرار وتطويل حتى كثرت الكتب والتصانيف وخالط اهلها فيها كثير من غير اهلها واختلط فيها كلام الفضلاء المجودين بكلام الجهال المقصرين. فلما قدر لى الاشتغال بالعلوم الحكمية بقراءة الكتب التى نقلت فيها عن المتقدمين والتفاسير والشروح والتصانيف التى شرحها وصنفها المتأخرون كنت اقرأ كثيرا وأكب عليه اكبابا طويلا، حتى احصل منه علما قليلا، لأن كلام القدماء كان يصعب فهم كثير منه لاختصاره وقلة تحصيله ومحصوله واختلال عبارته فى نقله من لغة لى لغة، وكلام المتأخرين لاجل طوله وبعد ذيله عما يدل عليه، وحجبته عن محجته، واعواز الشرح والبيان المحققين فى كثير من المواضع اما للغموض واما للاعراض فتعذر الفهم لأجل العبارة والشرح، والعلم لأجل الدليل والبينة، فكنت اجتهد بالفكر والنظر فى تحصيل المعانى وفهمها. والعلوم وتحقيقها فيوافق فى شيء لبعض ويخالف فى شيء آخر لبعض من القدماء فى اقاويلهم، ويحصل باشباع النظر فى صحيفة الوجود من ذلك مالم يقل اولم ينقل، وكان ذلك جميعه لا ينضبط بالحفظ بل بتعليق فى اوراق استبقيتها للمراجعة والتحصيل. فاطلع على تلك الاوراق من رغب فى تبييض مصنف منها فامتنعت عن ذلك لما قدر من وقوعه الى غير اهله ممن يقبل اويرد ما فيه. او شيئا منه بجهل وقلة تأمل. فلما كثرت تلك الاوراق وتحصل فيها من العلوم مالا يسهل تضييعه مع تكرار الالتماس ممن يتعين اجابتهم اجبتهم الى تصنيف هذا الكتاب فى العلوم الحكمية الوجودية الطبيعية والالهية وسميته بالكتاب المعتبر لأنى ضمنته ماعرفته واعتبرته وحققت النظر فيه. وتممته لا مانقلته عن غير فهم، اوفهمته وقبلته من غير نظر واعتبار ولم اوافق فيما اعتمدت عليه فيه من الآراء والمذاهب كبير الكبره ولاخالفت صغير الصغره

بل كان الحق من ذلك هو الغرض والموافقة والمخالفة فيه بالعرض .

وكان اغلب اجاباتي فيه لكبير تلامذني وقد يمهم الذى هو كاتبه ومستمليه والذى تصفح تعاليمه وراجع فى علومه حتى كمل وانتهى باستملائه مع تعليمه وتحقيقه وقدمت على ما ضمنته من العلوم الوجودية ذكر العلوم المنطقية التى قيل فيها انها قوانين الانظار وعروض الافكار ، واحتذيت فى ترتيب الاجزاء والمقالات والمسائل والمطلوبات حذو ارسطو طاليس فى كتبه المنطقية والطبعية والالهية وذكرت فى كل مسئلة آراء المعتبرين من الحكماء ، والحقت ما اعوز ذكره من اقسام الراى ، واوردت البيانات والحجج بمقتضى النظر ماذكر منها وما لم يذكر ، ثم تعقبتها بالاعتبار واعتمدت من جملتها على ما رجحت به فى المعقول كفة الميزان ، وانتصر وثبت بالدليل والبرهان — ورفضت ما عداه كائنا ما كان وممن كان كما يظهر لمتأمله بالمطالعة والتصفح والمراجعة ويرى عذرى فى البيان وحجتى فى الحجة وبرهانى فى البرهان وقابلت جميع ذلك بالكتاب الاصلى والصحيفة الاولى اللذين اذانقل الكاتب منهما اصاب او قابل بهما صح الكتاب . ومن الله استمد المعونة وحسن التوفيق .

والكتاب يحتوى ثلاثة انواع من فنون العلم المنطق والطبيعيات والالهيات كما قال القفطى وكما سمعت ذكره فى مقدمة الكتاب لصاحبه نفسه ، ومن هنا يعرف خطأ الحاج خليفة حيث قال كتاب المعتبر لابى البركات فى المنطق ، ولعله لم يصل اليه الاجزؤه الاول فى المنطق .

فالجزء الاول من الكتاب فى المنطق وبه افتتح كتابه ، واحتذى فيه حذو ارسطو فى كتابه فى المنطق ، ولم يتبعه اتباع الاعمى لقائده بل اصلح ما افسده ، وصوب ما اخطأ فيه ، واتى بما اخلاه ، وقدم مقدمة تدل على انه يعرف قدر المنطق ومسيس الحاجة اليه ومقدار الحاجة ، ولم يبالغ فى مدحه مبالغة المتأخرين ، فكأنهم يحسبونه سحرا او طلسما لتصحيح الافكار ، وقد وصف المصنف المنطق فى مقدمته فنعم ما قال « انه قوانين الانظار وعروض الافكار » فوصف

المنطق

المنطق بكونه عروض الافكار كشف عن حقيقة الامر ، فكما بالعروض يعرف مستقيم الشعر من منكسره فكذلك يعرف حق الحدود والبرهان من باطلها .

وجزؤه الاول هذا فى المنطق يحتوى خمس مقالات فى فنون من المنطق مفترقة ، وكل مقالة تنقسم الى فصول ، فالمقالة الاولى منه فى الحدود ومقدماتها وهو عبر عنها بالمعارف وتصور المعانى بالحدود والرسوم ، وفيها ستة عشر فصلا وقال فى خاتمة المقالة الاولى « وقد بقى فى امر الحدود ابحاث تأتى فى المناسبات بينها وبين البراهين وهى اكثر ما امعن فيه المتقدمون فى الكتب المنطقية فى كلامهم فى الحدود فلذلك تكلموا فى الحدود بعد كلامهم فى البراهين وما عدا ذلك مما ذكرناه فلم يتكلموا فيه الا قليلا ، ومن استوفى فيه قولا فانما اورده فى العلم الكلى » .

ثم المقالة الثانية فى العلوم وما له وبه يكون التصديق والتكذيب فى سبعة فصول ، نتكلم فى هذه الفصول فى الايجاب والسلب ، والقضايا الكلية والجزئية واقسام القضايا ، واتبعها مقالته الثالثة فى علم القياس فى سبعة عشر فصلا وفصلها الاول فى تأليف القضايا بعضها مع بعض على صورة يستفاد بعلمها الحاصل علم بمجهول ، وتكلم فى هذه المقالة فى الاشكال وطرق نتائجها . ثم المقالة الرابعة فى سبعة فصول فى علم البرهان وفيها ذكر اقسام المقدمات ومطالب العلوم ، وآخر هذا الجزء المقالة الخامسة فى طوبيقا وهو كما قال المصنف علم الجدل وتأليف القياسات الجدلية يكون من مقدمات ذائعة مشهورة كما قيل .

وقد اعطى المصنف حق البحث فى الحدود وتحقيق الذاتى والعرضى ، واشكال القياس وقد استجاد الشيخ الحافظ ابن تيمية اقواله فيها فى كتابه الرد على المنطقيين .

والجزء الثانى من الكتاب فى الطبيعيات ولجزئه هذا مزايا خاصة لا تكاد توجد فى غيره من الكتب والاسفار والذى راقنى من امره انه تيقن يقينا جازما ان الطبيعيات امور تجربية مشاهدة محسوسة يكون الحق فيها لما ينصره ناصر

الحس والمشاهدة والتجربة لا القياس البحت والظن الصرف وجعل الكليات بغير الاستقراء والفحص عن الجزئيات فلذلك تراه يصف الطبيعيات وصفا شذ فيه عن القوم. فقال فى الفصل الاول فى تعليم العلوم وتعلمها « المتعلمون للعلوم من يتعلمون بالطبع والاتفاق، وقد يتعلمون بالقصد والارادة، والمتعلمون بالطبع والاتفاق يعلمهم الزمان بتردد الاذهان والعقول والافكار فى موجودات الاعيان ومتصورات الاذهان وتكرار النظر فيها وتكررها عليهم، وبذلك يكون الأحداث اعرف من الصبيان، والشيوخ من الشبان؛ ويزداد الانسان يوما فيوما وساعة فساعة فى مدة بقائه معرفة من هذا القبيل خاصة. واما الذى بالقصد والارادة فهو الذى يكون بالاستخبار والاخبار، والتأمل والاعتبار، واعمال الاذهان والافكار فيتعلم من المعلمين ويتبصر من المبصرين والهادين ولكل من الوجهين مباد واسباب فاسباب الذى بالطبع والاتفاق من ذلك مشابهة لاسباب الذى بالقصد والارادة فان العلم المجمل بالشىء انما يكمل بالعلم بتفاصيله وتتم معرفة الكل بمعرفة اجزائه والكلى بجزئياته والمركب ببسائطه، والبعيد بما يليه من القريب » الخ.

ثم قال فى الفصل الثانى بعد ما اوضح حقيقة الطبع والطباع وخواص الاشياء وآثارها « العلوم الطبيعية هى العلوم الناظرة فى هذه الامور الطبيعية فهى الناظرة فى كل متحرك وساكن وما عنه ومابه وما اليه وما فيه الحركة والسكون والطبيعيات هى الاشياء الواقعة تحت الحواس من الاجسام واحوالها وما يصدر عنها من حركاتها وافعالها وما يفعل ذلك فيها من قوى وذوات غير محسوسة فالعلم يتعرض لأظهرها فاظهرها اولا، ويترقى منه الى الاخفى فالاخفى، والاظهر عندنا من ذلك هو الاعرف والاقدم » الخ.

ولذلك نراه يعول على المشاهدة والاعتبار اكثر من تعويله على القياس وجعل الكليات، ولنضرب لذلك امثلة من كتابه.

١ - كل يعلم ان الآراء فى الآثار التى ترى على وجه القمر مختلفة،

 فقال

فقال صاحبنا « والآثار التى توجد فى القمر قد اختلف القائلون فيها فمنهم من ذهب الى ان الاثر يرى فيه وليس فيه كما يرى فى المرآة لصقاله وهو شكل الارض.... » ثم نقل آراء اخرى وردعليها » ثم قال « ولم يحصل لمن تقدم فى ذلك قول يعتد به » ثم قال « فالذى نعلمه من ذلك هو أن ذلك الجزء او الاجزاء غير المستنيرة فى القمر مخالفة الجوهر لجوهر باقية والذين هربوا من هذا خوفا من القول بالتركيب ما اصابوا لان العيان لايدفع »

(٢) وكذلك قوله فى المجرة فقد رد على من قال انها آثار فى جونا من اعالى الهواء وكرة النار — وقال « فان الاشبه من امرها انها اجسام كوكبية تصغر آحادها عن مثال ابصارنا وجملتها فى الفلك كالآثار فى القمر » واستدل عليه برصد مكانه.

(٣) قال فى الفصل السابع من الجزء الثانى فى حركات الافلاك والكواكب « قد وجد الراصدون من المنجمين حركات الكواكب مختلفة .... ولما سمع الراصدون ان السماء لا تنخرق اعرضوا عن نسبة الحركة الى الكواكب فى الافلاك وجعلوها للافلاك بكواكبها والا فالذى يشاهده البصر انما هو حركة الكواكب دون الفلك لكون الفلك متشابه الجوهر والاحاطة فلاتختلف نسبته الينا فى الوضع اختلافا تدركه ابصارنا لان السابق منه كاللاحق عند البصر... » ثم قال بحركات الافلاك بدليل آخر.

(٤) قال فى الفصل الحادى عشر فى الجبال والبحار والاودية والانهار والعيون والآبار، فجعل فى تكون كل منها رائده النظر والمشاهدة وطول التجربة الصادقة، وخالف من خالف ولم يبال بما فعل والحق ان الحق معه.

فقال فى تكون الجبال « لما كانت الارض يابسة ذات اجزاء لا تتجزأ وكان الماء يحيط بها والرياح تحرك الماء بالتمويج صارت الارض تتحرك اجزاؤها فى قعر الماء بحركته فتمتزج بالماء وتتصل به اجزاؤها ويبقى المتصل منها على شكل يتفق له فى حركته وامتزاجه بانعقاده و تنضاف اليه اجزاء بعد اجزاء من

الاجزاء الارضية المختلطة بالماء فيزداد عظماً بعد عظم ويرى هذا فى مياه وفى مواضع فان قوما اذا ارادوا احجار البنيان انهم القوا فى الماء الجارى نوى التمر وما يشبهه فيتلبس على كل واحدة اجزاء ارضية بعد اجزاء فتعظم كلما بقيت حتى تصير صخرا ».

ثم ذكر كيف يصير البر بحرا والبحر برا فقال « فاذا علت الارض مال الماء الى ما يليها مما هو اخفض منها وانكشف الجبل بنزوح الماء عنه، وتنزح المياه البحرية والبطاحية والآجامية على طول الزمان باسباب سمائية من حركات الكواكب والرياح المموجة تنتقل من مكان الى مكان وتنكشف ارض وتنغطى اخرى كما تراه الآن فى ارض النجف فانا نجد آثار حدود الماء فى اجرانه كأن زمانها لم يبعد فكذلك الجبال فى كل ارض ».

ذكر الرياح واسباب حدوثها وماذكره منها القدماء من ارتفاع الاجزاء الارضية والدخانية وهبوطها، ثم اتى بما ذكره المتأخرون مما يعرض لبعض اجزاء الهواء فيمقلب الهواء برودة وحرارة ويصعد بعضها ويهبط بعضها. ثم قال « ولقد رأيت ريحاز وبعية صعدت من وسط خركاه فحملتها صاعدة فى الجو واقلتها عن الارض بقدر قامة الرجل ثم سقطت ».

ثم قال « ولم نر للقدماء قولا فى سبب الرياح سوى هذا وما يرضى به متأمله » ثم فصل ما رآه فى هذا الباب.

٥ ـ وذكر اسباب حدوث العيون فقال « قال قوم وهم الاكثرون من الحكماء المتقدمين والمتأخرين ان الهواء المحتقن فى باطن الجبل يبرد فيستحيل ماء ويسيل فيستمد هواء ويبرد فيستحيل ماء ويسيل فيستمد هواء ويتصل ذلك على الدوم والدوور ويرد عليهم بنزوح العيون ويبس الآبار وانقطاع الاودية والانهار اذا قلت الثلوج والامطار وزيادتها بزيادتها ونقصانها بنقصانها، ولا ينفعهم شدة البرد مع عدم المطر والثلج فى زيادة الماء فى العيون والآبار واستدامته » ثم ذكر ما ناظره به مناظر فى مرج همذان ومارد به عليه

وايم

وايم الله ما قال هو الصواب ، وقد اثبتت الحكمة الحديثة صدقها .

٦ ـ ذكر ذوات الاذناب واسباب حدوثها وذكر ما شاهده وما حققه بتكرار المشاهدة .

هذا قليل من كثير وغيض من فيض وكتابه الطبيعي هذا منقسم على اجزاء الجزء الاول في المطالب التي تكلم فيها ارسطوطاليس في كتابه المعروف بالسماع الطبيعي وتحقيق النظر فيها ، والسماع الطبيعي هو الذي تقوله الآن ما يعم الاجسام . ثم الجزء الثاني يشتمل على المطالب التي تكلم فيها ارسطوطاليس في كتاب السماء والعالم وتحقيق النظر فيها . واراد بالسماء والعالم ما نريده بالعنصريات والفلكيات. والجزء الثالث من العلم الطبيعي يشتمل على المعاني والاعراض التي تضمنها كتاب الكون والفساد وتحقيق النظر فيها . والجزء الرابع منه يشتمل على المعاني والاعراض التي تضمنها كتاب ارسطوطاليس في الآثار العلوية والمعادن وتحقيق النظر فيها . والجزء الخامس منه في النبات والحيوان وختمه بكلامه في الجن والارواح . والجزء السادس منه هو كتاب النفس واطال فيها البحث اطالة لم تر عند غيره واتى فيه بعجائب العلم ، وغرائب النظر ولعله كتاب مستقل اظنه هو الذي ذكره البيهقي فقال له كتاب النفس والتفسير ، وبه تم كتابه في الطبيعي وان كان مستقلا فهو كتابه الثالث في النفس فترى في كتابه هذا انه يورد ما قاله ارسطو ومتبعوه اولا ثم يحقق فيه النظر . ويثبت ويرد .

ويتلوه كتابه الرابع كما هو مكتوب على النسخة بهذه العبارة « الجزء الرابع من الكتاب المعتبر » افتتح كتابه هذا بحد العلم فقال هو صفة اضافية للعالم الى المعلوم وبه يلوح ان ما اختاره بعض المتأخرين في حد العلم هو من بركات ابي البركات وكتابه هذا مفرق على مقالتين بحث فيهما عن موضوع هذا العلم والمبدأ الاول وصفاته والحدوث والقدم وبداية الخلق والايجاد عن المبدأ الاول والعقول والنفوس ، وانه ناطح فيها كباش العلماء ونصر فيها الحق ، واتى بدلائل

كل حزب واطال البحث فى الحدوث والقدم وهو الذى بدأ ما تناه الحافظ الامام ابن تيمية بقوله بتسلسل الاشياء من غير بداية ، لااول لها .

ثم هو ابطل اصلا عظيما من اصول الحكماء وهو الذى يعبرون عنه بكلمة صغيرة القدر كبيرة الضرر « ان الواحد لا يصدر عنه الا الواحد » ثم ابطل اصلهم الثانى القائل ان القديم لايكون محلا للحوادث ، ثم هدم اساسهم الثالث ان الله تعالى ليست فيه صفات زائدة وابطل تحديد العقول فى العشرة ، وقال العقول هى الارواح والملائكة .

هذا مجمل ما بدا لى فى شان المعتبر وصاحبه .

اما النسخ التى امامنا فهى نسخة كاملة طلبتها دائرة المعارف العثمانية هذه من استانبول ، وهى صورة شمسية (فوطو غرافية) من الاصول التى هى فى خزائن استانبول والذى يظهر من امرها انها كملت من نسختين مختلفتين اولاهما فى قطع كبير خطها خفى يقرأ بالمشقة ، وثانيتهما فى قطع صغير جلى خطه ، فالجزء الاول الذى فى المنطق والجزء الثالث الذى فى الالهيات هما من النسخة الخطية الثانية ، فالجزء الاول نقل شمسيا من خزانة لاله لى عدد النسخة ٣٠٠٧ وعلى لوحها ختم السلطان سليم خان ، اوراقها ٣٦٤ والجزء الثانى الذى فى العلم الطبيعى منقول من خزانة اسعد افندى رقم النسخة ١٩٣١ ، اوراقها نحو ٢٥٠ وقيد فى آخرها وقد استتب لمن استكتبته هذا الكتاب الفراغ عن تحرير هذا القسم يوم الاثنين السابع عشر من شوال سنة اثنتين واربعين وسبعمائة بجرجانية خوارزم فى الخانقاه الخاتونى المبنى بظاهرها على رأس قنطرة الكبريتى وتيسر لى مقابلة هذا القسم عن آخره ببلدة سراى الجديدة ، وتيسر الفراغ عنها فيها يوم السبت الثانى عشر من جمادى الاولى لسنة اربع واربعين وسبعمائة وهو اليوم الذى توجهنا عن سراى الجديدة غرة غده يوم الاحد الى بلدة قرم على نية التشرف بالاردوى الاعظم » .

وقد كتب على صفحة اخيرة فى مبتدأ هذا الجزء الاول وهى آخر القسم الاول من

من الكتاب واخذت صورة الصفحة فى اول الجزء الاول .

فرغ من كتابة هذا القسم من استكتبته هذا الكتاب ظهر يوم الثلاثاء الثامن من ذى الحجة لحجة اثنتين واربعين وسبعمائة بجرجانية خوارزم فى الخانقاه الخاتونى المبنى بظاهرها على رأس قنطرة الكبريتى وفرغنا نحن عن مقابلة هذا القسم من الكتاب المنتسخ هذا منه يوم الاثنين التاسع من ذى الحجة لحجة ثلاث واربعين وسبعمائه بسرانجق(؟) وهو اليوم الثانى من موفدنا عليه متوجهنا الى سراى »

فيلوح بهذا ما كان من شدة الرغبة لعلمائنا القدماء الى طلب العلم يلازمهم فى حل وترحال ولا يستقرلهم بغيره قرار .

وللكتاب نسخة خطية اخرى فى الخزانة الآصفية جلبتها من استامبول وملكتها .

سليمان الندوى
دار المصنفين اعظم كڈه
يولايو سنة ـ ١٩٣٧ م

المصادر

وجدنا ترجمة ابى البركات فى الكتب الآتية

١ ـ تتمة صوان الحكمة لظهير الدين البيهقى المتوفى سنة ٥٦٥ ﻫ ووضع كتابه هذا قبل سنة ٥٤٩ ﻫ .

٢ ـ راحة الصدور للراوندى المؤلف بين سنة ٥٩٩ ﻫ و ٦٠١

٣ ـ نزهة الارواح وروضة الافراح للشهرزورى الف بين سنة ٦٠٦ التى ذكرها المؤلف فى ترجمة الامام ابن الخطيب الرازى وسنة ٦١١ كما وجدت فى النسخة التى هى فى برلين .

٤ ـ اخبار العلماء باخبار الحكماء للقاضى القفطى وضع كتابه بين سنة ٦٢٤ وسنة ٦٤٦ ﻫ .

٥ ـ طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة الخزرجى المتوفى سنة ٦٦٨ الموضوع كتابه سنة ٦٤٣ ﻫ .

٦ ـ مختصر الدول لابن العبرى سنة ٦٧٩ ﻫ .

وحيث ان صاحبنا توفى سنة ٥٤٧ وعاش ثمانين اوتسعين سنة فلاشك ان اقربهم اليه ولادة وادناهم زمانا هو البيهقى ثم الراوندى ، ثم الشهرزورى ثم القفطى ، والعجب ان الذى هو من آخرهم عهدا هو الذى ذكر قرب عهده منه فقال القفطى قريب العهد من زماننا كان فى وسط المائة السادسة وابن العبرى أخذ ترجمته من ابن ابى اصيبعة حرفا حرفا ولم يزد عليه شيئا .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة العلامة الاستاذ المحقق السيد مناظر احسن گيلانی رئيس الشعبة الشرعية فی الجامعة العثمانية وركن دائرة المعارف

الشيخ الاكبر وطريقته

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى

اما بعد. دخل الداخل الاندلس فدخل معه ولو بعد حين كل ما كان لدى المسلمين الشرقيين من دينهم ودنياهم وعلومهم وفنونهم، حضارتهم ومدنيتهم، وما كان سبيله الا التنافس الذى نجده بين تيمك الدولتين الشقيقتين الاسلاميتين اى العباسية الشرقية والاموية الغربية فقسمة الدولة الاسلامية الوحيدة وان كانت فی بادی الرأی شقاقا وافتراقا، لكن استباقهما فی الخيرات قدصيرها نعم الوفاق، واما حكاية التنافر بين الخلافتين المبنى على العصبية الجاهلية ای الهاشمية والاموية فالحق ان رحاها ما كانت تدور الاحول عرش السلطة واما العامة من المسلمين فان اكثرهم بحمد الله عن مثل هذه الدنية المنتنة الجاهلية لمبعدون، فلم تزل تراهم بين تيمك القارتين الاسلاميتين من بدء الامر الى انقراض الدولة فی اياب وذهاب.

فكم من المغاربة شرقوا وكم من المشارقة غربوا، فهذا اسد بن فرات الذی زقه محمد بن الحسن الشيبانی الفقه زقا واليه تنتمی اولية تدوين الفقه الحنفی وجمعه ذهب بعلوم ابی حنيفة واصحابه من المشرق ودخل ديار المغرب فازدحم عليه الطلبة من كل جانب، وكذا صعصعة بن سلام ارتحل من الشام بفقه الاوزاعی الامام فالقی فی ارض المغرب عصا التسيار وبه نال فقه الاوزاعی فی تلك القارة انتشار وانتشار، ومابرح امره فی رفعة وعلو حتى دالت الدولة بعد المائتين، استولت عليها المالكية فسلك عليه كل سالك، وكذا الامام شبطون وابن زياد القرطبی وترعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن ابی هند

وغيرهم من المغاربة الاولين نزلوا حاجين زائرين بمدينة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم فوجد واهنالك امامها مالك بن انس رضى الله تعالى عنه فبهروا بعلمه وبهتوا بفهمه فلم يتمالكوا انفسهم حتى دخلوا فى حلقة درسه ومكثوا عليه سنين فلما رجعوا الى موطنهم رجعوا بمذهب مالك وكتبه . وكذا يحيى ابن يحيى المصمودى الذى كان من البرابرة شغف حبا بفقه مالك وموطئه فترك وطنه وتلمذ لمالك واصحابه كابن القاسم واشهب وسحنون حتى صار فى بلاد المغرب ملجأ فقه مالك ومأواه . وبه اصبح فى تلك القارة فقه الاوزاعى فى خمول وذهول ، ودرج شمس عظمته فى افول . وكذلك بقى بن مخلد المحدث الشهير الجليل سافر من بلاده الغربية لطلب الحديث فجاء بغداد والتزم امام عصره احمد بن حنبل الى ان اتقن السنن والآثار ، فلما عاد اصبح مرجع الحديث فى تلك الديار . وهذان المحدثان المغربيان الاصيلى والباجى هل كان بضاعتهما فى هذه الصناعة غير ماحازاها من المشارقة . وكذا الاثرى الفقيه المشهور ذو الكتب النافعة الممتعة ابوبكر بن العربى المعافرى صاحب احكام القرآن فان اباه ذهب به من اشبيلة الى بلاد المشرق فى صباه وتضلع هنالك فى كنف ابيه بالعلوم المتفننة فلم يغادر منها شيئا ثم كر الى وطنه وانتهت اليه الرياسة فى الدين . ثم وراء ذلك طائفة اخرى قفلوا من المشرق باموز شتى فمنهم من رجع بعلوم الاوائل كابن السمية واحمد وعمر اللذين كانا من ندماء الحكم الخليفة ومحمد بن عبدون الجيلى وابى الحكم عمرو بن عبدالرحمن القرطبى الذى هو اول من عاد الى بلاده برسائل اخوان الصفاء ومنهم من نزل دياره بمسائل الاعتزال كالبلوطى ومسلمة ابن قاسم ومحمد بن ميسرة وغيرهم . وبالجملة فهذان الصنوان لدوحة الاسلام كانا متشابكين متماسكين وبه ظل تاريخ الدولتين متشابها فلا تجد شيئا فى الاولى الا ستجده اومثله فى الاخرى والامور المشتركة بينهما وان كانت متكاثرة متوافرة ولكن المهمات التى نحسبها من الامهات لا ترجع الا الى امرين .

الاول جهدهم فى التشريع الاسلامى تدوينا وترتيبا تنقيحا وتشريحا .

والثانى انغماسهم بعد احتلال علوم الاوائل فى العقليات .

واريد اليوم ان اقص عليكم منهما قصصا .

فالتشريع الاسلامى (اى وضع القانون وتدوينه) اوتقول ان امر القضاء والفتيا كان فى بدء الدولتين راجعا الى الكتاب والسنن والآثار وما كان لأحد أن يلتزم لدينه وعمله قول امام دون امام واما التقليد الذى ليس لجاهل عنه محيص ولامحيد فغاية أمره كانت تنتهى الى انه كان لكل بلدة امام فكل قطر من اقطار الاسلام كان تابعا فى فتياه لامام قطره وعالم بره وقلما كان يتجاوزه وكذا الدولة ما كان عليها ان تتخذ لعهدة القضاء قاضيا من جماعة دون جماعة وتلك الحرية الحية الدينية لاشك انها كانت فى بداية الأمر انفع ولبقاء الاجتهاد ونموه خير مهيع ، حتى حل قرن الملك العضوض والملوك الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وامسى الناس لهواهم تبعا ظهر اعجاب كل راء برائه وكان ولابد ان تفشو فيهم الفوضوية الشيوعية التى هى من اعضل دائه — اتخذت العامة رؤسهم جهالا ضلوا فأضلوا ولا سيما الخلفاء والملوك فاختاروا لأنفسهم القضاة المتملقين المدهنين الذين كان اكثرهم الا ما شاء الله عن الدين الخالص حفاة وعراة .

وهذا الذى اقام امام الملة ، فسدت به الخلة ، نريد به اما منا وامام المسلمين الامام الاعظم ابا حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى فشمر رضى الله تعالى عنه عن ساق الجد ذيله ، جمع طبقة من دهاة الشبان حوله وكان لكل منهم فى العلم والدين شان فبذر رحمه الله فى قلوبهم حب الدين والايمان ثم اسس بنيان التشريع الاسلامى على التقوى فرجع بحمد الله باحسن الجدوى ثم لما تم الامر وكمل نوى الخلاف والجدال مشتعلا بين ابى حنيفة والدوانيقى الخليفة ، والحكاية مشهورة ، ولكن هنا لك امر واكثر الناس عنه غافلون اومتغافلون نريد أن نمحص لكم علة الخلاف ونحصحصها .

لا ريب ان المؤرخين فى تأويله لمختلفون ، فمنهم من ينسب قتل الامام

مسموما الى اباء عهدة القضاء ومنهم من ينميه الى نصرة اهل البيت وآل العباء ولكن الحقائق التى هى فى كتب القوم مبثوثة والحوادث التى فى صحف التاريخ مبددة ومنشورة تهدينا الى امر آخر وكل ما ذكرته من قبل انما ذكرته لهذا الامر، فعندى والله اعلم بحقيقة الحال ان تلك المشاجرات كلها كان مرجعها الى النزاع الذى دار بعد تدوين الفقه بين الحكومة والعلماء فالعلماء كانوا يدعون الخلفاء ان يستأصلوا من بين ايديهم تلك الفوضوية الفاشية التى تفرق بها شمل المسلمين وشتت، وان يخلصوا من تولية القضاء والفتيا الى كل متملق جاهل وعن حلية الدين والتقوى عاطل وينتهوا عنها، بل يوسد الامر الى اهله وان يهبوا القوس لباريها ويأتوا البيوت من ابوابها فليلا ونهارا كانوا ينادونهم جهارا ان يحولوا امر التشريع والتقنين الى العلماء المخلصين الذين هم لدين الله ورسوله من الناصحين، والحق انه ما كان هذا الاضربة على سيادتهم المطلقة الاستبدادية الشدادية وطأة على بطشتهم الجبارية العملقية فانه ما كان يبقى فى ايديهم بعده الا تنفيذ ما شرعوه وتنجيز ما فصلوه فاصطدمت به عواطفهم الملكية السلطانية الجبارية وتزلزلت، وهذا الذى به اضطرمت نار الخلاف واضطرت الخلفاء الى الجور والاعتساف فارادوا بهؤلاء الكرام المخلصين الناصحين كيدا فيوما كانوا يهددونهم ويردعون، ويوما يستكينون لديهم ويدهنون، ربما يحرضونهم على القضاء وبه يطمعون، وتارة يقضون عليهم بالسجن والسياط وبها يرهبون.

جرى الأمر على هذا المنوال وكان الحرب بينهم سجال حتى ظهر فى هذا السبيل تلك الداهية الكبرى التى صبت بيد الدوانيقى الخليفة، على امام الامة ابى حنيفة فقتل رضى الله تعالى عنه مسجونا ومسموما وتلقى ربه شهيدا ومرحوما ظن الدوانيقى انه فاز فيما اراد، وحسب انه اجتث بقتله جذر العناد ولم يعلم المسكين ان ربه كان بالمرصاد، فما لبث غير بعيد، حتى استوى على عرشه حفيده هارون الرشيد فما وجد لنفسه ولدولته مناصا ولا محيصا ولا بدا ولا محيدا الا ان

يفوض الى العلماء كلما اريد منه ومن آبائه الاولين حتى طلب ابا يوسف القاضي تلميذ ابي حنيفة وولاه ، وفوض الحكومة والتشريع المطلق اليه وهذه شهادة التاريخ ونصه .

« لما قام هارون الرشيد فى الخلافة ولى القضاء الى ابي يوسف صاحب ابي حنيفة بعد سنة سبعين ومائة فأصبحت تولية القضاء بيده فلم يكن يولى ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر الى اقصى عمل افريقية الامن اشار به » (١)

لاريب ان القضاء وامره لم يكن بدعا فى الاسلام ولكن تولية القضاء لمن شاء وبما شاء وباى طريق شاء هل كان له مثال من قبل ؟ وما كان هذا الا ان العوام من المسلمين فى العراق والمشرق بل اكثر الخواص كانوا بقتل اما مهم الاعظم فى بلبلة واضطراب فهدأت به الضوضاء وركدت به الغوغاء استراح المؤمنون واصبحوا فى سكينة وعافية بعد ما كانوا فى تبدد وشتات فالحمدلله الذى جعل كلمة الدين واحدة ولم يمض على هذا الانقلاب زمان حتى ترى الحكم بن هشام فى الاندلس يكل امر التشريع والتحكيم الى عالم مالكى يحيي ابن يحيي بن كثير المصمودى صاحب مالك بن انس الذى مر ذكره من قبل واتبع الخليفة الاموى فى عمله هذا اخاه الهاشمى حذو ابحذو وذراعا بذراع وماجاوزت شرائطه عن شريطة العباسى مثقال خردلة واليك مايقص التاريخ

« كان يحيي بن يحيي بن كثير مكينا عند الحكم بن هشام الخليفة مقبول القول فصار لايولى القضاء الامن اشار به يحى « (١)

فما كان ليحيي عند الحكم الا ما كان لأبي يوسف عند الرشيد بيد أن من ولاه الرشيد كان حنفيا ومن ولاه الحكم كان مالكيا — لأحد أن يجعل سبيله حميتهم العصبية ولكن الخبير يعلم انه ليس هذا مبناه بل الحق ان كلا من الامامين قد فازبمناه فان الدولة العباسية هى التى قد اتخذها ابوحنيفة مرماه والدولة الاموية هى التى جعلها مالك امامه وعلى كل ما ادعيناه بينة فى كتب القوم ليس هذا

(١) نظرة تاريخية الى المذاهب الاربعة — لتيمور باشا المصرى .

موضع بسطه ومن شاء فليراجع الى نفح الطيب والديباج والمعجب للمالكية والى تراجمهم وطبقاتهم للحنفية ـ وبالجملة فلم به شمل المسلمين شرقا وغربا وانطفت به نار الفوضوية وخمدت وبالسكينة والامن ارض الله قدامتلأت .

ولكنه كما قد يلد الشر خيرا كذلك ليس فى هذه الدار خير الا تصير عاقبته شرا وخسرا فالحق انه ما زاد به العلم الاضيقا ووهنا ، خمدت قريحة الاجتهاد وبدأ فى الامة الاتكاء الاعمى وسوء الاعتماد اصبح الدين تقشفا وامسى النظر والفكر تعسفا سميت البطالة تقليدا وجعل المحقق للدين عنيدا ، فان بعد هذه التولية والتوكيل عظم امر الفقهاء فى القارتين ونفقت بهما كتبهم نفاقا فشحنت بها خزائن الكتب طباقا طباقا ترى الناس مكبين على حفظ المتون ودرسها مولعين بتدبرها وفهمها مشغوفين بها شرحا وبيانا استهتروا بها وتهوكوا فيها حتى كاد أن لا ترى لهم وراء ذلك شغلا وعسى ان لا يحسب ما دون ذلك علما وفضلا فنبذ كتاب الله وراء الظهور ووقعوا عن السنن والآثار فى بعد ونفور ، وما بقى النظر فيها الاللبركة اوايصالا للثواب الى اهل القبور من تلقاءعقبه والحق يقال ان الفقهاء اكثرهم اصبحوا من حديث رسولهم فى شك وارتياب غالوا وتغالوا كبرا وعتوا حتى قال قائل منهم من دون حياء ولاحجاب وكفى لكم فى هذا الامر هذا القول الخبيث « ان ليس طلب الاحاديث الاحرفة المفاليس » .

وبالجملة فكما كانت الدولتان فى الخير شريكتين اصبحتا فى شرهما هذا خليطتين وهذا ابوبكر بن العربى المعافرى الأثرى الامام مع تصلبه فى التقليد يقول فى قواصمه حاكيا عن بلاده المغربية .

« حتى آلت الحال ان لاينظر الى قول مالك وكبراء اصحابه ويقال قد قال فى هذه المسئلة اهل قرطبة واهل طلمنكة واهل طلبيرة واهل طليطلة فانتقلوا من المدينة وفقهائها الى طلبيرة وطريقها » .

ثم يخبرنا عن نظام تعليم عصره وما كان عليه الكتاب والسنة فى عهده عزا

وقدرا

وقدرا فيقول .

« فاذا صار الصبي عندهم ذا عقل فان سلكوا امثل طريقة لهم علموه كتاب الله فاذا حذقه نقلوه الى الادب فاذا نهض منه حفظوه الموطأ فاذا اتقنه نقلوه الى المدونة ثم ينقلوه الى وثائق ابن العطار ثم يختمون له باحكام ابن سهل فقال قال فلان الطليطلي وفلان المجريطي وابن مغيث لا اغاث الله نداه ولا انا له رضاه فيرجع القهقهرى ابدا وردى الى امه الهاوية » .

وليحرر من كلامه رحمه الله ان امرهم هذا تعليما كان لأمثلهم طريقة وسبيلا فمن يخبرنا عن الذين كانوا عن الصراط ناكبين فلينظر الى اين بلغ وهن العلم والدين فى ايام تقهقهره ولا يغرنكم ذكره القرآن والموطأ فانه ما كان تعليمهما الا تبعا ورسما فما كانوا يقرؤنهما علما وفهما والمراكشي يصرح به فى معجبه وهذا نصه .

« يعنى النظر فى كتاب الله وحديث رسوله فلم يكن احد يعتنى بهما كل الاعتناء » وكان هذا اول البليات من الامهات التى كنا بصددها .

واما ثانيها اريد به ولوج علوم الاوائل فى قارة الاسلام وبيضته فالعباسيون هم الذين جاؤا بها اولا فى بغداد هم ودار سلامهم والامويون الغربيون كانوا فى امرهم هذا لهم تبعا بل الحق انهم كانوا فى بدء امرهم من تلقائها فى استنكاف وحذار ولكن ما قدر لإبائهم هذا ثبات ولاقرار والزمان له دوار ،فدالت الدولة ودارت البكرة حتى حلت فى ساحتهم الفلسفة وما ضاهاها — فابن سمينة والشقيقان الشهيران احمد وعمر ومحمد بن عبدون الجيلي ولاسيما الحكم بن عمرو بن عبدالرحمن الكرمانى بخاس خلال ديار المشرق طالبا لعلوم الاوائل حتى ظفر بالرسائل التى دونتها جماعة اخوان الصفاء والتسويلات التى نجدها فى تلك الرسائل وما دسوا فيها من الآيات والاحاديث وموهوها بالباطل ، فسعى ارواجها فى بلاد المغرب بشتى الوسائل حتى دب بها فى قلوب المسلمين طعم الفلسفة وشحها دبيبا فاصبح من ليس من المتضلعين بعلوم الاوائل

لايعد اديبا ولا اريبا .

ثم محمد بن يحيى هو اول المغاربة جال فى هذا الوادى ، وهذا الذى اشتهر اسمه فى الكتب اللاطينية التى كتبها المسيحيون الاوربيون فى القرون الوسطى باسم بقنباس ونعرفه نحن معاشر المسلمين بابن الصائغ اوبابن باجه ـ يقال انه اول من انتفع بعلم المشارقة يعنون بها الفلسفة التى حدثت فى الدولة العباسية ثم لم يمت ابن باجه حتى علا امر الفلسفة فى المغرب ورق ، اصبح تحصيلها والتمكن فيها هو الغاية القصوى الى ان قال قائل منهم ان الآخرة كانت للفلسفة خيرا من الاولى يشيرون به ان الاموية سبقت فى هذا المضمار على اختها العباسية .

ولاغروفان الاقاليم التى هى على بعد من الاعتدال كاوربا وغير ذلك من الامثال فاللون الظاهر البادى على سكانها كما نراه يكون متجاوزا عن حدود الفطرةوعاديا فربما كان باطنهم ايضا لايستقر على العدل والنصفة،فى كل امرلهم غلواءوخبط كخبط العشواءفان مالوا الى الدين مالوا الى الوثنية اوالوهمية وان جنحوا الى العقلية جنحوا الى المادية الدهرية اوالفوضويه الهمجية وفى دأبهم الغابر وطريقهم الحاضر خير شهادة وبينة ـ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولوشاء لهداهم اجمعين .

ولنعد الى ماكنا فيه فالحاصل ان علوم الاوائل لما استفحل امرها فى تلك البلاد وكبر انبعث من بينهم رجال عظام فخاضوا فى يمها وولجوا فى سمها حتى صار اكثرهم فى تلك العلوم رئيسا واماما ـ فهذا ابن طفيل وابن زهر وابن حفصون وابن جابر وجابر بن حيان وابن البيطار وغيرهم من الحكماء الخيار الذين ملىء بذكرهم الخافقان يعدون لمضمار الحكمة اكرم الفرسان ولكنه مع اللتيا والتى فما جاوز الحال الى حين دون القصد والاعتدال حتى قام ابن رشد قائدهم زيغا ورائدهم بغيا وعدوا بجفاء بطريقته العوجاء فاشتدت البلوى وطم الوادى القرى ـ فعاد الدين غريبا وماكان فى ايدى نصحائه الا ان يقعدوا

فى

فى بيوتهم حزينا وكئيبا فما كان لأحد أن يكبحه عن جماحه ويرده عن غلوائه فكان هذا للاسلام هى الداهية الكبرى وكاد أن لا يبقى للايمان ملجأ ولا مأوى .

وبالجملة فالعامة من المسلمين كانوا عاكفين على تلك المتون الفقهية نابذين وراء ظهورهم الكتاب والسنة النبوية واما خواصهم فاكثرهم كانوا نائمين وبمس الفلاسفة متخبطين فترى بعضهم آخذا بحجزا فلاطون واثولوجيه وآخرين منهم يتبعون فرفوريوس وأيساغوجيه وشرذمة ما كان لهم هم الا ما قال الاسكندر الافرودوسى وطائفة لاتحرك السنتها الابقول نقولاس وجالينوس ولكن الاسعد باقبالهم والمخصوص باجلالهم كان ارسطوطاليس واقواله ولاسيما ابن رشد فقد شغفه حبا فكاد يتخذه الها وربا وهذه شهادة من اكثرهم له مدحا واحسنهم عليه ثناء يقول فى كتابه اعنى به الاستاذ لطفى جمعه صاحب فلسفة الاسلاميين .

« لو كان ابن رشد يقول بتعدد الآلهة لجعل ارسطو رب الارباب فان تقديسه له يفوق العبادة »

ولاغرو فان هذا مانص به ابن رشد نفسه قال فى كتابه مقدمة الطبيعيات

« ولاحرج ان نحسبه (ارسطو) ونعده ربا من الارباب »

وفى موضع آخر من كتابه هذا

« مابلغ احد من البشر الى ساعتنا شأوه »

وفى كتاب آخر له يجعله للرسل ندا فيقول

« كل ماجاء به ارسطو وقال به فانه حق لاريب فيه فان قلنا بعد ذلك انه رجل بعثه الله ليعلمنا كل ما نستطيع ان نعلمه فهل يكون هذا كذبا وزورا »

وفى مقام آخر بمثله يريد أن يختم به الرسالة

« كان هذا الرجل (ارسطو) اسوة للنوع البشرى انما خلقه الله ليجعله مظهرا لكمالاته بظهور ليس فوقه ظهور »

واليكم ذلك المنشور التاريخى الذى شاع فى عصر ابن رشد بل لفتنته خاصة يقص عليكم كل ما صب على المسلمين والاسلام بايدى هؤلاء المتفلسفين الضالين المكذبين الظانين بالله وبرسله ظن السوء ويخبركم بما كان فى تلك الايام من الاستخفاف بامر الدين وهوانه وهذا منشور صدر بامضاء السلطان الملك المنصور يعقوب الرابع من خلفاء الموحدين وليس هذا موضع ان يؤتى بالمنشور كله فلنذكر ههنا قطعة منه وهذا ماجاء فيه بعد ذكر الفلاسفة وعلومهم.

« نشأ منهم (الفلاسفة) فى هذه المحجة البيضاء (الاسلام) شياطين انس يخادعون الله والذين آمنوا ويوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا دبت عقاربهم فى الآفاق برهة من الزمان »

ثم جاء بالكيد الذى دسوا به فى المسلمين اعنى كتبهم الممزوجة فيقول .

« ظاهرها (الكتب) موشح بكتاب الله وباطنها مصرح بالاعراض عن الله منزلة للاقدام وهم يدب فى باطن الاسلام اسياف اهل الصليب دونها مفلولة وايديهم عمايناله هؤلاء مغلولة فانهم يوافقون الامة فى ظاهرهم وزيهم ولسانهم ويخالفونهم بباطنهم وغيهم وبهتانهم » .

فلما اطلع المنصور على دسائسهم السامة ومضارهم الطامة اراد رحمه الله ان يدافعها بسيفه ويقلعها بخيله ورجله واليه اشار فى ختام منشوره .

ولكنه لكل داء دواء ولكل نار ماء ومن المثل السائر لكل فرعون موسى حتى اتى الجبار بسنته .

فاقام لهم منهم اماما وجعله لدينه قواما ، وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وهيأ له من أمره رشدا ويسر له أمره حتى لم يبق علم ولاصناعة فى عصره الا كان له فيه احسن مقام كأن ربه اصطنعه لنفسه ليظهر على الناس جلاله وقدسه وهذا هو امام الامة شيخ المشايخ برزخ البرازخ خاتم فص الولاية الشيخ محى الدين ابن عربى رضى الله تعالى عنه وارضاه وهو الذى جعلناه موضوعا لهذه المقالة .

ولا اريد اليوم ان اقص عليكم سيرته الطيبة الكاملة واتلو عليكم كلى ما فتح عليه من علومه اللدنية التى هى فى كتبه الممتعة البديعة مبثوثة ومنشورة ومن ذا الذى يحيط بها علما فانه والذى نفسى بيده كل سطر من سطوره بحر زاخر لم يطمثها انس قبله ولاجان ولم ينسج على منواله احد كائنا من كان دون الانبياء والصحابة الذين اتبعوهم باحسان بل كلما اذكر لكم فى مقالتى هذه انما يتعلق بتبينك المسئلتين اللتين مهدت لهما تمهيدا .

فانه قد اشتهر عن الشيخ انه كان فى فروع الدين ظاهريا ، واما فى الاصول والعقائد فالناس فيه مختلفون ، منهم من يزعمه صوفيا واكثرهم اليه راغبون وآخرون من دونهم نسبوا اليه ما تخربه الجبال خرورا وتهد الارض به هدا ـ فانهم عفى الله عنهم قد رموه بالزندقة ومنهم من يلوثه بالقرمطة والى الله المشتكى نصبر جميل ولكنه من سمع كل ما سردته من قبل ووعاها ويضع بين عينيه ماحل فى عصره رضى الله تعالى عنه ورعاها فانه ان شاء الله سيهدى الى سر الامرين ويتبدى الصبح لذى عينين .

فقد رأيتم ما كان عليه امر العامة من المسلمين فى الاندلس جمودا وخمودا كانوا بسدرهم القايل قانعين وعلى تماثيلهم الفقهية عاكفين ، تركوا كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سدى ، فهل كان لكبحهم عن التقليد الاعمى ولا يقاظهم عن نومتهم الصماء سبيل غير الظاهرية التى بها الشيخ اتى ومما جرب وعرف هددوا بالموت حتى يرضى بالحمى .

وهذا التاريخ ينطق عليكم بما قلنا فان الشيخ وبعض قرنائه من العلماء كابن حزم وامثاله لما اتخذوا الظاهرية لأنفسهم مسلكا ، انتبهت الامة بقارعتهم عن الرقاد ورجع الدين الى سيرته الاولى وعاد ، اهتز كتاب الله وربت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نضرة وبهاء ، زاد الدين والعلم بها نورا وجلاء وامتلأت الارض ولا سيما الاندلس وما حولها تفسيرا وحديثا ، اشتعلت القرائح تدقيقا وتحقيقا فلا تسمع بعده من ذلك التقليد الاعمى همسا ولا حثيثا

ودواوين الاسلام التى دونت فى تلك الاقطار بعد القرن الخامس والسادس من الهجرة كفى بهن شهادة وبرهانا واليكم بكتب ابن العربى المعافرى الاثرى صاحب تفسير انوار الفجر الذى كان فى ثمانين مجلدات طوال وتلاميذه كالقاضى عياض والسهيلى الامام السيرى والحافظ ابن بشكوال المؤرخ الاثرى ووراء اولئك خلق كثير كالاصيلى والباجى وكذا ابن حزم مع غثه وسمينه ، والزرقانى وغيرهم، من شاء فليراجع الى كتبهم يزداد إن يشاء الله بما ادعيناه ثلجا ويقينا وعلى كل حال فدار الزمان على هيئته فترى الحكام والقضاة يقضون بكتاب الله وسنة رسوله وبهما يعدلون ، وبالصحابة والائمة يهتدون.

وما كان هذا الامر بالعلماء محصورا بل الملوك والسلاطين نالوا منه حظا موفورا فهذا يعقوب بن يوسف الخليفة الذى مر ذكره روى عنه المراكشى انه «كان يملى على الناس الاحاديث بنفسه ويأخذهم بحفظه ويجعل لمن يحفظه الجعل السنى من الكسى والاموال».

فظنى والله اعلم بالصواب ما كانت ظاهرية الشيخ الا لمصالح الامة وحماية القرآن واحياء السنة وما كان بناؤه على سب السلف وبغض الائمة فانه رحمه الله لايزال فى كتبه يثنى على طريقهم ويمدحه ويحسب ان اختلافهم ما كان الا رحمة بالامة وله فى هذا الشان اقوال كثيرة مسددة وهذا انموذج منها يقول فى موضع من فتوحاته .

« اجمعنا على تقرير حكم المجتهد وعلى تقليد العامى له فى ذلك الحكم لانه دليل شرعى » .

فهذا مسلكه السديد فى امر الاجتهاد والتقليد ، فهل هذا هدم لبنيانهما او تأسيس لهما وتشييد .

واما خلافياتهم الاجتهادية فيقول بعد ذكرها

« ولكن بحمد الله جعل الله فى ذلك رحمة اخرى » ثم فصلها واتى فيها بعجاب لم يسبق بمثلها فى كتاب ، ولولا خشية الاطناب لذكرتها تفصيلا ، والكتاب

الموعود

الموعود لبسطها نعم المآب ، .

واما قوله فى الاجماع فمن نخب اقاويله ما اورده فى بحث استقبال الكعبة حيث يقول .

« اتفق المسلمون على ان التوجه الى القبلة ، اعنى الكعبة شرط من شروط الصلاة فلولا ان الاجماع سبقنى فى هذه المسئلة لم اقل انه شرط فان قوله تعالى (فاينما تولوا فثم وجه الله) نزلت بعده وهى آية محكمة غير منسوخة ولكن انعقد الاجماع على هذا » .

نعم له مقال فى عامة الفقهاء المتشددة لاسيما على قولهم فى التلفيق، والقضاء بحرمته حتى لا يطلب فى نازلة من النوازل الرخصة التى توجد فى مذهب آخر ولو اشتدت بها الحاجة فحكمهم هذا ليس عند الشيخ حتما مقضيا بل يحسب امرها كلها سويا وكان الائمة كل منهم عنده عنها بريا قال فى المجلد الثانى من فتوحاته .

« لولا ان الفقهاء حجرت هذه الرحمة على العامة وشددوا فى ذلك وقالوا هذا يفضى الى التلاعب بالدين وتخيلوا ان ذلك دين وقد قال صلى الله عليه وسلم ان الله تصدق عليكم فاقبلوا صدقته فالرخص مما تصدق به على عباده » .

ثم بعد اسطر

« وهذا (اى منعهم عن الاخذ بالرخص ومنها التلفيق) من اعظم الطوام واشق التكليف على عباد الله فالذى وسع الشرع بتقرير حكم المجتهدين من هذه الامة ضيقه عوام الفقهاء » .

ثم عقبه بقوله « واما الائمة مثل ابى حنيفة ومالك واحمد بن حنبل والشافعى فحاشاهم من هذا ما فعله واحد منهم قط . . . . بل المنقول عنهم خلاف هذا رضى الله عنهم » انتهى قوله الشريف فانظر وادبه مع الائمة والترضى عنهم .

واما الفقهاء العامة الذين يخاطبهم بعلماء الرسوم فربما يلومهم فى كثير من المسائل ويتأسف عليهم لاسيما فى تقشفاتهم العنيفة ولكنه مع هذا فلايجاوز

عن شريطة الاعتدال والحق ان لكل مقام مقال ، فيقول فى المجلد الاول من الفتوحات عقيب ذكر مسئلة ويثنى عليهم وهذا نصه .

« ماغلق الفقهاء هذا الباب الامن اجل المدعين الكاذبين فى دعواهم ونعم مافعلوا »

فالحق ان الشيخ رحمه الله لاينكر القياس ولا الاجماع بل كل منهما عنده دليل شرعى يتبع ويطاع وكذلك المجتهدات التى يسميها الشيخ بالمسكوتات ليس أمرها عنده الاسويا ولربه مرضيا .

نهاهى ظاهرية الشيخ وما كان عليه عنده أمرها فعسى ان لايكون وراء احياء السنة وردالناس الى كتاب الله لمها وسرها واما الذين فىظاهريتهم اعتدوا وطغوا وعلى الائمة الهداة السادة بغوا وجاؤا فى كتبهم بالفسوق والسباب كامثال ابن حزم وقرنائه فليت شعرى ليس هذا فى الظاهرية الا نهمتها ولحاية الكتاب والسنة تخمتها ، فكثير منهم من جعل اللز للسلف الصالحين لهم شغلا والهمزلهم دينا وعدلا هم الذين لايحسبون الاجماع والقياس من الشرع فى شيء والمعتصمون بهما فى دينهم ليسوا عندهم الا فى ضلالة وغى وكانوا ينادون الناس جهارا « لاقول الاماقال الله ولانتبع الارسول الله فان الله لم يأمر بالاقتداء باحد ولابالاهتداء بهدى بشر ولا بالانقياد لاب ولاجد » كلا ان الانسان ليطغى) وكم من كلمة حق يراد بها الباطل حتى احرق بعضهم كتب الفقه ومتونها فيا للعصبيةوجنونها وهذا المراكشى يشهد برؤية عينيه فيقول .

« امر باحراق كتب المذهب اى مذهب مالك بعدأن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن فعل ذلك فاحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن ابى زيد ومختصره والتهذيب للبراذعى وواضحة ابن حبيب وماجانس هذه الكتب ولقد شهدت منها وانا يومئذ بمدينة فاس يؤتى بالاحمال فتوضع وتطلق فيه النار » .

فاين هذه الفوضوية الهمجية الفاحشة من تلك الظاهرية الصالحة اللينة

التى

التى كان عليها امر الشيخ شتان بينهما ، وكان تلك الظاهرية الفاسدة المنتنة هى التى ملئ بها ابن العربي المعافرى الاثرى غيظا وغضبا ، فذلك الرجل الذى رأيناه باكيا على المقلدة البطلة كما سمعتموه من قبل نجده يصول على الظاهرية صولا فانه رحمه الله لما قفل من سفره الشرقى الى موطنه المغرب بخاء الدهر عليه بالعجب ، يقول فى قواصمه « وكان اول بدعة لقيت فى رحلتى كما قلت لكم القول بالباطن فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ المغرب » .

ثم يهجم على طاغيتهم اللدود ويسطو عليه سطوة الاسود فما قال بعده « سخيف كان من بادية اشبيلية يعرف بابن حزم نشأ وتعلق بمذهب الشافعى ثم انتسب الى داود ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم انه امام الامة يضع ويرفع ويحكم لنفسه ويشرع وينسب الى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا ينفر القلوب عنهم تشنيعا عليهم » .

وهذا آخر ما اردت ان اقص لكم فى مجالتى هذه من ظاهرية الشيخ وسيرته فيها وسنبسطها ان شاء الله فى كتابنا الموعود والعون هو عون المعبود وبه نستعين .

اما دأبه رضى الله تعالى عنه فى المسائل الاصولية التى بددها فى كتبه وردها ، فالحق ان للشيخ فى هذا طريقة مثلى ، ومما يختص بكلامه كونه ممزوجا مخلوطا ولهذا صارت كتبه كنا شا للعلوم كلها ومخلاة للفنون جلها فما ذا اراد الشيخ بهذا ؟ .

لا ريب ان فى بادى الرأى يبهت الناظر ويتحير ، ولا يدرى ما يقول فيه ويتخير ، ظن الظانون ان هذا التبدد ، والانتشار ، انما جاء من فساد عقله اوآفة فى طبعه وذهنه حتى قال الذهبى .

« اثرت فيه تلك الخلوات والجوع والسهر فسادا وخيالا وطوف جنون » .

بل كما قصصته من قبل ان بعضهم نسب الى الشيخ ما هو اشد من هذا وافظ ، واتهموه بقول اغلظ ولكن الحق ان اكثرهم قفوا الشيخ وما لهم به

علم ولا خبر وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه فكان عاقبتهم خسرا ولكن من عزم وصبر وسبر كلامه واختبر وقليل ماهم فانهم بحمد الله يرجعون من بحور علمه بدر روغرر — وليس قصدى اليوم سردها بسطا وبيانا بل اريد أن اشير اليكم منها بواحدة فكما ذكرت فى ذكر ظاهرية الشيخ وسرها ان اكبر مقاصده كان بها تخليص العوام عن التقليد الاعمى فلعل الشيخ والله اعلم بالصواب انما رام من طريقه هذا ان ينجى الخواص عن تلك العقلية الهلكي والعقيدة السوأى التى دبت اليهم من تلقاء عقارب الفلسفة وعلوم القرون الاولى فتلك الصفحات الطوال التى تتجاوز عن الملايين ان جزيتموها تجزية فلا يرجع مآلها الا الى مسائل عديدة وها هى نحصيها عليكم ونفصلها ، .

(١) فالمسئلة الاولى التى يفسرها الشيخ فى كتبه تفسيرا ويكر اليها فى مؤلفاته كرا هى بيان نهاية العقل الفكرى ، وغاية ما ينتهى اليه النظر البشرى .

(٢) والثانية منها ما يرجع الى رد الثنوية وهى التى اشتهرت بين الناس بمسئلة وحدة الوجود .

(٣) والثالثة منها هو تصوير المعاد القرآنى وتشكيله بما هو عليه قرآنا وحديثا .

(٤) والرابعة منها سر القدر او تقول مسئلة الخير والشر .

(٥) والخامسة رد النصوص التى وردت فى الذات والصفات الى ما بين التشبيه والتنزيه وردع كل ما دست الفرق الضالة فيها من التدليس والتمويه .

والعارفون يعرفون ان اكثرها ترجع الى دفع الفتنة التى اشرأب سمها فى الدين من ينابيع الاوهام المشائية وعيونها .

فالمسئلة الاولى التى ذكرها وان كان امرها هينا وعلى الفطرة السليمة الساذجة بينا فان العلوم التى انفجرت من القريحة البشرية وانبجست فالدين لا يزاحمها بالمرة واين الخزفة من الدرة فهذا ادبهم وقصصهم ، منظومهم ومنثورهم وكذا من الفنون الحكمية طبهم وكيمياؤهم او المسائل الطبيعية التى

يسمونها

يسمونها اليوم « بالسائنس » من ذا الذى يثبت احتكاكها واصطدامها بالملل والديانات، ولنعم ماقيل كيف يصادم القطار الذى يمشى على السهول بالاساطيل التى تسبح فى البحور وتجول ، فتلك العلوم والفنون هى ساحة العقل وفيها يحور وبها يدور ولكن شرذمة من الذين تغلغلت فيهم الوسوسة واستحكمت ، ارادوا ان ينالوا بالعقل ماليس له اليه سبيل ، فخرص الخراصون عمها ، وافك الافاكون جهلا وسفها فملأ والدنيا كذبا وزورا وسموا تلك الوسوسة بالفلسفة الاولى وهى التى اصطدمت بالديانات والملل مسائلها وما فسدت النواميس الشرعية الابغوائلها .

وكما قلت ان المسلمين كانوا فى بدء عهد هم منها على طرف فلما جاست خلال ديارهم بالحركة العبرمكية (١) وحلت بها ، بجند ما هنالك مهزوم من الاحزاب الذين كانوا الفجورهم من الدين على حرف ، جنحوا اليها ورحبوا بها فما لبثوا الى ان قام الغزالى الامام الاواب التواب فانقشع السحاب فهواول من عين معالم الفكر البشرى وحصحص بمبلغها فانكصت الفتنة على عقبها وتكنست خنس الخناس من المشرق حسرة ويأسا ، حتى طلعت الشمس من مغربها فقامت الساعة ، نهض ابن رشد الفيلسوف بحذاء الامام مبارزا فاشدد عليه وطأته وجند عليه خيله ورجله وفنده ، فرفع امر العقل حتى حلق به الى السماء وهون علوم الانبياء وخصصها بالعامة السفهاء فكانت هى الفتنة الدهماء الصماء والناس ولاسيما الخواص منهم والمثقفون وقعوا بها فى بلاء وعناء والخليفة يعقوب صاحب المنشور المذكور المشهور وان اراد أن يردعه بنطعه وسيفه ، فقضى عليه باحكام غلاظ شداد وحكم عليه بجلاء ، وخلاء ولكن الفتنة ماكان لها من نفاد بل لم يزل يتسع امره ويزداد وكان كما قيل الانسان حريص على ما منع وجسور على ما ردع .

والحق ان الشيطان لايخرج الابالذى منه ولج والحديد لايلين الابالحديد . اشير به الى سيدى الامام الشيخ ابن عربى الحاتمى الطائى وديدنه الذى

---

(١) اى العباسبة البرمكية .

اتخذه فى كلامه على الاصول والعقائد ومشى عليه فى كتبه لاسيما الفتوحات والفصوص فهورضى الله عنه قلما يذكر فى مؤلفاته اسم طائفة اويخاطب فيها امرءا خاصاولكنه كما قيل اياك اعنى فاسمعى ياجاره فصنيعه الذى جرى به يراعه يعرف به مرماه ومن هؤلاء الذين ناداهم وعلى كل حال فأهم ما صرف اليه نظره كما اظن هى مسئلة مبلغ الفكر البشرى ومنتهاه ، اتى فى هذا الباب بعجاب ما عرج عليه قبله ولابعده شيخ ولاشاب وابوحامد الغزالى الامام وان كان له فى هذا الشان قدم ولكن ماجاء به الشيخ فتالله لوجدتموه بحرا اوسحرا .

ومما يملأ به الانسان حيرة وبهتا ان الاوربيين والذين هم لهم طاعون ، ينسبونها الى كانطة الالمانى الحكيم بدعا ونقدا ، ويحسبونه لانفسهم ولملتهم فضلا وفخرا ولكن الذين لهم خبرة بكليهما وبلغة اليهما فلايستريبون ان الحكيم الالمانى كل ماجاء به فى هذا الباب من الحقائق ، ليس عند وثائق الشيخ ودقائقه الممتعة الغامضة الاكرشح من اليم ، وكرشف من الديم ، ولاغروان قلنا ان كتب الغزالى وزبر الشيخ ساقتهم الى هذه النظرية ثم صبغت عندهم بالصبغة العصرية ، فكم لهم فى امثال هذه المسائل استراق وانتحال وليس ها هنا لبسطها فسحة ولامجال ولكن ان يسرت لنا المقادير نكر عليها فى كتابنا الموعود شرحا وبيانا نقدا وتبيانا (ان شاء الله تعالى) .

واما المسئلة الثانية فالعلماء يعلمون ان الفلسفة المشائية التى ذاعت فى المسلمين وشاعت ماكان بناؤها الاعلى الثنوية فعليها تحوررحاها وتدورسماؤها ، وان رئيس هذه الطريقة ارسطوطاليس اسس بنيان نظام حكمته على الامرين اى الروح والمادة وكأنه يشيرمن الروح الى الواجب جل مجده وبالجملة فكان من عقيدته ازلية المادة وقدمها فكما ان الروح اوالواجب ازلى غيرمخلوق كذا المادة عنده ازلية غيرمجعولة وهذا أمرجلى فى مذهبه وبديهى فى كتبه ، ولكن نصارى الشام (كاسحاق بن حنين وحنين بن اسحاق وغيرهم) لما عربوا كتبه من اليونانية والسورية اوالسريانية فهل بدلوها جهلااوغيروها عمدا اوحرفها

المحرفون

المحرفون كابى نصر الفارابى وابى على بن سينا البخارى والله اعلم ايها وقع .

وعلى كل حال فتلك التراجم والكتب التى اسست على اساسها يوجد فيها قول الايجاب ومعناه ان الواجب الذى هو علة تامة عندهم بحيث لاينفك عنها معلولها ابدا فذلك الواجب علة تامة للمادة وقد خلقها الواجب ايجابا وصدرت عنه اضطرارا، انبثقت عنه انبثاقا وانبجست منه انبجاسا ، فكأنهم ردوا ثنوية ارسطو الى التوحيد ولكنه كما تراها بعد قولهم الايجاب والانبثاق هل ردهم هذا ينفع او يفيد فكأنها سترة ستر وراءها الساترون الكائدون ، ولا ينتهى اليه امرهم ولا مكرهم بل تراهم يعترفون بصفات الله وكمالاته يصفونه حياة وعلما وقدرة وارادة ، امرا وحكما ، ولكن اذا حللتهم تحليلا وفصلتهم تفصيلا وجدتهم يخادعون الله والمؤمنين ولا يخدعون الا انفسهم فانه لما يضىء ما حولهم يذهب الله بنورهم ويتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لايرجعون .

وكان الامر على هذا الى برهة من الزمان ، حتى جاء ابن رشد وكان المرء لارسطو اشدهم اعتقادا واخلصهم اتباعا فجهر بالثنوية الحقيقية وبعثرها ولام الذين كانوا يكتمونها رئاء ونفاقا فاغرى بصدقه وخيره هذا كذبا وشرا فان الثنوية الحقيقية الارسطوية على كل حال لايؤول امرها الا الى جحود الله تعالى ونفيه ـ وصدق من قال (١) .

« كان من حسن الحظ ان ابن رشد دحض نظرية الخلق (اى ان العالم او المادة خلقها بارئها كما هى عقيدة الديانات والملل) وايد نظرية التطور (اى ارتقاء المادة بنفسها ونيلها كمالاتها التى نراها فيها تدريجا) وقال بها ومن مستلزماتها القول بازلية المادة ووجوبها وانها اصل الكائنات وانها لابد منها ولا غنى عنها » .

فتلك هى الرزية الجلى التى تولدت عن الثنوية وتكونت وما نشأ هذا الامن جعل وجود الخالق منقطعا عن خلقه ، وان لكل من الخالق والمخلوق

(١) لطفى جمعه .

وجود النفسه غاية الامر أن الثنوية الفارابية والسينائية انما توحي الى خلق الكون والمادة مع حدوثها الذاتي وقدمها الغيري والثنوية الارسطوية الرشدية تبوح بغنى الكون عن خلق الخالق وجعله فهذا كما ترونه هل بقى للمادة او الكون الى ربه حاجة وافتقار ولكن منّا على ربهم واحسانا يقولون ان الكون مع غناه في خلقه ووجوده يفتقر الى الرب نظما وتدبيرا .

ولعل الامر كان هينا لو كانوا ثابتين على هذا الافتقار الخداج الابتر ولكنه اذا سألتهم عما تخفى صدورهم وجدته اكبر فتخرج من افواههم كلمة يزدادون بها ظلما وعتوا يقولون ان افتقار الكون الى الواجب تدبيرا وترتيبا لا ينتهى امره الا الى الكليات واما الجزئيات فليس (قاتلهم الله) عند انواجب منها علم ولاخبر وهذا مما نص عليه ابن رشد بنفسه يقول .

« ان حكم الكون يشبه المدينة والحاكم هو المصدر الا على لكل ما ينفذ ولكن جزئيات حوادثها وتفاصيلها لا تصدر عنه مباشرة ولا علمه بها » .

والحق ان تغلغل المادية الدهرية في اوربا وتشعشعها ما جاءت الا من نفق تلك التنوية السوداء الدهماء فمنها في تلك الهاوية سقطوا وبها على تلك الصخرة الصماء هبطوا والمسرح نظره في تاريخهم الفكري ان شاءالله سيصدقني فهل كان سبيل الى قلع اس هذه الثنوية الخبيثة اصلا واستباحتها جزوا وراء الوحدة القيومية التي دعا اليها القرآن جهرا ، وطائفة الرسل والانبياء طرا وليس مرجعها الا ان المخلوقات المبدعات والمكونات المجعولات ليس لها وجود وراء وجود خالقها وارادة بارئها وان شئت قلت قيومية ربها والظاهر ان هذا امر لا يصير به الرب مربوبا ولا العبد معبودا وهذا كما نرى في انفسنا صورنا الخيالية المتشتتة المتكثرة المختلفة طولا وعرضا لونا وقدرا نحويها ونحيط بها ونجد انفسنا بظاهرها وباطنها فوقها وتحتها يمينا وشمالا ومع ذلك فلا نتجزى بتجزيتها ،ولا نطول بطولها ولا نتسع بعرضها ولا نتصف بمقصها وعيوبها ولا نتلطخ بغوا شيها ثم نستيقن وجدانا ان وجودها ليس الا ما دمنا نتصورها

و مابقينا

ومابقينا نلتفت اليها وعلى كل حال أفلا نشهد أن تلك الصور التى نصورها يقظة ومنا ما لا نتحول اليها و ننقلب ، ولا تلك الصور تتحول الينا وتنقلب ، فمن البين ان الذى يصور فى نفسه حمارا مثلا ويزوره فلايصير حين تصويره وتزويره حمارا ولا الحمار يصير مصورا ، لاريب ان هذا ليس بمثل للذى ليس كمثله شيء هو مثال يرشدنا ارشادا الى ما هوعليه الكون وخالقه ، ولذلك امثلة اخرى تجد فى كتب القوم منها ذكرى ، فها هى تلك الوحدة القيومية القرآنية التى اليها الشيخ يدعو ويلقنها ،.

واين هذا من تلك النظرية الاتحادية المفتنة المنتنة التى اذاعها اهل التحول والانقلاب الذين يتفوهون ان معنى الخلق ليس الا ان الخالق صار مخلوقا كما يصير البذر شجرا والبيض طيرا ،.

ففى القرن الذى كانت فتنة الثنوية فيه فاشية وفى بلاد المسلمين شائعة ذائعة ان قام شيخنا العلامة المقدام لردها ورام بوحدة القيومية القرآنية دفعها ودعها ، فهل كان للناصح لربه ونبيه ودينه وامته وراء ذلك سبيل وهذا الذى ترون به الشيخ يصر على هذه المسئلة اصرارا ويكررها فى كتبه كلها تكرارا يحبرها تحبيرا ويحررها تحريرا لا يذر من سرها ورموزها نقيرا ولا قطميرا فلايمر على آية اوحديث الا يتخذهما اليها سبيلا ويجعلهما لها برهانا ودليلا .

والحق ان الشيخ رضى الله تعالى عنه كما كان ظنه قدفاز فى هذا البراز وجاز ، فان ابن رشد الذى كان عندى قدامه وكتبه التى كانت امامه ذهبت ادراج الرياح لاباك عليها ولا ناح مؤلفاته طاحت ومن فوق الارض شجرتها الخبيثة قداجتثت وكذلك امر الباطل ماله من قرار واما زبر الشيخ واسفاره فقد اهتزت وربت اورقت شجرتها واثمرت اصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ما لها من زوال فالحمد لله الكبير المتعال ، فيالله ! ماله والعلماء الرسوم عفى الله عنهم نبزوه بالوجودية استهجانا وندوه بالباطنية استحقارا فواحسرتاه هذا الذى زندقوه ويا ويلاه هذا الذى استمرقوه

اف لهم و ما يقولون جعلوا ولى الدين عدوه و بالقرمطة رموه ما لهم كيف يحكمون وسيعلم الذى ظلموا اى منقلب ينقلبون .

واما المسئلة الثالثة فانه قد علم من ارسطو وتبعه من المشائين انهم كانوا يزعمون اعادة المعدوم محالا وما كان مصيره الا الى الجحود عن البعث والمعاد الذى تبتنى عليه الملل والديانات ، والفارابى وابن سينا على دأبهم السابق ذكره سلكوا فى هذه المسئلة ايضا على الدرب الذى مشوا عليه فى الثنوية فانهم ارخوا عليها ستار المعاد الروحانى الذى اخترعوه وجعلوه جنة لنكير العوام حتى برز التلميذ الطائع الجسور الرشيد فكشف عن المقصود غطاءه ولثامه ورفع عن اللب كمامه وهذا ما حكى عنه مادحه لطفى جمعه فى فلاسفة الاسلام .

« لما كان ابن رشد لم يقل بان العقل الهيولانى مادة فردة انما جعلها استعدادا بسيطا يوجد ويعدم مع الانسان الذى يولد ويموت فلا يرى شيئا خالدا سوى العقل الفعال العام اى العقل الكلى الذى يشترك فى النوع البشرى والانسان لا يكتسب بالاتصال (اى باتصاله بالعقل الفعال الذى هو عنده اصل الاعمال) شيئا ينقله من الوجود الدنيوى واما خلود النفس فخرافة » ص ١٦٤ .

ولابن رشد فى تفسير هذه المسائل وتفصيلها مباحث طولى وملاحظ عليا حتى كان يدعى انه ما عرج احد على فهم كلام ارسطو كتعريجه و ما تطلع احد فى مقاله كتطلعه و كان يقول وهذا لفظه .

« ولانى استخرجت رأى ارسطو على حقيقته ودونى لم يدركوه دركا فلم يبلغ الى مغزاه احد » .

وبالجملة فبعد جحود خلود النفس وبقائها والحكم بخرافته هل بقى للقرآن مقام ذلك الفرقان المبين الذى امتلأ جنة وحورا وانهارا وقصورا وجحيما وسعيرا ويجهر بشهادة الجلود والاعضاء حتى لايكتمن نقيرا فمن يشهد وينطق ان لم تكن القيامة للاجساد حصيرا فتلك هى الطامة الرشدية الكبرى التى حضت الشيخ على ان يفسر ما ورد فى القرآن تفسيرا ولذا تراه لايغادر منها صغيرا ولا كبيرا

ولا كبيرا الا احصاها فى كتبه وحررها تحريرا بحيث لا يجد العقل والفطرة وراء حشر الاجساد بدا ولا مصيرا .

واما المسئلة الرابعة ـ وهى مسئلة القدر وما ادراك ما مسئلة القدر؟ من البين انها مسئلة اتخذها الشيطان للخائضين الراجمين بالغيب حرابا ولا يزيدهم بخوضهم هذا الاخسرانا وتبابا حتى ان ابن رشد لما خاض فيها وغمس جعل يدالله مغلولة (غلت يده) وحسب انه ليس من مقدوره تعالى ان يخلق نارا يطبخ بها طعامه ولا تحرق بيته والذين هلكوا فيها واستهلكوا خلق كثير ، وعلى ذلك كان لها اى لمسئلة القدر بالوحدة القيومية القرآنية نسبة وعلاقة وبالجملة فاهميتها فى الدين ادت الشيخ ان يتكلم عليها بشاكلته الفطرية الى ماتبلغ اليه طاقته البشرية والحق ان فى حل هذه العويصة يظهر ماله فى فهم مسائل الدين من مهارة وحذاقة .

واما المسئلة الخامسة التى نجد الشيخ مكرا عليها ومصرا فكما قلت هى مسئلة التشبيه والتنزيه وذلك ان المسلمين بعد الفتن العلمية كما ذكر نبذ منها من قبل تشعبوا الى طرق وسبل ، وتفرقوا الى آراء ونحل فتبدد بعدها دينهم تبددا وقدت تلوها عقائدهم قددا ومن المسائل المختلفة التى فشا فيها المراء والجدال هى مسئلة الصفات والكمال اى كمال الله وصفاته فكما سمعتموه منى انه كانت هناك طائفة كان دينهم التعطيل فما كانوا يصفون الله تعالى بصفة ولا كمال كانوا يذكرون اسمها ويجحدون معناها حتى قيل فيهم .

اسمـاء منقبة فى غير مرتبة كالشىء يخبر عنه وهو فى العدم

وكانوا يقولون ان القرآن انما خاطب العامة على قدر عقولهم فكل لفظ لا يوافق عقلهم حرفوه تحريفا وصرفوه تصريفا وعلى طرف منها كانت شرذمة مخذولة كانوا ينسبون الى الله تعالى كل مايوصف به البشر حتى كانوا يقولون انه « ذو يد واصابع وساعد وذراع وخاصرة وساق ورجل يطأ بها حيث شاء والله يضحك ويمشى ويهرول » .

حتى قال قائل منهم حكى عنه ابن العربي المعافرى فى عصره انه كان يقول « ألزمونى ما شئتم فانى ألتزمه الا اللحية والعورة » وفسر بعضهم استواءه على العرش « انه جالس عليه متصل به وانه تعالى اكبر منه باربع اصابع اذلا يصح ان يكون اصغر منه لانه العظيم ولا يكون مثله لانه ليس كمثله شيء فهو اكبر من العرش باربع اصابع » لعنهم الله انى يؤفكون .

والحق ان امر القرآن كان بين الامرين ، والناس فى تفريط منه وافراط ففاز من اتخذ بين ذلك قواما والشيخ له فى هذه المسئلة وتشريحها وفى رد النصوص الى مواضعها يدعليا وقدح معلى واتى فى هذه المسئلة كما هو دأبه بما اتى والقصة بطولها وبسط الامر وتفصيله موعده كتابنا الموعود .

نعم بقى ها هنا شيء ، وهو طريق الشيخ فى كتبه خلطا ومزجا فلا تجد صفحة منها الا تحتوى قرآنا وحديثا وفقها وكلاما جدلا وبرهانا ، شعرا وخطابا بل ربما يسرد الشيخ بحث الحروف وخواصها ويعرج على الطبيعيات والرياضيات ومسائلها وبالجملة فلا يغادر شيئا من العلوم التى كانت فى عهده رضى الله تعالى عنه نافقة فهل لعمله هذا غاية ؟ فظنى ان الشيخ ما اتى به خبطا ولاخلطا وما اوردها هزلا ولادعلا بل ان له فى طريقه هذا لشان فالذين كانوا تجاهه رضى الله تعالى عنه قص عليكم من قبل خلطوا ترهاتهم بالآيات والآثار وبهما فضضوها وحنطوا بالقرآن والحديث جيفهم النتنى وبهما كفنوها ولا شك ان اصحاب اخوان الصفاء هم الذين ابتدعوها ، ولكن الذين اتبعوهم ولا سيما ابن رشد فى تراجمه الفلسفية وشروحها الحكمية يصولون على عقائد العامة صولا ثم فى تهافته يحول حولا ويحذر الناس عن التعمق فى الدين تحذيرا ويحرضهم ان يصروا على ظاهر الشرع اصرارا بليغا كبيرا ، والغزالى ملوم عنده ومرجوم لانه كما يدعيه ابن رشد هو اول من نظر فى الدين نظر التحقيق ودس فيه التدقيق الذى بالعلوم العقلية يليق اما فى المناهج وفصل المقال فله حال غير تلك الاحوال يتلو فيهما الآيات التى حث فيها على الذكر والاعتبار ثم ينشىء بين الدين والفلسفة

صلة

صلة القرين و الجار يريد التوفيق بين الامرين ورفع الخلاف من البين ، فله فى كل كتاب خطوة و فى كل كهف بخوة .

فالشيخ مشى فى هذا الطريق وراء هم ما فعل امرا الا مافعلوه وما جاء بشئ الا ما جاؤه وقد يعالج المثل بمثله ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وبالجملة فهؤلاء كما رغبوا المسلمين الى اهوائهم بأياتهم القرآنية وآثارهم النبوية ويحتجون بها عليهم فكذا الشيخ يريد أن يجر تبعهم وخولهم بارائهم الحكمية وافكارهم الفلسفية يستحوذ بها عليهم وانما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فالسيف للغزاة فيه اجر والكفرة لهم فيه وبه وزر .

وايضا الشيخ رضى الله تعالى عنه لما كان من دأبه القصد فى الاعمال والاعتدال فى الحكم والمقال فتراه فى العقلية بعد ارجاعها الخطة وردها المحطة ، لا يذر فى سبيلها طريقا وسطا فلتجدنه فى كتبها يمدح العقلية الصالحة ولا يذمها غضبا وسخطا يحذر الظانين باسوء بها تحذيرا ولا يحقر المسائل الفلسفية كلها بكونها من الفلسفة تحقيرا .

وهذا مانص عليه فى فتوحاته يقول عقيب ذكر مسئلة « الفيلسوف ليس كل علمه باطلا فعسى ان تكون تلك المسئلة عنده من الحق . . . ولاسيما فيما وصفوه من الحكم والتبرى من الشهوات ومكايد النفوس وما تنطوى عليه من سوء الضمائر » .

ثم قال بعد اسطر « واما قولك ان الفيلسوف لا دين له فلا يدل كونه لا دين له على ان كل ما عنده باطل » .

وفى مقام آخر « فالفلسفة معناه حب الحكمة وكل عاقل يحب الحكمة غير أن اهل الفكر خطؤهم فى الالهيات اكثر من اصابتهم . . . وما ذمت الفلاسفة لمجرد هذا الاسم وان ذموا لما اخطاؤا فيه من العلم الالهى مما يعارض ماجاءت به الرسل عليهم السلام » .

فاين هذا القسطاس السوى العدل من هؤلاء الذين نصروا الدين

شغبا فعند مرائهم تملأ قلوبهم غيظا وغضبا فلا يتركون لخصومهم طعنا ولا لعنا شتما ولا سبا ، فهذا هو الفرقان الموهوب الذى يميز به الشيخ بين لب الامر وقشره ولا يحجب عليه من نقيره وقطميره فمن القول كأنه لا يدور على لسانه الا فصله وبهذا يؤتى كل ذى فضل فضله .

وكان علىّ قبل الختم ان احدثكم بالامور التى يفسقون بها الشيخ ويكفرونه ولكن الساعة ضاقت فلنرد الناظرين الى كتب الشعرانى الامام فان لكم فيها سكينة وكفاية ولا ينبئك مثل خبير فانه رحمه الله اتى فيها بالبينات الكبرى والشهادات الوثقى ان كل ما يتهم به الشيخ ويهجى ليست الا من مدسوسات اليهود ومختلقات النصارى ووراء هم شرذمة اخرى ولا غرو فان الصلات التى كانت فى تلك الايام بين المسلمين واهل الكتاب لاسيا فى بلاد المغرب ومصر وما كانوا عليه فيما بينهم صحبة ودراسة وافادة واستفادة ، فمن له بها خبرة فعسى ان يصدقها « والكتاب الموعود لبسطها نعم الميعاد وبالله الثقة وعليه الاعتماد .

وهذا آخر ما اردته فى ذكر الشيخ وطريقه املاء وبيانا فلأسأل الذين فى انفسهم ذبذبة من الشيخ ودغدغة وانا شدهم بالله ، عن الكلمات التى تلوتها عليكم الآن أفهذ ازيغ عن دين الله وحيد عن شرع نبيه من ذا الذى يشهد أنه وجد احدا مفتونا بكتب الشيخ ومخبوطا بل هنالك طائفة من المذبذبين لقد استقاموا بحديث الشيخ وبيانه وما ازدادوا به الا ايمانا وتسليما وهدوا به صراطا مستقيما والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

وبالحرى قبل الختام ان نستسعد بذكر شىء من سيرة الشيخ وترجمته فهو رضى الله تعالى عنه ولد فى مرسية من توابع اشبيلية الاندلس (اوربا) يوم الاثنين سابع عشر من رمضان سنة ستين وخمسمائة من الهجرة يقال انه طائى نسبا كان ابوه رحمه الله من عقب عبدالله بن حاتم الجواد اخى عدى بن حاتم الصحابى الشهير الذى اسلم بعد تنصره وكان اسم والد الشيخ محمد العربى نسبا

 والفرق

وللفرق بينه وبين ابن العربى المعافرى الذى سبق ذكره مرارا لا يعرفون والد الشيخ باللام وما عرف من حال ابيه الا نزريسير مما ذكره الشيخ فى فتوحاته مبددا وبه يعلم ان اباه كان من بيت اهل العلم والفضل فمنها ما ذكره الشيخ انه كان بين ابيه وابن رشد الفيلسوف صلة وعلاقة . وابن رشد لما قرع سمعه بصيت فضائل الشيخ وشمائله التى نالها فى ريعان شبابه اراد لقياه فحضر الشيخ عنده بأمر ابيه وتخلى معه فجرى بين هذا الشاب وذلك الشيخ ما جرى وآخر ماحكى عنه الشيخ انه ما وجده الاشيخا متحيرا ، والقصة بطولها . ومما قيل ان ابن رشد عرض على الشيخ ان يدخله فى اصحابه ببيعة و طريقا فاعرض عنها وابى والله اعلم بالصواب وفى الفتوحات لابن رشد ذكر آخر ليس هذا موضع بسطه .

ومما يوجد فى الفتوحات من ذكر ابيه ان الشيخ ذكر اول دخوله فى الطريقة فقال خرجنا عن كل ما كان بايدينا خروج الميت عن اهله وماله وشاورنا الوالد وطلبنا الامر فى ذلك وحكمناه فى ذلك ولم اسأل بعد ما صنع فيه الى يومى هذا ج - ٢ ص ٧٢٣ .

ومما يؤثر عن صباه وتعليمه انه مابرح فى بلده مرسية الى الثامن من عمره وهنالك قرأ القرآن ولم يدر هل قرأ على والده او على معلم آخر ثم ارتحل طالبا للعلم الى اشبيلية عاصمة ولايته فدخل فى حلقة خلف بن بشكوال المحدث المرفوع الذكر فقرأ عليه القرآن ثانيا بالسبع بكتاب الكافى وحدثه عن ابن المؤلف ابى الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعينى عن ابيه وقرأ السبع ايضا بالكتاب المذكور على ابى القاسم الشراط القرطبى وحدثه به عن ابن المؤلف ثم انكب على الحديث انكبابا وكان له بالحديث ولع شديد سمعا وجمعا فرواه عن ابن بشكوال وتضلع فيه ومما ينبغى ان يحفظ ان ابن بشكوال هذا احد من تعلم عليه ابن رشد وكذا سمع الشيخ الحديث من محمد بن ابى جمرة والشيخ عبد الحق الاشبيلى وغيرهم خلق كثير فى الاندلس كابن زرقون وغيره .

ثم عرج على الفنون الادبية والفنون العربية وغير ذلك من العلوم العصرية فمهر وبهر وكانت له فى الكتابة والانشاء يدعليا حتى قيل انه فى بدء امره لازم اميرا وصار كاتب سره وعميده ولم اظفر الى الآن على اسم ذلك الامير .

ثم غلبت عليه الخلوة وحببت فكان من امره ما حكاه بنفسه انه خرج من ماله واهله خروج الميت فلما بلغ الى اربعين تاقت نفسه للسياحة والتطواف ، فرحل الى المشرق حاجا فاول ما اناخ اليه راحلته كانت بلاد المغرب من قارة افريقية فدخل مراكش وفاس ، ومكث فى تينك البلدتين الى مدة ثم توجه من المغرب الى مصر ومن مصر الى الشام ومن الشام الى بر الحجاز ومن الحجاز الى العراق حتى دخل الروم واقام هناك الى ماشاء الله بمرافق هيئت له ثمة ويسرت ثم قفل من الروم وحل الشام واليها انتهت سياحته وبلغ الختام حتى لقى هناك ربه الكريم المنعام .

وكان سفره هذا فى مشيخة كرام بررة دراويش ومنهم صاحبه المشهور عبدالله بن بدر الحبشى ومنهم محمد الحصار الفاسى الذى حمله معه برؤيا رءاها الشيخ فلما نزل مصر درج الى رحمة الله بينه وبين الشيخ قصة ذكرها الشيخ فى الفتوحات ، وحين سياحته مر الشيخ على امصار وديار فلقى علماءها وفقراءها وغير ذلك من اولى الايدى والابصار فافادهم واستفاد منهم فوراء بلاده الاندلسية التى تربى فيها الشيخ وترعرع دخل مراكش وفاس والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد والموصل وميافارقين وقونية ودمشق فى كثير من قرى اخرى يذكرها فى كتبه وفى كل منها جرت له حوادث ونزلت به نوازل وانا ان شاء الله سنفصلها فى كتابنا الموعود .

والعلماء الذين سبقت لهم الذكرى ، جماعة اخرون اجازوا الشيخ وهو اجازهم فالذين اجازوه بعلومهم وحديثهم وكتبهم منهم الحافظ السلفى المحدث وابن عساكر صاحب الطبقات ، وابو الفرج الجوزى وخلق وراءهم كثير

يخرج عنهم بسنده المتصل الاحاديث والآثار ، والذين اجازهم فمنهم الملك الغازى ابن الملك العادل ابى بكر بن ايوب وكان الشيخ يروى كتب ابن حزم عن ابى الحسن شريح بن محمد بن شريح ذكر الذهبى انه كان يحدث عن ابى الحسن ابن هذيل بالتيسير للدانى الذى كان يرويه عن ابن ابى جمرة عن المؤلف ، وبالجملة فله فى الحديث اسانيد عليا يمتلىء بذكرها فى كتبه فخارا واعجابا وحق له ذلك .

واما مشايخه فى الطريق فاولهم ابو جعفر العرينى اجتمع به باشبيلية وثانيهم ابو يعقوب بن يخلف الكومى العيسى ، وهو من اصحاب مدين وثالثهم صالح العدوى ورابعهم ابوعبدالله محمد الرقى وخامسهم ابو يحيي الصنهاجى ، الى ان بلغ عددهم الى سبعة عشر ، ومنهم عمه ابو محمد عبد الله بن محمد بن العربى .

ومما يليق ان يذكر أن هناك نسوة استفاد منهن الشيخ وخرج عنهن واما مؤلفاته رضى الله تعالى عنه فبلغت الى حد كاد أن لا تحصى كان سريع الكتابه بليغ الاشارة نارئى ولا رأى مثله قبله ولا بعده نظما ولا نثرا وما انشد امرؤ القيس .

مكر مفر مقبل مدبر معا　　　　بجلمود صخر حطه السيل من عل

كأنه انشد فى شان يراعه اوتقول فى صفة فكره ورائه وتلك دواوينه الضخمة الطوال تنطق عليكم بالحق ومما يقضى منه العجب انه كان يكتب من كتابه الفتوحات كل يوم ثلاث كراريس ، وكان ملتزما لا تنسخها حتى ما كان يذره خلوة ولا جلوة حضرا ولا سفرا وكان من ديدنه انه ما بيض مسودته ابد اوماعلم الى الآن هل كان له معرفة بغير اللسان العربى ؟ .

ومن العجب ان المسلمين فى الاندلس مع اصطحابهم بالاوروبيين اليسوعيين واختلاطهم بهم لم يكن عند احدمنهم دراية بلسانهم ولا اليها عناية ولكنه مع هذا فقد نرى الشيخ يذكر عند سرد مسئلة اسماء الله تعالى فيقول « فيسمى بلغة العرب بالاسم الذى سمى به نفسه من كونه متكلما الله وبالفارسية خداى وبالحبشة واق وبلسان الفرنج كريطور » والله اعلم ج ــ صر ٩٠٣ .

واما عيشته الراضية فقد ذكرت لكم من قبل انه خرج من اهله وماله طرا فما كان عنده من تراث ابيه مايساوى شيئا وكذا بعد ترك الوظيفة كما هو علمى الآن انه ما احترف بعدها قط وما اكتسب كما هو دأب الرجال فى هذا الشان نعم نرى اليه اقبال الامراء والسلاطين اجلالا واكراما حتى ان ملك الروم كان يقول فى شانه « هذا الذى تذعر له الاسود » وهذا هو الملك الذى وهبه فى قونية دارا تساوى قيمتها مائة الف درهم ثم لما اناخ مطيته بالشام فهناك القى عصا التسيار حتى وصل بربه الرحمن الغفار فالقاضى ابن الزكى رتب له فى كل يوم ثلاثين درهما وكذا صاحب حمص مائة درهم فلا ريب ان الشيخ احياه ربه حياة طيبة وما جعل معيشته معيشة ضنكا ، لكن الذى تخلى عن كل ما كان له فى بدء امره فهل دريتم ما فعل فى آخره ؟ يقص ويقال ان تلك الدار التى منحها ملك الروم يوما كان الشيخ فيها مكينا فسأل سائل شيئا لله والشيخ بلغ ... عنده حينئذ غير تلك الدار شيء فقال للسائل معتذرا « مالى غير هذه ... ها وخرج » وكذا كان امره بالشام ما ادخر شيئا وما اكتنز ، وعا...حبه المشهور بكرة واصيلا وكان ربه يرزقه من حيث لا يحتسب ويجعل له مخرجا وسبيلا .

وكان الحال على هذا المنوال حتى بلغ من عمره الى الثامنة بعد السبعين حتى اتاه اليقين غسله جمال الدين بن عبدالخالق والقاضى بن الزكى الذى كان الشيخ فى داره ايام مرضه وصب عليه الماء عماد الدين بن الخاص وحمل الى سفح قاسيون ودفن هناك غريبا فانه بعد خروجه عن الاندلس ما عاد اليها قط وكان قبره الطيب المسعود مستورا حتى جاء الى الشام سليم السلطان الخليفة التركى الشهير فسمع عن بعضهم ان الشيخ كان يقول فى حياته رمزا ولغزا عند مايدخل السين فى الشين فيكشف عن قبر محيي الدين » فامر السلطان بكشفه فانكشف ، وبنى عليه قبة عظيمة وقبره الآن فى الصالحية فى مسجد يعرف باسمه وبجواره دفن الامير الغازى البطل الكبير عبد القادر الجزائرى العلامة رحمه‌الله وظنى لعل الامير بنفسه وصى به فانه كان شديد الاعتقاد فى الشيخ .

واما اهله وعقبه فالمترجمون بسيرته عن ذكرهم ساكتون ولكن الشيخ اتى بذكرهم فى مواضع عديدة من فتوحاته وانا ان شاءالله فى كتابنا الموعود اليه لعائدون ، وانالله وانا اليه راجعون والله يقول الحق وهو يهدى السبيل وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

السيد مناظر احسن الگيلانى
المعلم فى الجامعة العثمانية
حرسها الله وحماها

ابن خلدون وعلم الاجتماع

هذا اختصار المحاضرة التى ألقاها الدكتور عمر بن
محمد داود پوته مدرس العربية فى
اسمعيل كالج بومبائى

يعتبر ابن خلدون موجدا لفلسفة الاجتماع كما اعترف به كثير من علماء الاجتماع الذين حللوا نظرياته وقارنوها بنظريات أقطاب الاجتماع المحدثين .

يمتاز ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين المسلمين قبله بانه نظر إلى التاريخ كعلم يستحق الدرس لا رواية تدون فقط . فكتب مقدمته الشهيرة وبسط فيها قوانين محكمة لنقد التاريخ وتمحيص حقائقه ، وانتهى به البحث إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية التى صار هو أبو عذرتها ولم يسبقه اليها أحد اللهم الا بعض القدماء لم يصل إليه ما كتبوه فى هذا العلم .

ولهذا العلم الجديد الذى ابتكره ابن خلدون فى فهم التاريخ ودرسه أهمية كبيرة من حيث موضوعه ، لانه يبين فيه « ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من أحوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية ، يتضح بها التحقيق فى معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك » .

ظهر ابن خلدون فى عصر سرى فيه الانحلال إلى صولة الاسلام وسيادته واضمحل التفكير الاسلامى . فلبث تراثه الفكرى مغمورا فى الشرق والغرب مدى قرون ، حتى نشر كاترمير مقدمته كاملة بنصها العربى سنة ١٨٥٨ م ، ونشر دى سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية لها ، وعندئذ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربى فى روعة ابتكاره وبانت قيمة ذلك التراث الباهر الذى نسج عليه عناكب النسيان مدى عصور .

لقد كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافا علميا حقا ، وكان أعجب ما فى هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب على تراث المفكر المسلم بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التى لم يطرقها البحث الغربى

الا

الا بعد ابن خلدون بعصور طويلة . وكان المعتقد أن البحث الغربى هو أول من اهتدى إلى فلسفة التاريخ ومبادى الاجتماع وأصول الاقتصاد السياسى فاذا ابن خلـدون يسبقه بعصور ويعرض كثيرا من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة قبل مكيافيللى وفيكو ، ومونشكيو، وآدم سميث ، وأجست كونت .

كانت الناحية التاريخية الفلسفية فى تفكير ابن خلدون أول ما عنى النقد الغربى بدرسه ولكن الناحية الاجتماعية لم تلبث أن لفتت أنظار طائفة من علماء الاجتماع وأخذت تتفوق على ماعدا من نواحى تفكيره ، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون تشغل فراغا كبيرا فى النقد المعاصر ، وقد اشتد شغف الأدباء فى الغرب والشرق به فى السنوات الأخيرة فنشر شميت الأميركانى كتابه « ابن خلدون المؤرخ والاجتماعى والفيلسوف » سنة ١٩٣٠ م ، وبوتوالفرنسى كتابه « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية » وفى نفس السنة نشر الاستاذ كامل عياد مبحثه فى الألمانيه « نظريات ابن خلدون التاريخية والاجتماعية » وتبعه الاستاذ روزنتال الألمانى ونشر مؤلفه « أفكار ابن خلدون على الدولة »سنة ١٩٣٢ م . وجاء على أثره محمد عبدالله عنان المحامى المصرى ونشركتابه « ابن خلدون ـ حياته وتراثه الفكرى » فى سنة ١٩٣٣م فى ذكرى الستمائة لمولد هذا المؤرخ والفيلسوف العظيم ، ومنذ سنتين أخذت لجنة التحقيق الاسلامى فى بمباى تهتم بترجمة المقدمة إلى الإنكليزية وستنشر هذه الترجمة بعد سنتين إن شاء الله تعالى .

ولنذكر الآن بعض آراء ابن خلدون الفذة التى أعجب بها علماء الاجتماع فى العصر الحاضر ومن بينهم العلامة الاجتماعى لدفيج جمبلوفتش فهو يخصص لابن خلدون فى مباحثه الاجتماعيـة فصلا كبيرا ويصفه بأنه اجتماعى أو من علماء الاجتماع ويتناول طائفة من آرائه الاجتماعية بالتحليل والمقارنة ، ويبين أنه قد سبق فى كثير منها أقطاب الاجتماع المحدثين، فهو مثلا قد اهتدى إلى نظرية « الأجيال الثلاثة » الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها

قبل أن بعرضها اوتوكارلورنتس فى أواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوفتش إن ابن خلدون يرتفع إلى ذروة البحث الاجتماعى حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية وكيف أن هذه الجماعات نفسها إنما هى ثمرة الوسط . وآراؤه فى هذا المقام عن الأجناس الغالبة فى منتهى الأهمية . وفى أقواله عن الوسط ما يدل على أنه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل أن يعرفه داروين بخمسة قرون . وفيما يقوله عن تشبيه الانسان بالحيوان فى الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ما يدل على أنه عرف مبدأ « وحدة المادة » قبل أن يعرفه هيكيل . وأخيرا يقول جمبلوفتش لقد اردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت ، بل قبل فيكو ، الذى أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه اول اجتماعى اوربى ، جاء مسلم تقى فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن وأتى فى هذا الموضع بآراء عميقة وما كتبه هو ما نسميه اليوم « علم الاجتماع » وقد وافقه فى هذا الرأى فريروالباحث الاجتماعى الايطالى وليفين الكاتب الاجتماعى الروسى ، ووصف مسيو مونييه مقدمة ابن خلدون وتفكيره قائلا إنها مزيج عظيم من القوانين الكونية وموسوعة لعلوم العصر ، وتحتوى على أجزاء متفرقة لبحث كامل فى علم الاجتماع » .

الاقتراح ـ والرجاء من أصحاب دائرة المعارف أن يطبعوا مقدمة ابن خلدون بعد تصحيحها وتكميلها وتطبيقها مع النسخ الموجودة فى المكاتب المختلفة لأن النسخ المطبوعة إلى الآن كلها ناقصة ـ ويكون قد أسدوا بهذا العمل خدمة جليلة إلى الأدبيات العربية .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة الاستاذ الناقد فى الرجال الشيخ عبدالرحمن
بن يحيى اليمانى رفيق دائرة المعارف

علم الرجال واهميته

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

انه قد استقر فى الاذهان واستغنى عن اقامة البرهان ما للعلم من الشرف والفضيلة وانه هو الوسيلة لرفع الانسان فى المعنى عما ارتفع عنه فى الصورة من البهائم . ومما لانزاع فيه ان العلوم تتفاوت فى مقدار ذلك الشرف ، منها الشريف والاشرف والمهم والأهم .

ومهما يتصور لعلوم الفلسفة والطبيعيات والرياضيات والادبيات والصناعيات وغيرها من العلوم الكونيات ـ مهما يتصور لها من الشرف والفضيلة والمرتبة الرفيعة فانها لا تدانى فى ذلك العلم الذى مع مشاركته لها فى ترقية المدارك وتنوير العقول ينفرد عنها باصلاح الاخلاق وتحصيل السعادة الابدية ، وهو علم الدين .

ومهما ترقى الانسان فى الصنائع والمعارف الكونية وتسهيل اسباب الراحة فان ذلك ان رفعه عن البهمية من جهة فانه ينزل به عنها من جهة اخرى ، ما لم تتطهر اخلاقه فيتخلق بالرأفة والرحمة والايثار والعفة والتواضع والصدق والامانة والعدل والاحسان وغيرها من الأخلاق الكريمة .

كل من كان له وقوف على احوال الامم والافراد فى هذا العصر علم انه بحق يسمى عصر العلم ولكنه يرى انه مع ذلك يجب ان يسمى بالنظر الى تدهور الاخلاق اسما آخر .

النفوس الارضية تربة من شأنها ان تنبت الاخلاق الذميمة ما لم تسق بماء الايمان الطاهر وتشرق عليها شمس العلم الدينى الصحيح وتهب عليها رياح التذكير الحكيم .

فأى ارض امحلت من ذلك الماء وحجب عنها شعاع تلك الشمس وسدت عنها طرق تلك الرياح كان نباتها كما قال الملائكة عليهم السلام (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) .

للدين وهو الاسلام ينبوعان عظيمان كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

السنة عبارة عما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الاقوال والافعال وغيرها مما هو تبيين للقرآن وتفصيل للاحكام وتعليم للآداب وغير ذلك من مصالح المعاش والمعاد .

اول من تلقى السنة هم الصحابة الكرام فحفظوها وفهموها وعلموا اجمالها وتفصيلها وبلغوها كما امروا الى من بعدهم ، ثم تلقاها التابعون وبلغوها الى من يليهم وهكذا ، فكان الصحابي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول كيت وكيت ، ويقول التابعي سمعت فلانا الصحابي يقول سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقول الذى يليه سمعت فلانا يقول سمعت فلانا الصحابي يقول سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهكذا .

كل من علم ان محمدا صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الانبياء وان شريعته خاتمة الشرائع وان سعادة المعاش والمعاد والحياة الابدية فى اتباعه يعلم ان الناس احوج الى حفظ السنة منهم الى الطعام والشراب .

قد وقعت الرواية ممن يجب قبول خبره وممن يجب رده وممن يجب التوقف فيه ، وهيهات ان يعرف ماهو من الحق الذى بلغه خاتم الانبياء عن ربه عز وجل وما هو من الباطل الذى يبرأ عنه الله ورسوله الا بمعرفة احوال الرواة .

وهكذا الوقائع التاريخية ، بل حاجتها الى معرفة احوال رواتها اشد لغلبة التساهل فى نقلها ، على ان معرفة احوال الرجال هى نفسها من اهم فروع التاريخ .

واذ كان لابد من معرفة احوال الرواة فلابد من بيانها بأن يخبر كل من

عرف

عرف حال را وبحاله ليعلمه الناس، وقد قامت الامة بهذا الفرض كما ينبغي .

اول من تكلم فى احوال الرجال القرآن ثم النبي صلى الله عليه وسلم ثم اصحابه، والآيات كثيرة فى الثناء على الصحابة اجمالا وذم المنافقين اجمالا ووردت آيات فى الثناء على افراد معينين من الصحابة كما يعلم من كتب الفضائل وآيات فى التنبيه على نفاق افراد معينين وعلى جرح أفراد آخرين، واشهر ماجاء فى هذا قوله تعالى (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) الحجرات – ٦ . نزلت فى رجل بعينه كما هو معروف فى موضعه وهى مع ذلك قاعدة عامة .

وثبتت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم احاديث كثيرة فى الثناء على اصحابه جملة وعلى افراد منهم معينين معروفة فى كتب الفضائل ، واخبار اخر فى ذم بعض الفرق اجمالا كالخوارج وفى تعيين المنافقين وذم افراد معينين كعيينة بن حصن(١) والحكم بن ابى العاص(٢) وثبتت آثار كثيرة عن الصحابة فى الثناء على بعض التابعين وآثار فى جرح افراد منهم .

واما التابعون فكلامهم فى التعديل كثير ولا يروى عنهم من الجرح الا قليل وذلك لقرب العهد بالسراج المنير عليه وعلى آله افضل الصلاة والتسليم فلم يكن احد من المسلمين يجترئ على الكذب على الله ورسوله وعامة المضعفين من التابعين انما ضعفوا للمذهب كالخوارج اولسوء الحفظ اوللجهالة ثم جاء عصر اتباع التابعين فما بعده فكثر الضعفاء والمغفلون والكذابون والزنادقة فنهض الأئمة لتبيين احوال الرواة وتزييف مالا يثبت فلم يكن مصر من امصار المسلمين الا وفيه جماعة من الأئمة يمتحنون الرواة ويختبرون احوالهم واحوال رواياتهم ويتتبعون حركاتهم وسكناتهم ويعلنون للناس حكمهم عليهم، واستمر ذلك الى القرن العاشر فلاتجد فى كتب الحديث اسم راو الا وجدت فى كتب الرجال تحقيق حاله ، وهذا مصداق الوعد الالهى – قيل لابن المبارك هذه

---

(١) صحيح البخارى طبع المصطفائى بالهند – ص ٨٩٤ (٢) الاصابة – وفتح البارى فى تفسير سورة الاحقاف .

الاحاديث المصنوعة ؟ قال تعيش لها الجهابذة وتلا قول الله سبحانه وتعالى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون - ١).

وكان نشاط الأئمة فى ذلك آية من الآيات فمن امثلة ذلك قال العراقى فى شرح مقدمة ابن الصلاح « روينا عن مؤمل (٢) انه قال حدثنى شيخ بهذا الحديث - يعنى حديث فضائل القرآن سورة سورة - فقلت للشيخ من حدثك ؟فقال حدثنى رجل بالمدائن وهو حى فصرت اليه فقلت من حدثك؟ فقال حدثنى شيخ بواسط وهو حى فصرت اليه فقال حدثنى شيخ بالبصرة فصرت اليه فقال حدثنى شيخ بعبادان فصرت اليه فأخذ بيدى فأدخلنى بيتا فاذا فيه قوم من المتصوفة ومعهم شيخ فقال هذا الشيخ حدثنى فقلت ياشيخ من حدثك ؟ فقال لم يحدثنى احد ولكننا رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم الى القرآن (٣) .

لعل هذا الرجل قطع نحو ثلاثة اشهر مسافرا لتحقيق رواية هذا الحديث الواحد .

وللأئمة طرق فى اختبار الرواة منها النظر الى حال الراوى فى المحافظة على الطاعات واجتناب المعاصى، وسؤال اهل المعرفة به قال الحسن بن صالح بن حى « كنا اذا اردنا ان نكتب عن الرجل سألنا عنه حتى يقال أتريدون ان تزوجوه »(٤) .

ومنها ان يحدث احاديث عن شيخ حى فيسأل ذلك الشيخ عنها مثاله قول شعبة « قال الحسن بن عمارة حدثنى الحكم عن يحيى بن الجزار عن على سبعة احاديث فسألت الحكم عنها فقال ما سمعت منها شيئا »(٥) .

ومنها ان يحدث عن شيخ قدمات فيقال للراوى متى ولدت ؟ ومتى لقيت

---

(١) فتح المغيث للسخاوى - ص ١٠٩ (٢) هو ابن اسمعيل توفى سنة ٢٠٦
(٣) التقييد والايضاح - ص ١١٢ - ١١٣ (٤) الكفاية - ص ٩٣ (٥) تهذيب التهذيب ترجمة الحسن .

هذا ا

هذا الشيخ؟ و اين لقيته؟ ثم يقابل بين مايجيب به و بين ماحفظ من وفاة الشيخ الذى روى عنه و محل اقامته وتواريخ تنقله، مثاله ماجاء عن عفير بن معدان أن عمر ابن موسى بن وجيه حدث عن خالد بن معدان، قال عفير فقلت له فى اى سنة لقيته؟ قال فى سنة ثمان وخمسين ومائة فى غزاة ارمينية قلت اتق الله ياشيخ لاتكذب مات خالد سنة اربع وخمسين ومائة، وأزيدك انه لم يغز ارمينية!! (١) .

ومنها ان يسمع من الراوى احاديث عن مشايخ قد ماتوا فتعرض هذه الاحاديث على مارواه الثقات عن اولئك المشايخ فينظر هل انفرد هذا الراوى بشيء او خالف اوزاد او نقص، فتجدهم يقولون فى الجرح « ينفرد عن الثقات بما لايتابع عليه » «فى حديثه مناكير » «يخطىء ويخالف » ونحو ذلك .

ومنها ان يسمع من الراوى عدة احاديث فتحفظ اوتكتب ثم يسأل عنها بعد مدة ، وربما كرر السؤال مرارا لينظر أيغير أو يبدل اويزيد اوينقص ؟

دعا بعض الامراء اباهريرة وسأله ان يحدث وقد خبأ الأمير كاتبا حيث لايراه ابوهريرة فجعل ابوهريرة يحدث والكاتب يكتب ثم بعد سنة دعا الامير ابا هريرة ودس رجلا ينظر فى تلك الصحيفة وسأل ابا هريرة عن تلك الاحاديث فجعل يحدث والرجل ينظر فى الصحيفة فمازاد ولانقص ولاقدم ولااخر(٢) وسأل بعض الخلفاء ابن شهاب الزهرى ان يملى على بعض ولده فدعا بكاتب فأملى عليه اربعمائة حديث ثم ان الخليفة قال للزهرى بعد مدة ان ذلك الكتاب قد ضاع فدعا الكاتب فأملاها عليه ثم قابلوا الكتاب الثانى على الكتاب الاول فما غادر حرفا (٣) .

وكانوا كثيرا ما يبالغون فى الاحتياط حتى قيل لشعبة لم تركت حديث فلان ؟ قال رأيته يركض على برذون ، وقال جرير رأيت سماك بن حرب يبول قائما فلم اكتب عنه ، وقيل للحكم بن عتيبة لم لم تروعن زاذان ؟ قال كان

---

(١) لسان الميزان ترجمة عمر (٢) انظر المستدرك ج ٣ ص ٥١٠ (٣) انظر ترجمة الزهرى فى تهذيب التهذيب .

كثير الكلام (١) .

وكانوا يطعنون فيمن خالط الامراء اوقبل عطاياهم اوعظمهم بل ربما بالغوا فى ذلك كما وقع لمحمد بن بشر الزنبرى المصرى مع سعة علمه كان يملى الحديث على اهل بلده فاتفق ان خرج الملك غازيا فخرج الزنبرى يشيعه فلما انصرف وجلس يوم الجمعة فى مجلسه قام اليه اصحاب الحديث فنزعوه من موضعه وسبوه وهموا به ومن قواروايا تهم عنه ، ثم ذكره ابن يونس فى تاريخ مصر فقال « لم يكن يشبه اهل العلم » (٢) وانما كانوايتسامحون فيمن بلغ من الجلالة بحيث يعلم انه انما يخالط الامراء ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويكفهم عن الباطل ما استطاع كالزهرى ورجاء بن حيوة ، روى الشافعى قال حدثنا عمى قال دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له يا سليمان الذى تولى كبره من هو؟ يعنى فى قول الله تعالى (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) قال عبدالله بن ابى، قال كذبت ! هوفلان ، قال امير المؤمنين اعلم بما يقول . فدخل الزهرى فقال يا ابن شهاب ! من الذى تولى كبره ؟ قال ابن ابى ، قال كذبت هوفلان ! فقال الزهرى لهشام انا أكذب لا ابالك ؟ والله لونادى مناد من السماء ان الله احل الكذب ما كذبت ! حدثنى عروة وسعيد وعبيد الله وعلقمة عن عائشة ان الذى تولى كبره عبدالله بن ابى »وذكر تمام القصة وفيها خضوع هشام للزهرى واسترضاؤه له (٣) وقد وقعت للزهرى قصة تشبه هذه مع الوليد بن عبد الملك وفيها ان الوليد قال له يا ابا بكر من تولى كبره ؟ أليس فلانا ؟ قال الزهرى قلت لا ! فضرب الوليد بقضيبه على السرير فمن؟ فمن ؟ حتى رد ذلك مرارا قال الزهرى لكن عبدالله بن أبى »(٤) وفى جواب سليمان لهشام لطيفة حيث لم يقل امير المؤمنين اعلم ويسكت بل قال اعلم بما يقول اى

(١) هذه الآثار من الكفاية وغيرها (٢) انظر ترجمة الزنبرى فى لسان الميزان
(٣) انظر فتح البارى فى باب حديث الافك فى المغازى وانظر ترجمة ابن شهاب فى تهذيب الكمال (٤) انظر فتح البارى .

اعلم

اعلم بقول نفسه لا اعلم بحقيقة الحال ولكن المقام لم يكن لتغنى فيه مثل هذه الاشارة فلذلك قيض الله تعالى الزهرى ووفقه فقال ما قال، وقوله لهشام وهو الملك « لا ابا لك » جرأة عظيمة .

وكانوا من الورع وعدم المحاباة على جانب عظيم حتى قال زيد بن ابى انيسة اخى يحيي يكذب (١) وسئل جرير بن عبدالحميد عن اخيه انس فقال قدسمع من هشام بن عروة ولكنه يكذب فى حديث الناس فلا يكتب عنه » (٢) وروى على بن المدينى عن ابيه ثم قال « وفى حديث الشيخ ما فيه » واشار الى تضعيفه غير مرة (٣) وقال ابوداود ابنى عبدالله كذاب (٤) وكان الامام ابوبكر الصبغى ينهى عن السماع من اخيه محمد بن اسحاق (٥) .

حفظ علماء السلف لتراجم الرجال

كان الرجل لايسمى عالما حتى يكون عارفا بأحوال رجال الحديث ففى تدريب الراوى « قال الرافعى وغيره اذا اوصى للعلماء لم يدخل الذين يسمعون الحديث ولاعلم لهم بطرقه ولا باسماء الرواة .... وقال الزركشى اما الفقهاء فاسم المحدث عندهم لا يطلق الا على من حفظ متن الحديث وعلم عدالة رواته وجرحها .... وقال التاج السبكى .... انما المحدث من عرف الاسانيد والعلل واسماء الرجال .... » وذكر عن المزى انه سئل عمن يستحق اسم الحافظ فقال « اقل ما يكون ان يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم واحوالهم وبلدانهم اكثر من الذين لايعرفهم ليكون الحكم للغالب »

فكان العالم يعرف احوال من ادركهم اما باختباره لاحوالهم بنفسه واما باخبار الثقات له ، ويعلم احوال من تقدمه باخبار الثقات اوباخبار الثقات عن الثقات وهكذا ويحفظ ذلك كله فكما يحفظ الحديث باسانيده حتى كان منهم من

---

(١) تهذيب التهذيب ترجمة يحيي (٢) لسان الميزان ترجمة انس (٣) تهذيب التهذيب ترجمة عبدالله بن نجيح (٤) لسان الميزان ترجمة عبدالله (٥) انظر ترجمة محمد فى لسان الميزان

يحفظ الألوف ومنهم من يحفظ عشرات الالوف ومنهم من يحفظ مئات الالوف باسانيدها(١) فكذلك كانوا يحفظون تراجم الرواة باسانيدها فيقول احدهم اخبرنى فلان انه سمع فلانا قال قال فلان لاتكتبوا عن فلان فانه كذاب، وهكذا.

طائفة من مشاهير المكثرين من الجرح والتعديل

١ - شعبة بن الحجاج ولد سنة ٨٢ وتوفى سنة ١٦٠ وهو اول من تجرد لذلك وشدد فيه جاء عنه انه قال سمعت من طلحة بن مصرف حديثا واحدا وكنت كلما مررت به سألته عنه، فقيل له لم يا ابا بسطام؟ قال اردت ان انظر الى حفظه فان غير فيه شيئا تركته (٢).

٢ - سفيان الثورى (٩٧ - ١٦١) وله فى ذلك نوادر قال فى ثور بن يزيد «خذوا عن ثور واتقوا قرنيه» وكان ثور قدريا يميل الى النصب فهذان قرناه

٣ - الامام مالك بن انس (٩٣ - ١٧٩) وكان لايروى الا عن ثقة.

٤ - ابن المبارك (١١٨ - ١٨١) وكان ربما جعل كلامه فى الرجال شعرا ليشتهر فمنه قوله.

ايها الطالب علما   ائت حماد بن زيد
فاطلبن العلم منه   ثم قيده بقيده
لا كثور وكجهم   وكعمرو بن عبيد

وفى ترجمة ابى اسحاق الفزارى من تهذيب التهذيب وغيره ان هارون الرشيد اخذ زنديقا فاراد قتله فقال اين انت من الف حديث وضعتها؟ فقال له اين انت يا عدو الله من ابى اسحاق الفزارى وابن المبارك ينخلانها حرفا حرفا.

٥ - يحيى بن سعيد القطان (١٢٠ - ١٩٨) من المشددين.

---

(١) انظر مقدمة تدريب الراوى (٢) الكفاية ١١٣.

٦ – عبد الرحمن بن مهدى (١٣٣ – ١٩٨) من المعتدلين .

٧ – محمد بن سعد صاحب الطبقات (١٦٨ – ٢٣٠)

٨ – يحيى بن معين (١٥٨ – ٢٣٣) وهو اكثر الائمة كلاما فى الجرح والتعديل وله كتاب الضعفاء وكتاب الكنى ، وجمع تلميذه عباس الدورى من كلامه تاريخا وكذلك فعل غير واحد من تلامذته .

٩ – على بن المدينى (١٦١ – ٢٣٤) ومن مؤلفاته كتاب الضعفاء ، العلل المدلسون ، الاسماء والكنى ، المسند بعلله (١) .

١٠ – ابو خيثمة (١٦٠ – ٢٣٤) وله كلام كثير فى الرجال نقله ابنه احمد فى تاريخه .

١١ – الامام احمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١) وكلامه كثير يرويه عنه ابنه عبد الله وغيره من تلامذته وله كتاب العلل (٢) .

١٢ – البخارى (١٩٤ – ٢٥٦) وله من التصانيف التواريخ الثلاثة ، الكنى المجردة ، الضعفاء .

١٣ – مسلم (٢٠٤ – ٢٦١) له التاريخ ، الطبقات ، الاسماء والكنى ، المفاريد والوحدان .

١٤ – احمد بن عبد الله بن صالح العجلى (١٨٢ – ٢٦١) وهو اكبر من البخارى ومسلم ولكن تأخرت وفاته – له كتاب الثقات .

١٥ – ابوزرعة الرازى (٢٠٠ – ٢٦٤) وله كلام كثير غالبه فى كتاب الجرح والتعديل لابن ابى حاتم .

١٦ – ابو داود صاحب السنن (٢٠٢ – ٢٧٥) سأله عن الرجال تلميذه ابو عبيد الآجرى وجمع من ذلك كتابا .

١٧ – ابو حاتم الرازى (١٩٥ – ٢٧٧) له كلام كثير غالبه فى كتاب الجرح والتعديل لابنه .

١٨ – صالح بن محمد جزرة (٢٠٥ – ٢٩٣) له تاريخ الرى وغيره .

---

(١) فهرست ابن النديم ص ٣٢٢ (٢) فهرست ابن النديم ص ٣٢٠ .

١٩ – النسائى (٢١٥ – ٣٠٣) له كتاب الضعفاء وغيره .

٢٠ – زكريا الساجى (تقريبا ٢٢٠ – ٣٠٧) له كتاب العلل وغيره .

٢١ – ابو بشر الدولابى (٢٢٤ – ٣١٠) له كتاب الكنى وغيره .

٢٢ – ابو جعفر العقيلى (– ٣٢٢) له كتاب الضعفاء .

٢٣ – ابن ابى حاتم (٢٤٠ – ٣٢٧) له كتاب الجرح والتعديل وغيره .

٢٤ – ابو سعيد بن يونس (٢٨١ – ٣٤٧) له تاريخ مصر .

٢٥ – ابن حبان (تقريبا – ٢٧٠ – ٣٥٤) له كتاب الثقات وكتاب الضعفاء وغيرهما .

٢٦ – ابو احمد بن عدى (٢٧٧ – ٣٦٥) له كتاب الكامل فى الضعفاء وغيرهم ممن تكلم فيه .

٢٧ – ابو احمد الحاكم (٢٨٤ – ٣٧٨) له كتاب الكنى .

٢٨ – الدار قطنى (٣٠٦ – ٣٨٥) له كتاب العلل وغيره .

٢٩ – ابن شاهين (٢٩٨ – ٣٨٥) له كتاب الثقات .

٣٠ – ابو عبدالله الحاكم (٣٢١ – ٤٠٥) له تاريخ نيسابور وغيره .

٣١ – حمزة السهمى (تقريبا – ٣٤٠ – ٤٢٧) قال الذهبى صنف التصانيف وجرح وعدل وصحح وعلل (١) وله تاريخ جرجان (٢) .

٣٢ – ابن حزم الاندلسى (٣٨٤ – ٤٥٦) له كلام كثير فى الرجال فى كتابه المحلى وغيره .

٣٣ – الخطيب البغدادى (٣٩٢ – ٤٦٣) له تاريخ بغداد وغيره .

٣٤ – ابن ماكولا (٤٢٢ – ٤٧٥ وقيل بعدها) له كتاب الاكمال وغيره .

٣٥ – شجاع الذهلى (٤٣٠ – ٥٠٧) سأله السلفى عن المشايخ وجمع من ذلك كتابا .

٣٦ – الشنترينى (٤٤٣ – ٥٢٢) له كتاب فى رجال مسلم وغيره .

---

(١) تذكرة الحفاظ – ج ٣ – ص – ٢٧٣ (٢) ستطبعه الدائرة ان شاء الله تعالى قريبا .

ابو

٣٧ – ابو سعد ابن السمعانى (٥٠٦ – ٥٦٢) له كتاب الانساب وغيره .

٣٨ – ابن عساكر (٤٩٩ – ٥٧١) له تاريخ دمشق وغيره .

٣٩ – ابن بشكوال الاندلسى (٤٩٤ – ٥٧٨) له كتاب الصلة وغيره .

٤٠ – ابن الجوزى (٥١٠ – ٥٩٧) له التاريخ المنتظم (١) وكتاب الضعفاء وغيرهما .

٤١ – عبدالغنى المقدسى (٥٤١ – ٦٠٠) له كتاب الكمال وغيره .

٤٢ – ابوالحسن ابن القطان (لعله قبل ٥٧٠ – ٦٢٨) له كتاب الوهم والايهام يتضمن كلاما كثيرا فى الرجال .

٤٣ – ابن الدبيثى (٥٥٨ – ٦٣٧) له تاريخ واسط وذيل لتاريخ السمعانى لبغداد وغيرهما .

٤٤ – ابن النجار (٥٧٨ – ٦٤٣) له ذيل تاريخ بغداد فى ستة عشر مجلدا .

٤٥ – الزكى المنذرى (٥٨١ – ٦٥٦) له معجم فى مجلدين وغيره .

٤٦ – الدمياطى (٦١٣ – ٧٠٥) له المعجم وغيره وشهد له المزى انه اعلم من ادركه من الحفاظ بالرجال .

٤٧ – المزى (٦٥٤ – ٧٤٢) له تهذيب الكمال وغيره .

٤٨ – الذهبى (٦٧٣ – ٧٤٨) له تاريخ الاسلام والميزان وتذكرة الحفاظ والكاشف والمغنى وتذهيب التهذيب وغيرها .

٤٩ – مغلطاى (٦٨٩ – ٧٦١) له اكمال تهذيب الكمال وغيره .

٥٠ – العراقى (٧٢٥ – ٨٠٦) له معجم جماعة من رجال القرن الثامن .

٥١ – ابن حجر (٧٧٣ – ٨٥٢) له تهذيب التهذيب ولسان الميزان وتعجيل المنفعة والدرر الكامنة وغيرها .

٥٢ – السخاوى (٨٣٠ – ٩٠١) له الضوء اللامع وغيره .

قال فى كتابه فتح المغيث بعد أن سرد اسماء جماعة من ائمة الجرح والتعديل وختم بذكر شيخه ابن حجر ما لفظه « وطوى البساط بعده الا لمن

---

(١) قد طبعت الدائرة جزئين منه والباقى تحت الطبع .

شاء الله ختم الله لنا بخير » .

تدوين العلم وحظ علم الرجال منه

ذكروا ان تدوين العلم فى الكتب فى العهد الاسلامى شرع فيه حوالى نصف القرن الثانى فالف ابن جريج (٨٠–١٥٠) وابن ابى عروبة (–١٥٦) والربيع بن صبيح (–١٦٠) ويتوهم بعض الناس انه قبل ذلك لم يكن عند احد من المسلمين كتاب ما يتضمن علما غير كتاب الله عزوجل .

وهذا خطأ فقد كان عند جماعة من الصحابة صحائف فى كل منها طائفة من الاحاديث النبوية منها صحيفة كانت عند امير المؤمنين على عليه السلام ذكرها البخارى (١) وغيره وجمع بن حجر فى فتح البارى قطعا منها .

وكان عند عمرو بن حزم كتاب كتبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى اهل اليمن فيه احكام كثيرة (٢) .

وكان عند انس كتاب فى احكام الزكاة كتبه ابوبكر الصديق قال فى اوله « هذه فريضة الصدقة التى فرضها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين » (٣)

وفى رواية عند الحاكم وغيره « كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاب الصدقة فلم يخرجه الى عماله حتى قبض فقرنه بسيفه فعمل به ابوبكر حتى قبض ... وذكر الكتاب » (٤) .

وكان لسمرة بن جندب كتب فيها ما سمعه من النبى صلى الله عليه وآله وسلم يروى عنها الحسن البصرى (٥) .

وكان لجابر بن عبدالله صحيفة كذلك يروى عنها الحسن ايضا (٥) وطلحة ابن نافع (٦) .

---

(١) ص ٢٥١ (٢) المستدرك ج ١ ص ٢٩٥ – ٢٩٦ (٣) البخارى ص ١٩٥

(٤) المستدرك ج ١ ص ٣٩٢ (٥) تهذيب التهذيب ترجمة الحسن (٦) تهذيب التهذيب ترجمة طلحة

وكان لعبدالله بن عمرو صحيفة كتبها باذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١) يرويها عمرو بن شعيب بن محمد بن عبدالله بن عمرو عن ابيه عن جده .

وفى المستدرك عن الحسن بن عمرو بن امية الضمرى قال حدثت عن ابى هريرة بحديث فانكره فقلت له انى قد سمعته منك قال ان كنت سمعته منى فانه مكتوب عندى فأخذ بيدى الى بيته فارانى كتابا من كتبه .... فذكر القصة (٢) .

استنكره الذهبى لما فى البخارى وغيره عن ابى هريرة قال ما من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احد اكثر حديثا عنه منى الا ما كان من عبدالله ابن عمرو فانه كان يكتب ولا اكتب» لكن قال ابن عبدالبر يمكن انه لم يكن يكتب فى العهد النبوى ثم كتب بعده (٣) .

واما التابعون فقلّ عالم منهم لم يكن عنده كتب ولكن كانت الاحاديث تجمع كيفما اتفق بلا تأليف ولا ترتيب كما فى صحيفة همام بن منبه اليمانى عن ابى هريرة وهى نحو من مائة واربعين حديثا تجدها فى مسند احمد ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٩ وهى فى الصحيحين وغيرها مفرقة .

التدوين

فاما التدوين بالترتيب والتأليف فقد رويت عن زيد بن ثابت الصحابى المشهور رسالة طويلة كتبها فى احكام المواريث حوالى سنة ٤٠ للهجرة — (٤) وفى سنن البيهقى قطع كثيرة منها .

وذكر غير واحد أن الحسن بن محمد ابن الحنفية المتوفى سنة ٩٥ وضع كتابا فى بعض العقائد ولكن فى ترجمته من تهذيب التهذيب ما يؤخذ منه انها رسالة صغيرة .

وفى ترجمة الحلاج من تاريخ الخطيب (٥) ان للحسن البصرى (٢١ — ١١٠) كتابا اسمه كتاب الاخلاص كان يروى ويسمع فى القرن الثالث .

---

(١) طبقات ابن سعد — ج ٤ قسم ٢ ص — ٩ (٢) المستدرك — ج ٣ ص ٥١١ (٣) فتح البارى باب كتابة العلم (٤) سنن البيهقى — ج ٦ ص ٢٤٨ (٥) ج ٨ ص ١٣٨ .

وفى فهرست ابن النديم(١) ان لمكحول الشامى المتوفى سنة ١١٢ اوبعدها كتابين كتاب السنن وكتاب المسائل فى الفقه .

فاما ماذكروه(٢) ان اول من دوّن الحديث ابن شهاب الزهرى فى سنة مائة اونحوها بامر عمر بن عبد العزيز وبعث به عمر الى كل ارض له عليها سلطان، فلا ادرى أمرتبا كان ذلك الكتاب ام لا ؟ .

فاما التأليف فى احوال الرجال فانه تأخر قليلا وقد ذكر ابن النديم(٣) ان لليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥) تاريخا، وان لابن المبارك (١١٨ - ١٨١) تاريخا وقال الذهبى فى ترجمة الوليد بن مسلم الدمشقى (١١٩ - ١٩٥) « صنف التصانيف والتواريخ »(٤) ثم الف ابن معين وابن المدينى وغيرهما واتسع التأليف جدا ولكن فى القرن العاشر وهلم جرا تقاصرت الهمم وهجر علم الرجال فقل من بقى يعتنى بقراءة كتب الرجال او نسخها اونشرها فاما التأليف فأقل واقلّ اللهم الا ان يجمع احدهم تراجم لبعض المجاذيب والدراويش يملؤها بالخوارق اويجمع آخر تراجم لبعض الادباء ينتقى من شعرهم ما يستظرفه من الغزل ونحوه مما إن لم يضر لم ينفع، الا ما شاء الله تعالى .

حتى ايقظ الله تعالى الامة لعلم الحديث وعلم الرجال والفضل فى ذلك بعد الله عزوجل للهند واعظمه لدائرة المعارف كما سيأتى .

طريقة العلماء فى وضع كتب الرجال

اما ترتيب التراجم فمعروف واجوده طريقة التهذيب وفروعه فانه على ترتيب حروف الهجاء باعتبار اسم الراوى بجميع حروفه وكذا باعتبار اسم ابيه وجده فصاعدا .

مثاله- ابراهيم بن محمد بن عبدالله بن جحش، وبعده ابراهيم بن محمد بن عبدالله ابن عبيدالله . وكذلك يرتب باعتبار النسب، مثاله، ابراهيم بن ميمون الصنعانى ،

(١) ص ٣١٨ (٢) فتح المغيث - ص ٣٣٩ (٣) الفهرست - ص ٢٨١ وص ٣١٩

(٤) تذكرة الحفاظ - ج ١ ص ٢٧٥ .

ابراهيم

ابراهيم بن ميمون كوفى ، ابراهيم بن ميمون النحاس .

وافادة الترتيب سهولة الكشف واضحة، ولكن ثم فائدة اعظم منها وهى التنبيه على ماقد يقع من سقط اوزيادة او تصحيف اوتحريف .

مثال السقط ما وقع فى التقريب المطبوع بدهلى سنه ١٣٢٠ ذكر فى المحمدين تراجم من اسمه محمد بن ابراهيم ثم ذكر بعدها محمد بن كعب الانصارى ثم محمد بن احمد .

وكيف يكون كعب بين ابراهيم واحمد ؟ والصواب كما فى تهذيب التهذيب وغيره محمد بن ابى بن كعب .

ومثال الزيادة ما وقع فى الميزان المطبوع بمصر ذكر فى آخر تراجم البكرين بكر بن يونس ثم بكر بن الاعنق ، والصواب بكر الاعنق كما فى لسان الميزان ، ومن عادتهم ان من عرف باسمه ولقبه فقط ان يذكروه آخر الاسماء الموافقة لاسمه. وفى الميزان بعد بكر هذا بكر بن بشر والصواب بكير بن بشر كما فى اللسان .

واما التصحيف فأمثلته فى الميزان كثيرة، فمنها ذكر ابراهيم بن حميد ثم ابراهيم بن ابى حنيفة ثم ابراهيم بن حبان والصواب ابن حيان كما فى اللسان. وذكر ابراهيم بن خيثم وبعده ابراهيم بن الخضر وخيثم تصحيف والصواب خثيم كما فى اللسان بل ليس فى الاسماء خيثم وانما فيها خثيم وخيثمة، وذكر اصبغ بن محمد وبعده اصبغ بن بنانة وبنانة تصحيف والصواب نباتة كما فى اللسان . وذكر الحارث بن شريح وبعده الحارث بن سعيد وشريح تصحيف والصواب سريج كما فى اللسان .

والتحريف فى الميزان كثير ايضا فمنه ان فيه (اسامة بن يزيد بن اسلم) وبعده (اسامة بن يزيد الليثى) ثم (اسامة بن سعد) ويزيد فى الاولين تحريف والصواب زيد فيهما كما فى اللسان وغيره. وفيه اسماعيل بن مسلم وبعده اسماعيل ابن سلمة ، وسلمة تحريف والصواب مسلمة كما فى اللسان .

فهذه الاغلاط الواقعة فى الميزان المطبوع بمصر ينبه عليها ترتيب الاسماء فى التراجم كما هو ظاهر، على انه ربما اخل الذهبى فى الميزان بالترتيب ولكن اللسان يحول الترجمة المخالفة للترتيب الى موضعها وربما ابقاها حيث وقعت فى الميزان .

وضع التراجم

طريقهم فى ذلك ان يذكروا اولا اسم الراوى ونسبه وكنيته ولقبه ونسبته الى قبيلته وبلدته وحرفته ونحو ذلك مما يميزه عن غيره فانه كثيرا ما يشترك الرجلان فأكثر فى الاسم واسم الاب ونحو ذلك فيخشى الاشتباه .
ذكر ابن ابى اصيبعة فى عيون الانباء ان النضر بن الحارث بن كلدة الذى كان يؤذى النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو ابن الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب وتبعه الآلوسى فى بلوغ الارب فقال« النضر بن الحارث الثقفى»وهذا خطأ فان الطبيب هو الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج (١) بن ابى سلمة بن عبد العزى ابن غيرة بن عوف بن قسى (٢) وقسى هو ثقيف (٣) والنضر هو ابن الحارث ابن كلدة بن علقمة (٤) بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش وقيل فهر هو قريش (٥) .
وذكر الفاضل محمد فريد وجدى فى كنز العلوم واللغة فى ترجمة ابى بن كعب الصحابى المشهور أنه ابن كعب الاحبار التابعى المشهور وكذا ذكر فى ترجمة كعب وهذا خطأ فان ابيا هو ابن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية ابن عمرو بن مالك بن النجار (٦) وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج (٧)

---

(١) وقع فى ترجمة الحارث من الاصابة المطبوع بمصر سنة ١٣١٨ بمطبعة السعادة «ابن ابى علاج » وفى ترجمة ابنه الحارث بن الحارث «ابن علاج» (٢) الاصابة – ووقع فيها « قصى »وهو تحريف (٣) السيرة والقاموس (٤) ويقال ابن الحارث ابن علقمة بن كلدة (٥) السيرة (٦) تهذيب التهذيب وغيره (٧) السيرة والتاج .

والخزرج واخوتهم الأوس هم الانصار، وكعب الاحبار هو ابن ماتع الحميرى من آل ذى رعين اومن ذى الكلاع (١)

ووقع فى بعض كتب الخطيب البغدادى « قرأت على القاضى ابى العلاء الواسطى عن يوسف بن ابراهيم الجرجانى قال ثنا ابونعيم ابن عدى ... » فعمد بعض افاضل العصر فكتب بدل « ابونعيم » « ابواحمد » وكتب على الحاشية ما لفظه « ابونعيم اصل وليس بشىء ! » وحاصله ان الصواب ابواحمد لا ابونعيم وهذا خطأ اوقعه فيه انه يعرف ابا احمد عبدالله بن عدى (٢) الجرجانى الحافظ مؤلف كتاب الكامل توفى سنة (٣٦٥) ولايعرف ابانعيم عبدالملك بن محمد بن عدى الجرجانى الاستراباذى الحافظ المتوفى سنة ٣٢٣، ولكل من الحافظين ترجمة فى تذكرة الحفاظ وانساب السمعانى وطبقات الشافعية ومعجم البلدان ـ جرجان ـ ولابى نعيم ترجمة فى تاريخ الخطيب. وكذا ترجم الخطيب ليوسف بن ابراهيم المذكور فقال (قدم بغداد وحدث بها عن ابى نعيم عبدالملك بن محمد بن عدى الجرجانى ...... حدثنا عنه القاضى ابو العلاء الواسطى ...) (٣).

ثم يذكرون مشايخه والرواة عنه ولذلك فوائد كثيرة منها معرفة مقدار طلبه للعلم ونشره له، ومنها انه كثيرا ما يقع فى اسانيد كتب الحديث ونحوها ذكر الاسم مثلابدون ما يتميز به كأن يقع « محمد بن الصباح الدولابى عن خالد عن خالد عن محمد عن انس » وطريق الكشف ان تنظر ترجمة الدولابى تجد فى شيوخه خالد بن عبدالله الواسطى الطحان، ثم تنظر فى ترجمة الطحان تجد فى شيوخه خالد بن مهران الحذاء ثم تنظر ترجمة الحذاء تجد فى شيوخه محمد بن سيرين، ثم تنظر ترجمة ابن سيرين تجدفى شيوخه انس بن مالك. وان شئت فابدأ من فوق فانظر ترجمة انس بن مالك تجد فى الرواة عنه محمد بن سيرين وهكذا.

---

(١) تهذيب التهذيب (٢) فى طبقات الشافعية « عبدالله بن محمد بن عدى » فان صح فهو منسوب فى تذكرة الحفاظ وغيرها الى جده (٣) تاريخ الخطيب ج ١٤ ص ٣٢٥.

ومما وقع لنا فى هذا اننا وجدنا فى بعض الكتب التى تصحح وتطبع فى الدائرة سندا فيه (.... يحيى بن روح الحرانى قال سألت ابا عبدالرحمن بن بكار بن ابى ميمونة حرانى من الحفاظ كان مخلد بن يزيد يسأله .... » فذكر قصة وقد كان بعض افاضل العصر صحح ذلك الكتاب فكتب على قوله «سألت ابا عبدالرحمن ابن بكار بن ابى ميمونة » « كذا » كأنه خشى ان يكون الصواب سألت ابا عبدالرحمن بكار بن ابى ميمونة على ما هو الغالب من صنيعهم ان يذكروا اسم الرجل بعد كنيته فأردنا ان نحقق ذلك فلم نجد فيما بين ايدينا من الكتب ترجمة لبكار بن ابى ميمونة ولا ليحيى بن روح الحرانى ولا وجدنا فى الكنى ابا عبدالرحمن ابن بكار ولا اباعبدالرحمن بكارا ، فراجعنا بعض مظان القصة فاذا فيها «اباعبدالرحمن بكار بن ابى ميمونة» ولكن لم يقنعنا ذلك ثم انتبهنا الى ما فى القصة ان مخلد بن يزيد كان يسأل هذا الرجل فقلنا عسى ان نجده ذكرا فى ترجمة مخلد فلما نظرنا فيها وجدنا فى الرواة عن مخلد احمد بن بكار فاسرعنا الى ترجمته فاذا هو ضالتنا وهو ابو عبد الرحمن احمد بن بكار بن ابى ميمونة .

ومنها دفع شبهة التكرار فقد يتوهم فى المثال المذكور أن « عن خالد » الثانية مزيدة تكرارا .

ومنها التنبيه على السقط كأن يقع فى المثال الماضى « عن خالد) مرة واحدة ، وعلى الزيادة كأن يقع فيه « عن خالد » ثلاث مرات ، وعلى التصحيف والتحريف كأن يقع فيه « عن خاله » وعلى التقديم والتأخير كأن يقع فيه « عن خالد الحذاء عن خالد الطحان » والصواب عكسه .

ومنها ان يعرف تاريخ ولادة صاحب الترجمة وتاريخ وفاته تقريبا اذا لم يعرف تحقيقا ، مثاله بكير بن عامر البجلى لم يعلم تاريخ ولادته ولا وفاته ، لكن روى عن قيس بن ابى حازم وروى عنه وكيع وابو نعيم ووفاة قيس سنة ٩٨ ومولد وكيع سنة ١٢٨ ومولد ابى نعيم سنة ١٣٠ وهؤلاء كلهم كوفيون وقد ذكر ابن الصلاح وغيره ان عادة اهل الكوفة ان لا يسمع احدهم الحديث

الابعد

الابعد بلوغه عشرين سنة ، فمقتضى هذا ان يكون عمر بكير يوم مات قيس فوق العشرين فيكون مولد بكير سنة ٧٨ او قبلها ، ويعلم ان سماع وكيع وابى نعيم من بكير بعد أن بلغا عشرين سنة فيكون بكير قد بقى حيا الى سنة ١٥٠ فقد عاش فوق سبعين سنة .

وهناك فوائد اخرى . وبذلك يعلم حسن صنيع المزى فى تهذيب الكمال فانه يحاول ان يذكر فى ترجمة الرجل جميع شيوخه وجميع الرواة عنه ولنعم ما صنع وان خالفه الحافظ ابن حجر فى تهذيب التهذيب . ومن لم يهتد الى الكشف على الطريق السابق وقع فى الخطأ .

ثم يذكرون فى الترجمة ما يتعلق بتعديل الرجل اوجرحه مفصلا وفائدة ذلك واضحة وتفصيله يطول ولكن أذكر امرا واحدا وهو أنهم قد يذكرون فى ترجمة الرجل ما يعلم منه انه ثقة فى شيء دون آخر كأن يكون مدلسا فيحتج بما صرح فيه بالسماع فقط ، اويكون اختلط بأخرة فيحتج بما حدث به قبل الاختلاط فقط ، اويكون سيئ الحفظ فيحتج بما حدث به من كتابه فقط اونحو ذلك فربما اخرج البخارى ومسلم اواحدهما لبعض هؤلاء من صحيح حديثه فيقع الوهم لبعض العلماء ان ذلك الرجل ثقة مطلقا بحجة انه اخرج له صاحب الصحيح .

ثم يذكرون فى آخر الترجمة تأريخ ولادة الراوى وتأريخ وفاته ولذلك فوائد كثيرة ذكرها فى فتح المغيث ص ٤٦٠ .

ومما وقع لنا مما يتعلق بهذا انه وقع فى بعض الكتب التى تصحح وتطبع فى الدائرة سند فيه « ... احمد بن محمد بن ابى الموت ابوبكر المكى قال قال لنا احمد بن زيد بن هرون ... » وقد كتب عليه بعض الافاضل ما معناه « الصواب احمد عن يزيد بن هرون واحمد هو الامام احمد بن حنبل ويزيد بن هرون هو الواسطى الحافظ المشهور » وانما حمله على هذا انه لم يجد ترجمة لاحمد بن زيد بن هرون وهكذا نحن فقد جهدنا ان نظفر له بترجمة فى الكتب التى بين ايدينا فلم نجد ولكننا مع ذلك نعلم ان ما كتبه ذلك الفاضل خطأ لأن الامام

احمد توفى سنة ٢٤١ وابن ابى الموت له ترجمة فى لسان الميزان وفيها ما لفظه «وارخ ابن الطحان فى ذيل الغرباء وفاته فى ربيع الآخر سنة ٣٥١ بمصر وعاش تسعين سنة» فعلى هذا يكون مولده سنة ٢٦٠ اى بعد وفاة الامام احمد بن حنبل بنحو عشرين سنة فكيف يحمل قوله «قال لنا احمد» على الامام احمد بن حنبل.

هذا ومن المؤلفات فى علم الرجال ما هو خاص بالانساب كأنساب السمعانى وهو حقيق بأن يطبع فان النسخة التى طبعت بالتصوير فى اوربا كثيرة التصحيف والتحريف مع تعليق الخط وغير ذلك، وفائدته عظيمة ولاسيما فى انساب الرجال الذين لا توجد تراجمهم فى الكتب المطبوعة وكثيرا ما يستفاد منه فى غير الانساب ومن غريب ذلك انه تكرر فى المستدرك وسنن البيهقى ذكر الحسن بن محمد بن حليم المروزى فتارة يأتى هكذا وتارة يقع ابن حكيم وبعد أن كدنا نيأس من تصحيحه قلنا قد يجوز أن يكون ربما نسب الى هذا الجد المشتبه فيقال الحليمى او الحكيمى فراجعنا الانساب فاذا به ذكره فى «الحليمى» باللام وذكر أنه منسوب الى جده حليم.

ومن الكتب ما يكون خاصا بالمشتبه والمطبوع منها كالمؤتلف والمختلف لعبد الغنى والمشتبه للذهبى غير واف بالمقصود وقد قررت الدائرة طبع كتاب الاكمال لابن ماكولا وهو أهم الكتب فى هذا الشان، ولابن حجر كتاب تبصير المنتبه هذب فيه كتاب المشتبه للذهبى وسد ما فيه من الخلل وزاد زيادات مهمة وفيه اشياء ليست فى الاكمال وفى المكتبة الآصفية نسخة منه جيدة وهو حرى بأن يطبع. وقد استفدنا منه كثيرا، ومن غريب ذلك انه تكرر فى سنن البيهقى ذكر ابى محمد ابى الشيخ عبد الله بن محمد بن حيان الاصبهانى فيقع تارة حيان وتارة حبان ونظرنا فى التبصير فوجدناه عدد حَبان وحِبان وغيرهما مما يقع على هذه الصورة الاحيان فانه تركه اعتمادا على ان كل ما وقع على هذه الصورة مما لم يذكره فهو حيان كعادته فى امثال ذلك، وهذا وان كان كافيا لحصول الظن ولكن لم نقنع به، ثم قلنا فيه يجوز أن يكون ربما نسب الى جده هذا فنظرنا

فى مشتبه النسبة من التبصير فاذا هو فيه « الحيانى ، ذكره فى حرف الجيم مع الجبائى .

ومن الكتب ما يختص بالكنى وهو مهم لمعرفة ضبط الكنية فانها تقع فى الكتب مصحفة ومحرفة — ابو سعد وابو سعيد ، ابو الحسن وابو الحسين ، ابو عبد الله وابو عبيد الله .

والعالم محتاج الى جميع كتب الرجال لأنه يجد فى كل منها ما لايجد فى غيره ، وان لم يكن عنده الابعضها فكثيرا ما يبقى بحسرته وكثيرا مايقع فى الخطأ .

زعم بعض علماء العصر أن الحديث الذى فى صحيح مسلم عن ابى وائل عن امير المؤمنين على عليه السلام(١) فى تسوية القبور ضعيف لان اباوائل هو عبدالله ابن بحير بن ريسان القاص تقدجرحه العلماء . كأن هذا العالم نظر فى فصل الكنى من الميزان وليس فيه ابو وائل الا واحد هو عبدالله بن بحير فرجع الى ترجمته من الميزان ونقل كلام الأئمة فيه ولم ينظر أنه ليس عليه علامة مسلم والحديث فى صحيح مسلم كما علم وانما عليه علامة ابى داود والترمذى وابن ماجه ، ولانظر أنه لم يذكر لعبدالله بن بحير رواية الاعن اوساط التابعين وابو وائل الذى فى الحديث يرويه عن امير المؤمنين على عليه السلام . ولو ظفر هذا العالم بالتقريب او الخلاصة او تهذيب التهذيب لوجد فى فصل الكنى ابا وائل آخر هو شقيق بن سلمة تابعى كبير مخضرم روى عن الخلفاء الاربعة وغيرهم واخرج له البخارى ومسلم وغيرهما واتفق الأئمة على توثيقه ولذلك لم يذكر فى الميزان لان الميزان خاص بمن تكلم فيه .

واغرب من هذا ما وقع فى مجلة المنار ، رأيت فى بعض اجزائها القديمة ذكر كلام ابن حزم فى ترتيب كتب الحديث اظنه نقله من تدريب الراوى ووقع فى العبارة « وكتاب ابن المنذر » فكتب فى حاشية المجلة « ابن المنذر ابراهيم وعلى » كأنه نظر فصل الأبناء من الخلاصة فوجد فيه ذلك . وابراهيم

---

(١) هكذا فى رواية وفى اخرى عن ابى وائل عن ابى الهياج عن على — وارى كليهما صحيحا

ابن المنذر وعلى بن المنذر لم يذكر لأحدهما كتاب وانما ابن المنذر فى عبارة ابن حزم هو الامام محمد بن ابراهيم بن المنذر النيسابورى صاحب التصانيف توفى سنة ٣١٨ ولم يذكر فى الخلاصة لانه لم يرو عنه احد من الأئمة الستة لتأخره وهو مترجم فى تذكرة الحفاظ والميزان ولسانه وطبقات الشافعية وغيرها .

احياء كتب الرجال ولمن الفضل فى ذلك

قد اسلفت انه فى القرن العاشر من الهجرة وما بعده هجر علم الرجال حتى احياه الله عزوجل بواسطة المطابع وأذكر الآن ماطبع من كتبه ليعلم لمن الفضل فى ذلك .

الكتب الخاصة باسماء الصحابة

(١) الاصابة طبع بالهند سنة ١٢٦٤ هـ ثم بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .

(٢) اسد الغابة طبع بمصر سنة ١٢٨٦ هـ .

(٣) تجريد اسماء الصحابة طبع بدائرة المعارف سنة ١٣١٥ هـ .

(٤) الاستيعاب طبع بدائرة المعارف سنة ١٣١٨ هـ ثم بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .

وقررت الدائرة طبع كتابين آخرين — كتاب اسماء الصحابة لابن منده ، ودر السحابة للصاغانى .

الخاصة بالحفاظ

(١) طبقات الحفاظ للسيوطى طبع فى اوربا سنة ١٢٥٠ هـ .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبى طبع بدائرة المعارف سنة ١٣٣٤ هـ .

(٣) ذيله طبع بدمشق سنة ١٣٤٧ هـ .

توابع اسماء الرجال

(١) المشتبه للذهبى طبع فى اوربا سنة ١٣٠٠ هـ .

(٢) الاسماء والكنى للدولابى طبع فى دائرة المعارف سنة ١٣٢٢ هـ .

(٣) المؤتلف والمختلف لعبد الغنى طبع فى الهند سنة ١٣٢٧ هـ .

انساب

(٤) انساب السمعانى طبع بالتصوير فى اوربا سنة ١٣٣٠ ه‍ .

وقررت دائرة المعارف طبع الاكمال لابن ماكولا وهو اجل الكتب فى بابه ولعلها تطبع كتاب الانساب والتبصير لابن حجر .

اسماء الرجال

(١) التقريب طبع بالهند مرات اولها سنة ١٢٧١ ه‍ .

(٢) الخلاصة طبع بمصر مع فتح البارى على نفقة المرحوم السيد صديق حسن سنة ١٣٠١ ه‍ .

(٣) الميزان طبع بالهند سنة ١٣٠١ ه‍ ثم بمصر سنة ١٣٢٥ ه‍ .

(٤) اسعاف المبطا فى رجال الموطأ طبع بحيدرآباد دكن سنة ١٣٢٠ ه‍ .

(٥) طبقات ابن سعد طبع فى اوربا سنة ١٣٢٢ ه‍ .

(٦ و٧ و٨) الضعفاء الصغير للبخارى ، الضعفاء للنسائى ، المنفردات والوحدان لمسلم طبعت فى حيدرآباد سنة ١٣٢٣ ه‍ ثم طبع الاولان بالهند سنه ١٣٢٥ ه‍ .

(٩) الجمع بين رجال الصحيحين طبع فى دائرة المعارف سنة ١٣٢٣ ه‍ .

(١٠) تعجيل المنفعة » » سنة ١٣٢٤ ه‍ .

(١١) تهذيب التهذيب » » سنة ١٣٢٥ ه‍ .

(١٢) التاريخ الصغير للبخارى طبع فى الهند سنة ١٣٢٥ ه‍ .

(١٣) لسان الميزان طبع فى دائرة المعارف سنة ١٣٢٩ ه‍ .

وقررت الدائرة طبع امهات الكتب فى الفن ، التاريخ الكبير للبخارى ، والجرح والتعديل لابن ابى حاتم ، والتاريخ الكبير لابن ابى خيثمة . ولعلها تطبع التاريخ الاوسط للبخارى فان نسخته موجودة .

وقد طبعت كتب اخرى يستفاد منها كثير من تراجم الرجال ولكن منها مالم يوضع لذلك بخصوصه ومنها ما هو خاص ببلد او طائفة .

وقد طبعت دائرة المعارف من هذا الضرب مرءاة الجنان لليافعى

والجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية وقررت طبع تاريخ المنتظم لابن الجوزى وطبقات الحنابلة لابن رجب ، ولعلها تطبع تاريخ جرجان .

وكل من له المام بالفن يعلم انه ليس فى كتب الرجال المطبوعة اجمع ولا اوسع ولا انفع من تهذيب التهذيب ولسان الميزان ويشاركهما تعجيل المنفعة فى عظمها وكلها من طبع دائرة المعارف .

وليس فيما لم يطبع منها اجل من التاريخ الكبير للبخارى والجرح والتعديل لابن ابى حاتم والتاريخ الكبير لابن ابى خيثمة وقد قررت دائرة المعارف طبع هذه الثلاثة .

ومن تتبع ما انتجته النهضة العلمية فى القرن الرابع عشر بالهند ومصر والشام وغيرها من المعارف والمؤلفات والرسائل وغيرها علم ان للهند ولا سيما حيدرآباد دكن الفضل الاكبر فى ذلك بما نشرته من كتب الحديث وكتب الرجال فان شأن الهند وخاصة دائرة المعارف فى الحديث لايقل عن شأنها فى الرجال وحسبك ان من مطبوعات دائرة المعارف كنز العمال ومسند الطيالسى والمستدرك والسنن الكبرى للبيهقى وغيرها وقد قررت طبع مسند الامام اسحاق بن راهويه ومسند ابى عوانة كما طبعت فى علم مصطلح الحديث اهم المؤلفات فيه علوم الحديث للحاكم وكتاب الكفاية للخطيب البغدادى . وقد اخذت الدائرة بنصيب من سائر العلوم كاللغة والنحو والفلسفة والرياضيات والتاريخ ولكن اذا كان فى طبع مؤلفات اسلافنا فى هذه العلوم ونحوها حفظ ونشر لاعمال نوابغ الاسلام ففى طبع كتب الحديث والرجال فوق ذلك حفظ ونشر للاسلام نفسه .

على ان حاجة التاريخ الى معرفة احوال ناقلى الوقائع التاريخية اشد من حاجة الحديث الى ذلك فان الكذب والتساهل فى التاريخ اكثر ، بل ان معرفة احوال الرجال هى من اهم انواع التاريخ ، والعلوم الدينية والتاريخية اولى العلوم بالحفظ لانه اذا ضاع منها شىء لم يمكن تداركه بعد ختم النبوة ، واما العلوم

الاخرى

الاخرى فليست كذلك لانها نتيجة العقول والتجارب فاذا ضاع منها شيء يمكن استنتاجه ثانيا وهكذا .

ولن تزال الدائرة ان شاء الله تعالى مجدة فى سعيها مستمرة فى عملها معتمدة على فضل الله تبارك وتعالى وحسن توفيقه ثم على عناية صاحب الجلالة السلطان سلطان العلوم السلطان مير عثمان على خان بهادر حفظه الله كشأنه دائما فى العناية بالدائرة وبغيرها من معاهد العلم التى عمرت بها البلاد وحييت بها العباد .

طوبى لدكن ما حوته من معاهد للعارف
فيها رياض العلم تتحف باللطائف كل طائف
اثمارها متدليات طوع كفى كل قاطف
وحياضها بالعذب تروى كل مرتشف وغارف
فيها الجوامع والمدارس والمطابع والمتاحف
ومن الجوامع امها الكبرى تحير كل واصف
بحر به التقت العلوم من السوالف والخوالف
وترى بها دار الترجمة التآليف الطرائف
وبها كما علمت رجال العلم دائرة المعارف
نشرت علوما ما لها من معدن الا الصحائف
هذا رشاش من فواضل ذى الفضائل والعوارف
عثمان من عمت مواهبه الموافق والمخالف
يرعى المخالف من رعيته كما يرعى المؤالف
مغرى بما فيه السعادة والعلى لا بالزخارف
فليحى سلطان العلوم وانها معنا هواتف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة الدكتور محمد حميد الله استاذ الحقوق الدولية
فى الجامعة العثمانية بحيدر اباد الدكن
و قد نقلها من الهندية الى العربية الاستاذ ابو علی
الحسنى شيخ الادب بندوة العلماء

اقدم دستور مسجل فى العالم

وثيقة نبوية مهمة

ان لكل قوم ـ لا للشعوب المتحضرة فحسب بل يشاركهم فى ذلك البدو والهمج ـ قواعد محكمة للحكم والعدل يتقيد بها ويخضع لها اكبر رئيس مستبد(١). واذا دونت وحررت هذه القواعد سميت غالبا باسم «الكتاب» وذلك هو معنى بايبل، و واسكر پچر، و وياسه (٢) المنسوبة الى جنكيز خان حتى انه فى اللغة التركية الجديدة يطلق مصدر . يازمك، للكتابة ، وكتاب الله هو اسم صحيفة المسلمين .

وبالجملة فقواعد الحكم واحكام السياسة للبلاد والدول توجد غالبا بصورة محررة فى كل مكان ولكن تحرير دستور المملكة مستقلا عن القوانين العامة لم اجد له بعد البحث والتنقيب نظيرا قبل العهد النبوى . نعم انا نجد فى ومنوسمرتى، (سنة ٥٠٠ ق ـ م) ذكر واجبات الملك، ولكوتليا كتاب، ارتهه شاستر ، (سنة ٣٠٠ ق ـ م) ولمعاصره ارسطاطاليس مؤلفات مستقلة فى السياسة وقد كتب ارسطاطاليس دستور مائة وثمانى وخمسين دولة (٣) من الدول المعاصرة له وفيها الهند (٤) ايضا . وقد وجد دستور مدينة اثينا عاصمة

(١) اصول السياسة تاليف هـ ـ ج لاسكى بالانجليزية (٢) مسالك لابن فضل الله العمرى مخطوطة باريس (٣) دستور اثينا لارسطاطاليس مقدمة الترجمة الانجليزية ص٥، (٤) دائرة المعارف للعلوم العمرانية ج ١ ص ٧ ٢ ومقدمة دستور اثينا (بالانجليزية) ص ١٠ .

بلاد

بلاد اليونان من تاليف ارسطاطاليس محفوظا فى مصر على رقاع البردى قبل خمسين سنة ونشر سنة ١٨٩١ م ونقل الى الانجليزية وغيرها من اللغات ولكن كتب كوتليا وارسطاطاليس وغيرها إما ككتب دراسية او نصائح للملوك وإما تذكرة تاريخية لدستور دولة اوبلاد، ولكن ليس لواحد منها صفة دستور رسمي لمملكة نفذه صاحب سيادة .

ان فى العام الاول للهجرة كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ضمنه حقوق السلطان وصاحب سيادة المسلمين وواجباته اللازمة المستعجلة بتفصيل. ومن حسن حظنا ان ابن اسحق وابا عبيد قد ذكرا هذه الوثيقة بنصها وحرفها، وهى التى نحن بصددها الآن .

هذه الوثيقة تحتوى على ثلاث وخمسين فقرة اومادة، وهى مثال طريف للغة القانونية وكتابة الوثائق فى ذلك العصر وقد حسب لها النصارى الاوربيون من الحساب اكثر مما حسب المؤرخون المسلمون وعلقوا عليها اهمية كبيرة وقد رأى مؤلف انجليزى من الواجب ان لا يهمل ذكر هذه الوثيقة فى كتابه المختصر فى تاريخ العالم، هذا غير من ذكرها وتناولها بالبحث من المؤلفين والسياسيين الاوربيين امثال ولهاوزن، وميولر، وگريم، واشپرنگر، وفنسنك وكايتانى، وبول وغيرهم (١) .

لا ارى هنا لزوما لذكر ما كتب هؤلاء المؤلفون من الالمان والهولانديين والطليان والانجليز بل اعرض خواطرى وما عندى فى هذا الموضوع وأستلفت الانظار الى قيمة هذه الوثيقة التاريخية والسياسية. اما شرحها بتفصيل ونقد ما كتب وعلق عليها المؤلفون الغربيون فيحتاج الى وقت طويل .

ولكن قبل ان اتحدث عن مضمون هذه الوثيقة ارى من الواجب ان اتعرض لذكر تلك البيئة والظروف التى دونت فيها هذه الوثيقة ونفذت .

لما شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مهمته للدعوة والاصلاح فى

---

(١) ذكرنا المآخذ عقب نص الوثيقة فى آخر هذه المقالة

مكة واراد تغيير المعتقدات والتقاليد التى مضى عليها القرون والاحقاب استقبل اهل البلاد تلك الدعوة باستعجاب ثم بمقت ثم بمقاومة وعناد وكانت هذه الرسالة عالمية من اول يوم وكان ممكنا بكل سهولة ان تشمل العالم المكتشف حينئذ خصوصا فارس والروم (بيزنطية) بسهولة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشر فى رسالته بفتح تلك البلاد (١) ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم بصفته رجلا واحدا من اوساط قبيلة ليست ذات شأن فى الغنى والقوة كان صعبا ان تسلم سيادته ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ورحم فى احياء الطائف (٢) والمدينة (٣) فتوجه تلقاء اقربهما اليه وهو الطائف ولكن اعترضت له هنالك صعوبات وعراقيل اكثر من مكة وبعد متاعب ومصاعب ساقه الله الى نفر من اهل المدينة الذين اسلموا ووعدوا بالايواء والنصر له ولأصحابه فى المدينة .

وكان قد بلغ السيل الزبى فى مكة وضاقت ارضها على المسلمين بما رحبت ونالهم من اهلها الاذى والعذاب الاليم حتى كان الرجل منهم اذا اصبح لايأمن ان يمسى واذا امسى لايأمن ان يصبح فطفق المسلمون يهاجرون الى المدينة وخاف اهل مكة سوء العاقبة والثار فحاصروا النبى صلى الله عله وسلم فى بيته وارادوا ان يبيتوه ، ولكن شاءت القدرة الالهية ان يخرج النبى بسلام وكذلك كان . فاغتاظ الكفار وصادروا املاكه (٤) واملاك المهاجرين (٥) وتملكوها . وكان المسلمون فى المدينة ما بين الانصار والمهاجرين لا يربو عددهم على بضع مئات وان كان عدد سكان المدينة يقدر فى ذلك الوقت

---

(١) ابن هشام ـ ص ٢٧٨ وطبقات ابن سعد احواله قبل الهجرة (٢) معارف ابن قتيبة ـ ص ٤٣ وكتاب المنتقى من دلائل النبوة لابى نعيم (مخطوطة) الفصل العشرون (٣) ابن هشام ـ ص ١٠٧ و ٣٣٦ و ٣٤٦ ـ طبقات ابن سعد ج ١ ـ القسم الاول ـ ص ٤٣ و ٤٥ و ٤٦ ـ معارف ابن قتيبة احوال عمومته ـ تاريخ الطبرى ـ ج ٢ ـ ص ١٧٧ و ١٧٩ وغيرها (٤) صحيح البخارى كتاب ٦٤ باب ٨٤ حديث ٣ (٥) ابن هشام ـ ص ٣٣٩ و ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

با ربعة او خمسة آلاف، نصف هذا العدد تقريبا من اليهود. وكانت مكة حينئذ مملكة مدنية منظمة، فيها نحو خمس وعشرين وظيفة رسمية للجند والمحاصل والعبادة والعلاقات الخارجية والعدل قد ذكرتها بتفصيل فى مقالتى التى قرأتها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى تريوندرم وطبعت فى مجلة « اسلامك كلچر » فى شهر يوليو سنة ١٩٣٨ . وبالعكس كانت الفوضى سائدة فى المدينة وكان فيها الحكم الطائفى وبينما كان عرب المدينة منقسمين الى ثنتى عشرة قبيلة من قبائل الاوس والخزرج كان اليهود منقسمين الى عشر قبائل من قبائل بنى النضير وبنى قريظة وغيرهما وقد توارثوا الحروب فيما بينهم وكان بعض العرب مع من حالفهم من اليهود يجاذبون الآخرين من بنى جنسهم حبل المنازعة والمحاربة وكان كلا الفريقين قد سئم هذه الحروب الممتدة الطاحنة (١) وان كان رجال منهم لايزالون ينشدون مساعدة حربية من القبائل الاخرى خصوصا من قريش (٢) ولكن كانت الغلبة فى المدينة للطبقات السلمية وكانت فرقة كبيرة منها مستعدة ان تملك عبد الله بن ابى ابن سلول حتى انهم امروا بصنع التاج له كما يحدثنا البخارى (٣) وابن هشام (٤) لاشك ان النبى صلى الله عليه وسلم اراد أن يوجد مركزية فاختار من القبائل الاثنتى عشرة عددها نقباء. ولكن بصرف النظر عن هذا كان كل حى فى المدينة مستبدا بحكمه الخاص وكان يقضى اموره تحت سقيفته ولم يكن نظام مركزى مدنى . وقد اسلم بفضل الدعاة المثقفين عدد من اهل البلد لايستهان به ولكن ما زال الدين الى هذه الساعة امرا شخصيا يستقل به كل احد ولم يكن له قيمة سياسية فكان بيت واحد يضم بين جدرانه اناسا مختلفين فى الاديان .

---

(١) ابن هشام ص ٢٨٧ — طبقات ابن سعد ج ١ قسم ٢ ص ١٤٧ — مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤٢٧ — صحيح البخارى كتاب ٦٣ باب ١ و ٢٧ و ٤٦ (٢) ابن هشام ص ٢٨٥ و ٢٩٠ (٣) صحيحه كتاب ٧٩ باب ٢٠ (٤) سيرته ص ٧٢٧ وانظر تاريخ الطبرى طبع اوروباص ١٥١١ وحسبك بما نص عليه القرآن الكريم سورة ٦٣ آية ٨

فى هذه الظروف يقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وله فيها دواع عديدة ، منها .

-١- تعيين حقوقه وحقوق الاهالى وواجباتهم -٢- ايجاد وسائل لا قامة المهاجرين ومعيشتهم -٣- التفاهم مع غير المسلمين وخصوصا اليهود -٤- تنظيم البلد السياسى والقيام بالدفاع الحربى - معاقبة مشركى مكة على ماكان منهم من العدوان على المهاجرين فى الانفس والاموال .

نظرا الى هذه المقاصد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشهر بعد هجرته (١) الى المدينة صكا ما قد سمى فى تلك الوثيقة نفسها « بالكتاب » و« الصحيفة » ويظهر انه كتب بعد المفاوضة مع الرجال اصحاب العلاقة . ومعلوم ان القرآن كان يكتب ويدوّن كلما نزل ، وكان النبى المحتاط المتثبت قد نهى عن كتابة شىء غير القران حتى اقواله وارشاداته . فكتابة هذه الوثيقة مع ذلك ينبه على ان لها شانا واى شان . ويؤيد ذلك ذكرها باسم الكتاب والصحيفة لان الكتاب ذات شان وهى تعنى الخطة او قائمة الواجبات . فبحق نقول ان هذا اساس اول مملكة مدنية فى المدينة ودستورها .

يرى روسو فى كتابه « المعاهدة العمرانية » ان المملكة تبتدئ من العقد العمرانى بين الحاكم والمحكوم . ونجد فى بيعة العقبة مثالا واضحا لذلك حيث سلم اهل المدينة سيادة النبى صلى الله عليه وسلم ودعوه الى بلدهم واقروا بامتثال اوامره . لذلك نرى ان الوثيقة التى تحت البحث ليس لها صفة معاهدة وعقد بل هى بصفة حكم يفرض وينفذ . ومن المعلوم ان من معانى كلمة « الكتاب » الفرض والحكم . فقد قال الله تعالى (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وقال (ان كتاب الابرار لفى عليين - ٢) و(كتب عليكم القتال) والكتاب

---

(١) ابن سعد ج ٢ قسم ١ ص ١٩ - كتاب الاموال لابى عبيد - ف ٥١٨ .

(٢) ان دخول كتاب الابرار (صحيفة الاعمال) فى الجنة شىء غير معقول فارى ان المعنى ان الامر المكتوب المقضى فيه ان الابرار يدخلون الجنة .

فى

فى هذا كله استعمل للوجوب والامر، والكلمة الالمانية «فور شريفت» والكلمة الانجليزية «پريسكر پشن» والفرنساوية «پر يسكر پسيون» والطليانية «پريس كريت مسيونے» والاسبانية «پريس كرپسيون» كلها بمعنى الفرض والحكم وبمعنى الكتابة ايضا .

ان الفوضى كانت منتشرة فى بلاد العرب تامة وفى المدينة خاصة فشرع النبى المعروف بالتنظيم وحب الوحدة لعلاجها هـذه الخطة التى تتلخص فى كلمتين « امير واحد وشرع واحد ». هذا ولم يكن حينئذ قد شرع الزكاة والحج اللذان استطاعت بهما الحكومة المركزية وجمع الناس على نقطة واحدة بواسطة ضرب الضريبة من طرف المركز وجر الناس من كل صوب وناحية ان يزور واقبلة واحدة .

على كل حال اصبح الناس يؤمنون باله واحد ويطيعون رسولا واحدا ويصلون جميعا . وقد احدث هذا الدستور تعديلا مهما واصلاحا انقلابيا للعرب ، وهو أن الناس بدل ان يطالبوا بحقوقهم بانفسهم اوبواسطة عشيرتهم جعلوا العدل ونفاذه امرا مركزيا نظاميا . وهذا العمل التاريخى الجليل انما سجل فى هذه الوثيقة التى قضت فى الوقت نفسه عـلى فوضى القبائل واختلال نظامها واسس نظاما واسعا ومملكة وقد حفظ فيها النبى صـلى الله عليه وسلم الحقوق العداية والتشريعية والحربية والتنفيذية العليـا بنفسه . ولـكن هنالك فرقا مهما جديرا بالذكر بين هذه السيادة وبين سيادة الدول الاخرى الملوكية وهوانه ليس هنا دخل لاستبدادية المادية ، فأدخل النبى صلى الله عليه وسلم العناصر الاخلاقية فى السياسة وجعل المنبع الاصـلى سيادة الله وأعلن انه رسول الله والقائم بتنفيذ احكامه وان ما جاء به من الاحكام والفرائض فهواول من يمتثلها ويلتزمها وان نفسه فيها وغيره سواء واذا نظرنا الى ما نقل من انصافه صلى الله عليه وآله وسلم لمن كان من المسلمين وغيرهم يدعى عليه حقا اودينا اوضمانا ، ومنا شدته للناس ان يظهروا ما لهم لديه من حق ليوفيهم اياه، وبذله

القصاص من نفسه لمن ادبهم من امته (١) فاننا نستطيع ان نقول ان الاسلام رفض النظرية القائلة ان الملك لايصدر منه خطأ (٢). واذا كانت اكبر شخصية فى حكومة لا تستطيع ان تخالف القانون صار من دون ذلك من الرؤسا والخاصة والعامة يحافظون على الامتثال بغاية الدقة.

الوثيقة تحتوى على قسمين بينين ، القسم الاول يتضمن خمسا وعشرين مادة وقد جعلها ولها وزن ثلاثا وعشرين مادة وقد اتبعه جميع المؤرخين الاوربيين واضطررت ان اجعلها ثلاثا وعشرين ايضا الا انى قسمت مادتين فى قسمين تحت (ا - ب) فصار عددها ، خمسا وعشرين حتى لا تعترى صعوبة والقسم الثانى يشتمل على ثمان وعشرين مادة ما جعلها ولها وزن - ٢٤ فقط فى المراجعة الى المآخذ الاوربية.

ان الثلاث والعشرين مادة الابتدائية تتضمن قواعد تتعلق بالمهاجرين والانصار، والباقية تتعلق بالقبائل اليهودية مالها وماعليها. وقد كرر فى القسمين جملة وهى « انكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم » و« انه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

اما المهاجرون والانصار فلاصعوبة فى تحاكمهم الى النبى صلى الله عليه وسلم ورفعهم قضاياهم اليه ولكن لسائل ان يسأل عن غير المسلمين كيف سمحت انفسهم لأشهر معدودة بعد الهجرة ان يحكموا فيهم رجلا غريبا عنهم حديث العهد ببلدهم ؟ اما من جهة عرب المدينة فيمكن ان يقال ويقتنع به السائل لما كان نظام القبائل سائدا فى المدينة وقد اسلم رؤساء القبائل فاضطر من دونهم

---

(١) ابن هشام ص (٤٤٤) - تاريخ ابن الاثير ذكر حال مرض النبى صلى الله عليه وسلم الذى مات فيه وقد ذكر الشامى فى سيرته سبع وقائع اعطى فيها النبى القود من نفسه (٢) هكذا المثل الانجليزى والمعنى ظاهر وان كان النبى صلى الله عليه وسلم لايقال له « ملك »

من

من اقاربهم ان يتبعوهم ولولم يعتنقوا دينهم. وما كان يمكن لهم بحكم النظام العاشرى العربى ان ينفكوا عن عشيرتهم او قبيلتهم، وما كان لهم ان يأمنوا على انفسهم واموالهم فى الخارج بدون مساعدة سائر اقاربهم وذوى رحمهم. وقد جاء فى الوثيقة بصراحة ان مشركى المدينة لايتمتعون بقوة القبائل العربية فى المدنية ومها جرى مكة هذه القوة المركزية الابشرط ان لايزاحموا خطة القوة المركزية من الوجهة السياسية، وان المشركين والمتهودين من القبائل العربية فى المدنية يكونون تبعا للمسلمين وعونا لهم فى حروبهم ولا يؤمنون قريش مكة فى انفسهم واموالهم ولايعارضون المسلمين فى هجومهم على قرشى.

وبعبارة أخرى قد منحتهم الحكومة الحقوق المدنية بشرط ترك محالفتهم قريشا، وبشرط قطع اواصرهم معهم ولزوم الحياد فى علاقة المسلمين مع قريش. ويحدثنا المؤرخون العرب ان العرب كانوا قد ملوا التقاتل والحروب الطائفية وكانوا رضوا بان يؤمروا محايدا اجنبيا ويعيشوا عيشة سلمية هذا شان العرب الغير المسلمين

واما من جهة اليهود فيبعد أن يكونوا بادروا الى تسليم سيادة النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا العهد الابتدائى. والذى انتهى اليه نظرى ان القسم الثانى من هذه الوثيقة — وهو دستور اليهود — انما كتب عقيب بدر حين قويت شوكة المسلمين والقى الرعب فى قلب عدوهم ونسخ اهل المدينة محالفاتهم مع اليهود (١) وقد حالف النبى صلى الله عليه وسلم القبائل الساكنة ما بين المدينة وينبع مثل بنى ضمرة وجهينة فازداد به المسلمون قوة الى قوة وكان فى اليهود حزبان كل حزب حرب على الآخر وكان مستحيلا ان يعيشوا مستقلين ومطمئنين وكانوا محذ ولين طعمة كل آكل ونهبة كل ناهب فاضطروا الى ان يتعاونوا مع النبى صلى الله عليه وسلم مع المحافظة على حريتهم الدينية والاستقلال الداخلى. وهذا كما قلت انما يكون بعد بدر، ولا يعقل ان يكون وقع هذا قبل بدر. وإن

---

(١) سيرة ابن هشام، ص ٢٩٦ — ٩٧، ٥٤٦ تاريخ الطبرى، ص ١٢٢٠

كانت الصحيفة يظهر أنها شيء واحد وتدل عبارتها واسلوبها على انها من قلم واحد ولمرتب واحد ، ويذكر المؤرخون المسلمون ان هذه الصحيفة كتبت فى العام الاول للهجرة ولكن يمكن ان يكون القسم الاول رتب فى السنة الهجرية الاولى والقسم الآخر فى السنة الثانية للهجرة بعد بدر وألحق بالاول . ويؤيده ان ابن منظور صاحب لسان العرب (١) يذكر هذه الصحيفة باسمين فقد يقول مرة « فى كتابه للمهاجرين والانصار » واخرى تحته بعد سطور « وقع فى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليهود » . واوثق من هذه الشهادة ان اباداود (٢) يروى ان هذه الصحيفة كتبت بعد وقعة بدر .

ان هذه الصحيفة كما سبق تتضمن قسمين بينين يمتاز احدهما عن الآخر . احدهما يتعلق بالقبائل الاسلامية والعربية ، والآخر باليهود . وهاك تحليلا موجزا للقسمين —

ان فى المادة الاولى من الصحيفة اعلن بوجود وحدة سياسية اسلامية يشترك فيها مهاجرو مكة وانصار المدينة والذين يتبعونهم وينضمون اليهم ويشتركون معهم فى الحروب . وهذه الوحدة السياسية تمتثل اوامر النبى صلى الله عليه وسلم . وفى المادة الاخيرة من هذا القسم الاسلامى كرر ان منبع السيادة ذات الله سبحانه وأن الناس يطيعون رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ويحكمونه فيما شجر بينهم ويكون الحكم الاخير النافذ له (راجع المادة ٢٣) .

وتعد هذه الوحدة السياسية مع التنوع الداخلى امة واحدة وتكون جبهة ممتازة مستقلة ازاء العالم وان المسلمين جميعهم شركاء على السواء فى الحقوق والواجبات (م ٢٠) .

وقد نفخ فيهم روح الثقة والاستقامة رغم قلة العدد والضعف والمخاوف فقيل انهم على احسن هدى واقومه (م ٢ و ١٣)

تكون مسئلة الحرب والسلم مركزية ولا يمكن ان يحارب بعض المتعاهدين

(١) مادة (ربع) (٢) سننه ج ٢ — كتاب — ٤ باب ٢١

ويمتنع الآخرون ،وتكون الخدمة العسكرية الزامية ويشترك فيها الجميع، تغزو جنود وتستريح اخرى تماقبا ولا تستقل به طائفة دون طائفة (م ١٧ – ١٨) .

تكون مسئلة الحرب والسلم مركزية ولكن لكل فرد صغيرا كان اوكبيرا أن يجير ويؤوى كما كانوا عليه من قبل ويسعى بذمتهم ادناهم ويحترم وعده ويتقيد به الامة كلها (م ١٥) .

وهكذا سادت الاخوة والمساواة وحرية العمل فى هذه الوحدة السياسية ،واشترط للايواء انه لا يسمح للمشركين العرب الذين ينالون حقوق الرعوية فى هذه الوحدة السياسية ان يجيروا احدا من قريش اويؤمنوه على نفسه وما له اويحولوا بين المسلمين وبين اموال قريش وانفسهم فانها من الحقوق الحربية . (م ٢٠ – ب)

ومما يتعلق بهذه المادة واقعتان تستحقان الذكر ذكرهما البخارى(١) وكلتاهما كانتا قبل بدر وفى كلتيهما ان مسلمين لها شخصية ممتازة ضمنا لبعض القرشيين سلامة املاكهم لما بينهم من صداقة واتصال . لاشك ان المادة تمنع المشركين فقط عن اجارة قريش ولكن القياس يقتضى ان المسلمين كانوا متقيدين بها ايضا وكانوا يعملون بهذه القاعدة بدون صراحة. لذلك ارى ان هذه المادة ما كانت توجد فى الدستور الابتدائى وانما ضمت اليه بعد المعاهدة مع اليهود بعد بدر او بمناسبة اخرى .

وما يتعلق بالحرب فقد فرض على المسلمين ان يكونوا بعضهم اولياء بعض،يتعاونون فى الحروب ويتشاطرون السراء والضراء (م ١٩) .

وما يتعلق بالعدل فقد قرر أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المرجع الاخير فى القضايا ومع ذلك قرر وشرح ما كان عليه النظام القديم فى الضمان والدية وهو أنهم يتعاقلون معاقلهم وكل طائفة تفدى أسيرها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (م ٤) .

وهكذا قسمت المدينة على احياء وحارات وكانت كل قبيلة تعيش

---

(١) صحيحه كتاب ٤٠ باب ٢ وكتاب ٦٤ باب ٢ .

مجتمعة، منفردة عن غيرها. وكان يكون فى كل حارة رئيس الحارة يقال له نقيب وعدد من نوابه يقال لهم العرفاء واحدهم عريف وكذلك الجامع والمنتديات يسمى كل منها سقيفة. ولم نعثر على ذكر بيت مال لحارة او حىّ من المسلمين ولكنه لايبعد أنهم كانوا يكتتبون على حسب الضرورة(١) وكانت هذه المجالس حرة مستقلة نوع استقلال.

اما قبائل الانصار فكانت معينة واما المهاجرون فصاروا قبيلة واحدة فى نفس ذاتهم الاغراض القضائية والاجتماعية (م ٣).

وقرر أنه اذا كان مجلس حارة لا يستطيع ان يقوم بواجباته المالية فيجب ان تعاونه المجالس الاخرى (م ١٢).

وصرح انه اذا كان فى قبيلة موال يعنى الذين صاروا من اعضاء القبيلة بمؤاخاة معاهدة او قانون مع فرد من افراد القبيلة فهؤلاء الموالى لا يختلفون عن غيرهم من القبيلة (م ١٢ ب) وفى نظام الولاء هذا قرر أن لايحالف مؤمن مولى مؤمن دونه وقد اخرجه الامام احمد بن حنبل ايضاً (مسند، ج ٣ ص ٣٤٢).

أخذ حق الانصاف والانتصاف عند التنازع من الافراد ونيط بالمركز وكان انقلابا ذاشأن واهمية. وقرر أنه لايسمح لأحد أن يوالى المجرم اويحدب عليه او يدافع عنه اويسعى فى تخليصه ولوكان المجرم ولده، والمسلمون يكونون يدا واحدة على كل من بغى منهم اوابتغى دسيعة ظلم او اثما اوعدوانا او فسادا بين المؤمنين ويجتهدون فى عقابه (م ١٣).

شرع القصاص لقتل العمد ولكن لولى المقتول ان يتجاوز عن القاتل

---

(١) نعم أن اليهود كان عندهم بيت مال لكل قبيلة على حدة فقد ذكر الشامى فى سيرته فى غزوة السويق أن «سلام بن مشكم وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك وصاحب كنزهم .... يعنى بالكنز هنا المال الذى كانوا يجمعونه لنوائبهم وما يعرض لهم».

ويقبل

ويقبل الدية . وحظر التداخل فى العدل (م ٢١).

لمصلحة اظهار الاسلام واعلاء كلمة الحق اشير عـلى المسلمين ان لا ينصر احد هم على طلب القصاص لقريبه الكافر اذا قتله مسلم وان لا يعين مسلم كافرا عـلى مسلم (م ١٤) وكذلك نهى ان يجار قاتل او يحال دونه . وانه لا يحل لمؤمن اقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا او يؤويه وانه من نصره اوآواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل (م ٢٢)

وكان بعض الانصار قد اعتنقوا اليهودية وعلى الخصوص ان بعض الآباء كانوا يهودون اولادهم بنذر فخصص لهؤلاء المتهودين مادة وهى انهم اذا قبلوا ان يكونوا مع المسلمين يتعاونون معهم تحت حـكم السيادة النبوية فانهم يشاركون المسلمين فى حقوق الرعوية وان لهم النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم (م ١٦) .

الى هنا ذكرنا الامور التى هى داخلة فى القسم الاول وتتعلق بعرب المدينة .

القسم الثانى يتعلق بقبائل اليهود . قد سبق البحث هل رتب دستور اليهود مع احكام الانصار والمهاجرين او بعدها .

على سبيل التحليل الموجز لهذا القسم اقول ان المادة الاولى مشتركة وهى انه اذا تعاون المسلمون واليهود على حرب فكل فريق يتحمل نفقاته الخاصة فى تلك الحرب . ولم يقتصر على ذكر هذا الحكم فى الفقرة الرابعة والعشرين فقط بل كرر فى السابعة والثلاثين (الالف) والثامنة والثلاثين . ولعله هو المراد فى عبارة الفقرة الخامسة والاربعين المبهمة «على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم» نقد ذكرها ابو عبيد بلفظ «حصتهم من النفقة» ولعل سر هذا التكرار أن سمعة اليهود كانت سيئة فى الامور المالية وقد اشير الى ذلك فى قوله تعالى (ليس علينا فى الاميين سبيل) وقوله تعالى (ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك) الى غير ذلك من آيات القرآن .

ولابد انه كان مع الغرم الغنم ايضا. لما كان اليهود مكلفين بتحمل نفقات الحرب كان لهم نصيبهم فى الغنائم ايضا، كما صرح بـه ابو عبيد فى شرحه فقال « نرى أنه انما كان يسهم لليهود اذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذى شرطه عليهم من النفقة ولولا هذا لم يكن لهم فى غنائم المسلمين سهم » . (١)

وقد سلم اليهود سيادة النبى صلى الله عليه وسلم وتحكيمه فى القضايا ايضا كما تصرح به المادة الثانية والاربعون ولكن مما يستدعى العجب انه مع الاعلان بالحرية الدينية والتسامح بقوله « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » قد جاء فى الفقرة الثانية والاربعين فى رواية ابن اسحاق كلمة « محمد رسول الله » وفى رواية ابى عبيد « محمد النبى » وتكررت كلمة « محمد رسول الله » فى الفقرة السابعة والاربعين عند ابن اسحاق ولو انها محذوفة فى رواية ابى عبيد، وليس معنى ذلك فيما أظن ان اليهود سلموا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بل لعل بعض نساخ هذه الكتب التاريخية زاد هذه الكلمات تأدبا لأن عند ابن اسحاق فى الموضعين زيادة « صلى الله عليه وسلم » فى الآخر ولا أحسب ان يكون النبى صلى الله عليه وسلم كتب او املى ذلك بنفسه . مع هذا يمكن ان يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم كتب كلمة « النبى » او « رسول الله » بنفسه ولم يجرؤ اليهود على الاعتراض عليه نظرا الى حالهم السياسية والحربية الخطرة . ويظهر من سيرة ابن هشام (ص ٩٩٢) ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول « صلى الله عليه وسلم » على سبيل الدعاء فى الخطب وغيرها .

مع قطع النظر عن هـذا البحث الضمنى نقول قد ذكر فى هذه الصحيفة عشر من قبائل اليهود منفردة باسمائها . وسلم ان حقوقها مساوية . ويظهر من هذا ان اليهود لم يشتركوا فى هذه المملكة المدنية الاتحادية صفة جماعة بل دخلت فيها كل قبيلة كوحدة منفردة . وكان من نتائج ذلك ان المسلمين لما حاربوا بعض قبائل اليهود او امروا اجلائها عن المدينة لم تكتف سائر القبائل اليهودية بالسكوت فحسب بل ساعدوا المسلمين فى بعض الاحيان مساعدة حربية، ورغما عن محاربة

(١) كتاب الاموال ـ ف ٥١٧ .

بعض

بعض القبائل بقيت هذه المعاهدة اوالدستور ثابتة فى القبائل اليهودية الاخرى ولم يعد ذلك نسخالها .

فمن ذلك انه قد قرر فى هذا الدستور أن القبيلة ومواليها كلهم مكلفون بالدية مطالبون بها وبحكم هذا العهد المقرر فى الماده الخامسة والعشرين والحادية والثلاثين طالب النبي صلى الله عليه وسلم بنى النضير (١) بالمعونة فى دية لزمت المسلمين وذلك بعد جلاء بنى قينقاع .

خولت لليهود المساواة فى الحقوق السياسية والمدنية مع الرعايا المسلمين بصراحة (م ٣٥) وقرر أن اقارب اليهود المحالفين لهم (الذين كانوا يسمون بموالى والبطن والبطانة) يشاركون اليهود فى الحقوق والواجبات العامة (م ٣٢ و ٤٠ و ٣٤ و ٤٥ و ٤٦) الا ان المجار لايسمح له ان يجير غيره الا باذن مجيره (م ٤١) . وكان اليهود فى الاصل قد حولفوا محالفة حربية فقد صرح فى (م ٣٧ و ٤٤ و ٤٥) انهم حرب على كل من حاربه المسلمون سلم لمن سالموه ويشتركون فى الدفاع عن المدينة . واذا اغار على المسلمين عدو فان اليهود ينصرون المسلمين وكذلك المسلمون ينصرون اليهود على عدوهم الا ان اليهود لاعهدة عليهم فى حروب المسلمين الدينية (م ٤٥) وانه لايخرج احد منهم مع المسلمين الاباذن النبي صلى الله عليه وسلم (م ٣٦ الالف) . وعبارة هذه المادة فيها شيء من الابهام ويفهم منها ايضا ان اليهود لا يسمح لهم ان يشهروا حربا الاباذن النبي صلى الله عليه وسلم، فاذا كان كذلك فيظهر منه مزيد اتساع السيادة النبوية . لابد ان قريشا تأثروا بهذا الحكم المهم اكثر من غيرهم فقد حرموا من مساعدة حليف مهم (اليهود) ضد المسلمين كما قرر فى المادة الثالثة والاربعين ان اليهود لايسمح لهم ان يساعدوا قريشا واعوانهم. ولكن من سوء الحظ ما عمل بهذا الحكم بل لم يزل رؤساء اليهود يؤامرون قريشا من وقت

---

(١) سيرة ابن هشام – ص ٦٥٢ – ابن سعد – ج ٢ قسم ١ ص ٤٠ و ٤١ – تاريخ الطبرى طبع اوربا ص ١٤٤٩ و ١٤٥٠ .

وقعة بدر الى نزول بني قريظة على حكم سعد بن معاذ(١) وبالجملة صارت الحرب والسلم مسئلة اساسية من مسائل الحكومة المركزية وحصلت القيادة الحربية للنبي صلى الله عليه وسلم فكان به فتحا سياسيا جليلا.

لم يتعرض النبي صلى الله عليه وسلم لكثير من المسائل الاجتماعية والداخلية بل اقرها على ما كانت. فأقر معاهد الفدية والدية والجوار والاجارة وعقد الموالاة على حالها (م ٢٥ و ٣١ و ٤٠) وكان من ثمرات هذه السياسة الجميلة انه لم يحصل لاحد ارتباك اوارتياب حتى ان اليهود قبلوا بكل سرور ورضا ان يحكم النبي فيهم ويكون له الحكم الاخير (م ٤٢).

يظهر من القضايا والمحاكمات ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحكم لليهود على قانونهم الشخصي. وكذلك جعل قضاء اليهود مسئلة متعلقة بالحكومة المركزية كالحرب والسلم كما صرح في المادة السادسة والثلاثين وحظر التداخل في القضاء لاجل القرابة البتة ونسخ سنة العرب الجاهلية في اخذ الثار وثار اثار المتسلسل الى ما لانهاية له.

وكان سيادة النبي صلى الله عليه وسلم القضائية العليا على اليهود فتحا سياسيا عظيما للمسلمين ولم يقتصر على ذلك بل سلم اليهود ايضا ان المدينة وما حواليها (الجوف) حرم (م ٣٩). كانت مكة حرما وقد بقيت حرمة الطائف في معاهدة السنة التاسعة للهجرة وسلمت(٢). وتسليم اليهود أن تكون المدينة (التي لم تكن مدينة عربية بحتا) حرما مقدسا فتح سياسي عظيم للنبي العربي صلى الله عليه وسلم فقد اصبحت بذلك قرية منقسمة على نحو عشرين حارة مملكة مدنية منظمة وجمع عمرانها القليل السكان المتنوع وكثير الجنسيات على مركز واحد تحت دستور ذي مرونة وقابل للعمل.

وبالتعاون اقيم في المدينة نظام سياسي لم يلبث ان امتد وانبسط على

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج-٤ ص ٦- ابن هشام-ص ٦٨١ جويش فونديشن آف اسلام تاليف توري ص ١٣٠ (٢) كتاب الاموال لابي عبيد ف ٥٠٦

الثلاث القارات،آسيا وافريقية واوربا واصبحت المدينة بغير صعوبة مركزا وعاصمة لامبراطورية واسعة . ولا تستغرب ذكر اوربا فقد دخلت الجنود الاسلامية فى الاندلس سنة ٢٧ للهجرة فى عهد سيدنا عثمان رضى الله عنه قبل العهد الاموى بكثير وقد اقامت هنالك واستولت على جزء من البلاد رغم انقطاع المدد عنها حتى جاء طارق واكمل الفتح الاندلسى وقد ذكر هذه البعثة الطبرى (١) وجبون فى تاريخ زوال روما (٢) وغنى عن البيان ان المدينة هى مركز الخلافة الى عهد عثمان رضى الله عنه .

وردت فى هذه الصحيفة كلمة « الدين » وهذه الكلمة تدل على الشريعة والحكومة فى وقت واحد ولا يمكن لاحد أن يفهم الدين الاسلامى والسياسة الاسلامية الا بملاحظة هذه النكتة المهمة .

بعد هذا التحليل الموجز والايضاح يلحق بهذه المقالة نص الوثيقة .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ هذا كتاب من محمد النبى رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش واهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢ ـ انهم امة واحدة من دون الناس .

٣ ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ ـ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ ـ وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٦ ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) تاريخه ـ ص ٢٨١٧ (٢) ج ـ ٥ ص ٥٥٥

٧ ـ وبنو جشم على ربعتهم يتعا قلو ن معاقلهم الا ولى وكل طا ئفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤ منين .

٨ ـ وبنو النجار على ربعتهم يتعا قلو ن معا قلهم الا ولى وكل طا ئفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين .

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عا نيها بالمعروف والقسط بين المؤ منين .

١٠ ـ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤ منين .

١١ ـ وبنو الاوس على ربعتهم يتعاقلون معا قلهم الاولى وكل طائفة تفدي عا نيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين .

١٢ (الف) ـ وان المؤ منين لا يتركون مفرحا ان يعطوه با لمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢ (ب) ـ وان لا يحالف مؤمن سولى مؤمن دونه .

١٣ ـ وان المؤمنين المتقين ايديهم عـلى كل من بغى منهم اوابتغى دسيعة ظلم او اثما اوعدوانا اوفسادا بين المؤمنين، وان ايديهم عليه جميعا ولوكان ولد احدهم .

١٤ ـ ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ولا ينصر كافرا علي مؤمن .

١٥ ـ وان ذمة الله واحدة يجير عليهم ادناهم وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

١٦ ـ وانه من تبعنا من يهود فان له النصر و الاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

١٧ ـ وان سلم المؤمنين واحدة لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الاعلى سواء وعدل بينهم .

١٨ ـ وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

وان

١٩ ـ وان المؤمنين يبىء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

٢٠ (الف) ـ وان المؤمنين المتقين على احسن هدى واقومه .

٢٠ (ب) ـ وانه لايجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ ـ وانه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به الا ان يرضى ولى المقتول بالعقل ، وان المؤمنين عليه كافة ولايحل لهم الا قيام عليه .

٢٢ ـ وانه لا يحل لمؤمن اقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا اويؤويه، وانه من نصره اوآواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣ ـ وانكم مهما اختلفتم فيه من شىء فان مرده الى الله والى محمد .

٢٤ ـ وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥ ـ وان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته .

٢٦ ـ وان ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٧ ـ وان ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٨ ـ وان ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٩ ـ وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٠ ـ وان ليهود بنى الاوس مثل ما ليهود بنى عوف .

٣١ ـ وان ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ الانفسه واهل بيته .

٣٢ ـ وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ ـ وان لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان البر دون الاثم .

٣٤ ـ وان موالى ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ ـ وان بطانة يهود كأنفسهم .

٣٦ (الف) ـ وانه لا يخرج منهم احد الا باذن محمد .

٣٦ (ب) ـ وانه لا ينحجز على ثار جرح ، وانه من فتك فبنفسه واهل بيته الا من ظلم وان الله على ابر هذا .

٣٧ (الف) ـ وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

٣٨ (ب) ـ وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

٣٧ (ج) ـ وانه لا يأثم امرء بحليفه وان النصر للظلوم .

٣٨ ـ وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩ ـ وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة .

٤٠ ـ وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١ ـ وانه لا تجار حرمة الا باذن اهلها .

٤٢ ـ وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث اواشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٤٣ ـ وانه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٤ ـ وان بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥ ـ (الف) واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين .

٤٥ (ب) ـ على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

٤٦ ـ وان يهود الاوس مواليهم وانفسهم على مثل مالأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من اهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الاثم . لا يكسب كاسب الاعلى نفسه وان الله على اصدق ما فى هذه الصحيفة وابره .

٤٧ ـ وانه لايحول هذا الكتاب دون ظالم او آثم وانه من خرج آمن

ومن

ومن قعد آمن بالمدينة الامن ظلم واثم . وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . (١)

---

(١) سند مآخذ المتن لهذه الوثيقة

سيرة ابن هشام ص ٣٤١ الى ٣٤٤ . سيرة ابن اسحاق الترجمة الفارسية التي نسختها الخطية في باريس ، ورق ١٠١ . كتاب الاموال لابي عبيد فصل ٥١٧ . البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢٢٤ الى ٢٢٦ . ابن سيد الناس ، في محله بعد ذكر احوال الهجرة . وقابل سنن ابي داود كتاب ١٩ باب ٢١ . مسند ابن حنبل ج ١ ص ٢٠٤ ، ج ٣ ص ٢٤٢ . تاريخ الطبرى ص ١٢٦٧ ، ١٣٥٩ . لسان العرب في كلمات برر ، دسع ، عقب ، عقل ، فرح ، وتغ . طبقات ابن سعد ج ١ ، القسم الثاني ص ١٧٢ . وانظر ايضا مما كتب الافرنج ـ

ولهاوزن ـ گمائندے اوردنونگ فون مدينة . (بالألمانية)

كائتانى ـ انالى ديل اسلام ، سنة ١ ، فصل ٤٣ . (بالطليانية)

فنسنك ـ محمد اين دے يودن تے مدينة ، ص ٧٨ وما بعد . (بالأولندزية)

بول ـ داس ليبن محمدس ، ص ٢١٠ الى ٢١٢ . (بالأسوجية والالمانية)

اشپرنگر ـ داس ليبن اونددى لير ے ديس محمد ، ج ٣ ، ص ٢٠ الى ٣٠ (بالألمانية)

ميولر ـ دير اسلام ان مورگن اوند آبند لاند ، ج ١ ، ص ١٥ الى ١٨ . (بالألمانية)

گريم ـ محمد ، ص ٧٥ الى ـ ٨١ . (بالالمانية)

مجلة اسلامك كلچر (حيدرآباد) ج ١١ ، ص ١٦٣ الى ١٧٢ ، مقالتى عن القضاء في بدء الاسلام . (بالانجليزية)

الضميمة الاولى

اختلاف الروايات

مادة (١)	ابن هشام	« محمد النبي »	ابو عبيد	«محمد النبي رسول الله»
»	»	« قريش ويثرب »	»	« قريش واهل يثرب »
»	»	«فالحق بهم»	»	« فحل معهم »
مادة (٢)	»	« من دون »	»	« دون »
مادة (٣)	»	«ربعتهم يتعاقلون معاقلهم »	»	«رباعتهم (وفى رواية ربعاتهم) يتعاقلون معاقلهم الاولى»
»	»	«بين المؤمنين»	»	« بين المؤمنين والمسلمين»
مادة (٤ الى ١١)	»	« ربعتهم ــ طائفة»	»	«رباعتهم ــ طائفة منهم»
مادة (٥)	»	« بنو الخزرج »	»	« بنو الخزرج بن عوف »
مادة (١٢)	»	« مفرحا (وفى رواية مفرجا) منهم ان يعطوه »	»	« مفرحا منهم أن يعينوه »
مادة (١٢ ــ الف)	»	كذا	»	المادة محذوفة كلها
مادة (١٣)	»	« المتقين على من »	»	« المتقين ايديهم على كل من »

« اثما أو عدوانا أو فسادا » كذا فى الترجمة الفارسية لسيرة ابن اسحاق . اما فى ابن هشام وابى عبيد فهو « اثم أو عدوان او فساد »

مادة

مادة				
مادة (١٣)	ابن هشام	«عليه جميعا»	ابو عبيد	« عليه جميعه »
مادة (١٤)	»	« ولا يقتل »	»	« لا يقتل »
مادة (١٥)	»	« وان المؤ منين »	»	« والمومنون »
مادة (١٦)	»	« يهو د فان له النصر »	»	« اليهود فان له المعروف »
مادة (١٧)	»	«واحدة لا »	»	« واحد ولا »
»		« غزت معنا يعقب بعضها »	»	« غزت يعقب بعضهم »
مادة (١٩)	»	كذا	»	المادة محذوفة
مادة (٢٠)	»	« احسن هدى»	»	احسن هذا
مادة (٢٠ ب)	»	« ولا نفسا ولا يحول دونه »	»	« ولا يعينها »
مادة (٢١)	»	« عن بينة فانه قود به »	»	« فانه قود »
»	»	« المقتول وان المؤ منين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه »	»	« المقتول بالعقل وان المؤ منين عليه كافة »
مادة (٢٢)	»	« ولا يؤويه وانه من نصره	»	« اويؤويه فمن نصره الى يوم القيامة لا »

		ـ يوم القيا مة ولا »		
مادة (٢٣)	»	« مهما اختلفتم ـ مرده الى الله والى محمد »	»	« ما اختلفتم ـ فان حكمه الى الله تبارك وتعالى والى الرسول صلى الله عليه وسلم »
مادة (٢٥)	»	« عوف امة مع ـ للسلمين دينهم ، واليهم وانفسهم »	»	« عوف مواليهم وأنفسهم امة من ـ للؤمنين د ينهم »
مادة (٢٨ و ٢٩)	»	كذا	»	المادة (٢٩) مقدمة و(٢٨) مؤخرة
مادة (٣٠)	»	« بنى الأوس »	»	« الأ وس »
مادة (٣١)	»	« وان ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف إلا »		« الا »
مادة (٣٢ الى ٣٥)	»	كذا	»	الما دات محذ وفة
مادة (٣٦)	»	« منهم أحد »	»	« أحد منهم »
مادة (٣٦ ب و ٣٧)	»	كذا	»	الما د ا ت محذوفة
مادة (٣٧ ب)	»	كذا	»	«وان بينهم النصر على من حا ر ب ا هل هذه الصحيفة وإن

مادة

				بينهم النصيحة »
مادة (٣٧ ج)	ابن هشام	كذا	أبو عبيد	« والنصر للظلوم »
مادة (٣٨)	»	كذا	»	المادة محذوفة
مادة (٣٩)	»	« يثرب حرام جوفها »	»	«المدينة جوفها حرم»
مادة (٤٠ و ٤١)	»	كذا	»	المادتان محذوفتان
مادة (٤٢)	»	« حدث او اشتجار ـ مرده محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »	»	«حدث ـ امره ـ محمد النبي»
مادة (٤٥)	»	كذا	»	« واذا دعوا اليهود الى صلح حايف لهم فانهم يصالحونه وان دعونا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الامن حارب الدين»
مادة (٤٥ ب)	»	كذا	»	«وعلى كل اناس حصتهم من النفقة »
مادة (٤٦)	»	كذا	»	« وان يهود الأوس وموا ليهم وأنفسهم مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة وإن بني الشطيبة بطن

				من جفنة وإن البرّ دون الاثم فلا يكسب» الى آخره
مادة (٤٧)	ابن هشام	«هذا الكتاب ـ أو آثم ـ آمن بالمدينة » الخ	ابو عبيد	« الكتاب ــ ولا آثم ــ آمن إلا من ظلم وأثم وإن أولاهم بهــذه الصحيفة البر المحسن »

الضميمة الثانية

غريب اللغات

مادة (٣) « ربعة » ربع البلد اى الحارة . ويشارك فى معناه المترادفات الانجليزية والفرنساوية والألمانية والهندية وغيرها (كوارتر ، كارتيے ، فيرتل ، چوك) والربعات جمع الربعة .

وفى رواية «رباعة» بكسر الراء، المعاقل والديات. وقيل الولاء والأمر. « وعلى رباعة قومه » اذا كان متقلدا لامورهم ووافدالهم ــ «والرباعة» بفتح الراء، الشأن والعادة اى عاداتهم من أحكام الديات والدماء .

« معاقل » هى الديات

« العانى » هو الأسير

مادة (١٢) « مفرح » هو المثقل من الدين الكثير ،الكثير العيال . وفى رواية « مفرج » بالجيم قال ابو عبيد هو« الذى لاديوان له ». او« الذى قتل بين قريتين لايدرى من قتله » . او« الذى لاشىء له وقد أثقله الدين » .

« العقل » الدية

مادة (١٣) « دسيعة ظلم » الدسيعة العطية اى الاستحصال بالجبر والظلم .

مادة

مادة (١٦) « الا سوة » المساواة .

مادة (١٨) « غا زية » الجيش الذى يخرج للغزو .

« يعقب بعضها بعضها » اى يقا تل جند بعد جند متنا وبا فالواحد
يغزو والآخر يستريح .

مادة (١٩) « يبىء بما نال دماءهم » ينتقمها ويأخذ ثأرها .

مادة (٢١) « اعتبط » قتل بريئا محرم الدم .

مادة (٢٥) « لا يوتغ » لا يهلك ـ

« امة مع المؤمنين » وفى روايـة ابى عبيد « امـة من المؤمنين » فأوله
المؤلف وقال « انما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم اياهم على عدوهم بالنفقة
التى شرطها عليهم. فاما الدين فليسوا منه فى شئ ألا تراه قد بين ذلك فقال لليهود
دينهم وللمؤمنين دينهم » .

مادة (٣٢) « بطن » اولاد .

مادة (٣٥) « بطانة » الذين خارج القرية والمدينة .

مادة (٣٦ ب) لا ينحجز » لايحول أحد بينه وبينه
« فتك » إغتال وقتل عن غفلة .

مادة (٣٧) « البر » هو الوفاء « والاثم » هو النقض .

مادة (٣٩) « جوف » هو الأرض السهلة والاودية المحدقة بالجبال .

مادة (٤٢) « الحدث » القتل. و«المحدث» القاتل وكل من أتى حدا من
الحدود.

بسم الله الرحمن الرحيم

صناعة الجراحة واعتناء المسلمين بها

للعالم الفاضل الطبيب السيد احمد الله الندوى رفيق دائرة المعارف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين . ايها السادة النبلاء !

ان جمعيتنا دائرة المعارف اعتنت بطبع كتاب «العمدة فى صناعة الجراحة» بمناسبة ذلك اختلج فى خاطرى ان القى نظرة على هذه الصناعة فى العصر الاسلامى السالف فاخترت عنوان مقالتى هذه « صناعة الجراحة واعتناء المسلمين بها ».

ان صناعة الجراحة التى بلغت ارقى مدارجها فى العصر الحاضر لم تبلغ ذلك الا بمقتضى الايام التى كثرت فيها وسائل المواصلات مثل القطارات والسيارات على الارض والطيارات فى الجو والاسلاك الكهربائية المنتشرة فى انحاء الارض وكثرت الحروب والملاحم مع اسلحتها الجديدة مثل الغازات وغيرها فى اقطار العالم كله واستعمال الميكانيكات فى صغير الامر وكبيره فبسبب هذه المخترعات ازدادت الصدمات والحوادث الجراحية فى اكناف المعمورة فاضطر جراحيو العصر الى تكثير الآلات الجراحية المتنوعة الصور والاشكال والى ايجادها لاغراض مختلفة والى تدوين علم جديد لهذه الصناعة وعمليات هامة ، ومع هذه النهضة الجديدة ورقيها الى الدرجة القصوى بالنسبة الى العصر الغابر لا يقال انها بلغت الى مقام لا نهاية بعده لان فوق كل ذى علم عليم .

اما صناعة الجراحة فى العصر الاسلامى فانها وان كانت اعيانها اندرست وعلومها انمحت وكتبها تسلطت عليها الاجانب او اتلفتها ايدى الحدثان ومباشروها غابوا عن الابصار واخلافهم من ذوى العلم اهملوها بتاتا وحولوها الى الجهلة الذين سموا بالجراح ولا معرفة لهم بمبادى هذه الصناعة فضلا عن العلم المحكم والعمل المتقن ولذلك انتهز الاجانب الفرصة وجعلوا يطعنون على هذه الصناعة فى العصر الاسلامى وجعلوها كالصفر فى تاريخ الجراحة حتى قال

صاحب

صاحب مقالة الجراحة فى دائرة المعارف البريطانية ما ترجمته .

« ومن الصعب ان يقال ان للعرب مزية فى العلاج غير أنهم حفظوا ماتركته القرون الغابرة على اكمل وجه، وخاصة فى فن الجراحة اعمالهم مختصرة اولا لأن مذهبهم يحظر تشريح الاجسام ، ثانيا من خصوصيات النسل العربى تحمل مايقع من المصائب وعدم الميل الى اسباب الراحة »

لعل صاحب هذه المقالة بالانكليزية لم يطلع على هذه الصناعة فى العصر الاسلامى اولم يكلف نفسه الكشف عن حقيقتها

اما مقالتى هذه فهى تحتوى على خمسة عناوين

الاول ـ كتب التشريح والجراحة وما يتعلق بها بالعربية

الثانى ـ الامراض التى عولجت بالحديد فى العصر الاسلامى

الثالث ـ الآلات الجراحية

الرابع ـ ذكر بعض العمليات الجراحية

الخامس ـ اسماء اشهر الجرائحيين

قبل ان اسوق الكلام فى الموضوع يلزمنى ان ابين حد الجراحة فاقول الجراحة صناعة ينظربها احوال بدن الانسان من جهة مايعرض له من انواع التفرق المؤلم كالبط والشق فى اعضاء البدن الانسانى وكفتح الخراجات بالحديد وغيره وكالشجاج وضرب السيف والرمى بالرصاص والقنابل وغير ذلك ، والجراحة لا تختص لقوم دون قوم وعصر دون عصر وكل قوم يعتنون بهذه الصناعة طبق علمهم بها .

اما المسلمون ففى مبتدإ امرهم كانوا يعرفون شيئا يسيرا من الصناعة الجراحية مثل الحجامة والفصد والكى، وما سوى ذلك لم يكن لهم المام تام بهذه الصناعة المعروفة فى زمنهم الا القلايلين منهم كرفيدة الانصارية الصحابية رضى الله عنها احدى الجرائحيات فى العرب وكانت تضرب لها خيمة فى المسجد النبوى باذن النبى صلى الله عليه وسلم وكانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة

من كانت به ضيعة من المسلمين وكانت تضع عندها فى الخيمة ما تحتاج اليها من ادوات الجراح وهى التى داوت سعد بن معاذ رئيس الاوس رضى الله عنه لما اصيب اكحله ونزف الدم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اجعلوه فى خيمة رفيدة التى فى المسجد حتى اعوده من قريب» وساعدها فى المداواة بنفسه الشريفة حتى كواه مرتين بالمشقص وهذه مزية سامية لهذه الصناعة بان ضرب معمل الجراحة فى موضع العبادة فى المسجد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام .

ولما فتح المسلمون الامصار والبلاد واختطلوا بالامم المغلوبة واستخدموا اهلها فى دولتهم خصوصا الاطباء والجرائحيين أخذوا فى نقل العلوم الطبية والكتب التشريحية والجراحية الى لغتهم وكانوا مأذونالهم فى ذلك من شريعتهم «انتم اعلم بامور دنياكم ـ الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو احق بها» .

كتب التشريح والجراحة وما يتعلق بها

اما كتب التشريح والجراحة ومنافع الاعضاء التى نقلت الى العربية او صنفت بها فهى هذه

١ ـ كتاب التشريح خمس عشرة مقالة

٢ ـ كتاب اختلاف التشريح ـ مقالتان

٣ ـ كتاب تشريح الحيوان الميت ـ مقالة

٤ ـ كتاب تشريح الحيوان الحى ـ مقالتان

٥ ـ كتاب فى علم بقراط بالتشريح ـ ثلاث مقالات

٦ ـ كتاب علم ارسطوطاليس فى التشريح ـ ثلاث مقالات

٧ ـ كتاب تشريح الرحم مقالة

هذه الكتب كلها لجالينوس نقلها حبيش الى العربى

٨ ـ كتاب منافع الاعضاء ـ سبع عشرة مقالة لجالينوس نقل حبيش واصلاح حنين لاسقاطه .

٩ ـ كتاب الاورام مقالة لجالينوس ترجمه ابراهيم بن الصلت

كتاب

١٠ ـ كتاب المولود لسبعة اشهر ـ مقالة لجالينوس ترجمه حنين

١١ ـ كتاب الفصد لجالينوس ـ ترجمه اصطفن وعيسى .

١٢ ـ كتاب تشريح الاحشاء ـ مقالة لاورياسوس .

١٣ ـ كتاب فى الاورام الصلبة لروخس .

١٤ ـ كتاب الجراحات لروفس .

١٥ ـ كتاب الخلع لروفس .

١٦ ـ كتاب السرطان ـ مقالة لفيلغريوس .

١٧ ـ كتاب عضة الكلب ـ مقالة له .

١٨ ـ كتاب فى القوبا له .

١٩ ـ كتاب فيما يعرض للثة والاسنان له .

٢٠ ـ كتاب الكى مقالة لافلاطن .

٢١ ـ كتاب الكسر والخلع لبقراط الاول .

فلما ترجمت هذه الكتب من اللغات السريانية واليويانية الى العربية اطلع عليها المسلمون والامم الاخرى التى تعيش فى بلادهم المفتوحة من المسيحيين واليهود والصابئين وتداولوها فيما بينهم ومهروا فيها ـ أخذوا يصنفون الكتب فى الجراحة وما يتعلق بها بالعربية والحكومات الاسلامية كانت توازرهم و تنفق عليهم القناطير المقنطرة من الذهب وهذه اسماء الكتب التى صنفت فى العصر الاسلامى .

١ ـ كتاب امراض العين بالحديد ـ مقالة لحنين

٢ ـ كتاب القرح وتولده ـ مقالة له

٣ ـ كتاب الفصد والحجامة ليوحنا بن ماسويه

٤ ـ كتاب الفصد تمانية عشر با لقسطا

٥ ـ كتاب المنافع التى تستفاد من اعضاء الحيوان لعيسى بن على

٦ ـ كتاب الحاوى لابى بكر محمد بن زكريا الرازى وجعل لقسم لعاشر

من هذا الكتاب فى التشريح ومنافع الاعضاء، والقسم الثالث منه فى الجبر والجراحات .

٧ ـ كتاب الجدرى والحصبة له

٨ ـ كتاب هيئة العين له

٩ ـ كتاب هيئة القلب له

١٠ ـ كتاب هيئة الصماخ له

١١ ـ كتاب المنصورى له وجعل بابا منه فى التشريح

١٢ ـ كتاب فى العلة التى يحدث الورم من الزمام فى رؤس بعض الناس له .

١٣ ـ رسالة فيما لا يلصق مما يقطع من البدن وان صغر وما يلصق من الجراحات وان كبر له .

١٤ ـ كتاب كامل الصناعة لعلى بن عباس الفارسى ذكر فيه تشريح الجسد الانسانى ومايتعلق بالجراحة .

١٥ ـ كتاب القانون للشيخ الرئيس ذكر فيه التشريح الانسانى ومنافع الاعضاء وما يتعلق بالجراحة ما عدا الامراض العامة واسبابها وعلاماتها وعلاجها .

١٦ ـ كتاب الكفاية فى التشريح لموفق الدين البغدادى .

١٧ ـ كتاب فى خلق الانسان وهيئته ومنفعتها لشرف الدين بن الرحبى .

١٨ ـ التصريف لمن عجز عن التأليف لابى القاسم الزهراوى الاندلسى وجعل قسما كبيرا منه فى العمليات الجراحية ورسم فيه صور الآلات الجراحية التى كانت تستعمل فى صناعة الجراحة فى العصر الاسلامى وهى نحو مائتين وثمانين آلة .

١٩ ـ رسالة فى تشريح العين لنجيب الدين السمرقندى

والف ابن زهر الاندلسى رسائل معتبرة فى الجراحة .

وكتب

وكتب ابن رشد الاندلسى تلميذ ابن زهر ايضا فى الجراحة .

والف ابن القف المسيحى تلميذ صاحب عيون الانباء فى طبقات الاطباء كتاب العمدة فى صناعة الجراحة وطبع هذا الكتاب بدائرة المعارف العثمانية وذكر القرشي والجيلانى وصاحب الاقصرائى وآخرون فى مؤلفاتهم التشريح الانسانى وما يتعلق بالجراحة .

اما الامراض التى كان الجرائحيون فى العصر الاسلامى يعالجونها بالآلات الجراحية فهى هذه .

١ ـ اجتماع الماء فى الراس
٢ ـ سيلان الدموع
٣ ـ ما سقط فى الاذن
٤ ـ السد فى الاذن
٥ ـ الثآليل
٦ ـ البرد فى الجفن
٧ ـ الشرناق
٨ ـ التشمير
٩ ـ الشتره
١٠ ـ التصاق الجفن بالعين
١١ ـ الظفرة
١٢ ـ الوردينج
١٣ ـ السبل
١٤ ـ الناسور
١٥ ـ نتوء العين
١٦ ـ خرق العنبية ونتوها
١٧ ـ الكمنة

١٨ ـ قدح الماء فى العين

١٩ ـ بواسير الانف

٢٠ ـ الاورام الانفية

٢١ ـ خياطة الاذن والانف والشفة

٢٢ ـ العقد فى الشفتين

٢٣ ـ اللحم الزائد فى اللثة

٢٤ ـ جرد الاسنان بالحديد

٢٥ ـ قلع الاسنان واقامة المصنوعة مقامها

٢٦ ـ نشر الاضراس

٢٧ ـ تشبيك الاضراس المتحركة بالذهب والفضة

٢٨ ـ قطع الرباط الذى تحت اللسان

٢٩ ـ اخراج الضفدع

٣٠ ـ قطع اللوزتين وشق اورام الحلق

٣١ ـ قطع اللهاة

٣٢ ـ اخراج الشوك وغيره

٣٣ ـ الشق على الاورام التى فى جلدة الرؤس

٣٤ ـ الشق على الخنازير التى فى العنق

٣٥ ـ شق الحنجرة وترك الجروح مفتوحة زمانا

٣٦ ـ شق قيلة الحلقوم

٣٧ ـ شق السلع

٣٨ ـ قطع الاثداء السرطانية وغيرها

٣٩ ـ بط الاورام الابطية

٤٠ ـ شق الورم الشريانى اوالوريدى

٤١ ـ نتوء العصب عندالورم الجاسى

نتوء

٦٦ ـ شقاق المقعدة

٦٧ ـ المسامير

٦٨ ـ النملة

٦٩ ـ الداحس

٧٠ ـ الظفرة المرضوضة

٧١ ـ قطع الاصبع الرائدة

٧٢ ـ التحام الاصابع

٧٣ ـ قطع الدوالى

٧٤ ـ علاج الجراحات

٧٥ ـ خياطة الجراحات

٧٦ ـ فصد العروق

٧٧ ـ الحجامة

٧٨ ـ اخراج العظام المكسورة

٧٩ ـ جرد العظام

٨٠ ـ قطع العظام والاعضاء

٨١ ـ البط على الاورام الظاهرة والباطنة

٨٢ ـ الكى بالمكواة

٨٣ ـ كشط الجلد الانسانى وترقيعه بالجلد الحيوانى

اما آلات الطب والجراحة والتوليد التى جاءت فى كتاب التصريف للزهراوى فهى هذه نقلا عن مقالة الدكتور احمد عيسى بك

١ ـ انبوبة ـ لاخراج الدود المتولد فى الاذن

٢ ـ انبوب ـ آلة لبزل الماء فى الحبن

٣ ـ بريد ـ يثقب به نفس الملتحمة فقط

٤ ـ بريد ـ كالمبسار لتفتيش الاورام والخراجات والنواسير والمخابى

بيرم

٥ – بيرم – لرد العظام المكسورة الناتئة على الجلد و تسويتها

٦ – جبيرة – لشد العضو المكسور وجبره

٧ – جفت – لاستخراج العظام المكسورة من الفك

٨ – جفت لطيف – لاخراج ماسقط فى الاذن من الاشياء الغريبة

٩ – خشبة – تربط على العضد والساعد وطرف اليد على عارضة سلم بالعرض

١٠ – خشبة الرأس – لجرد العظم الفاسد

١١ – درج المكاحل – كالصندوق ترص فيه اوعية الكحل

١٢ – دست المباضع – كالعلبة تصف فيه المباضع

١٣ – رمانة – هى مبخرة ليصعد الدخان منها الى اللهاة

١٤ – زراقة القولنج – وهى المحقنة

١٥ – سكين – تقطع بها الاوعية دون ان يقطع الجلد

١٦ – صنارة بانواعها – لجذب الجنين وتشمير الجلد وقلع بقايا السن وجرد الاسنان ولقط السبل

١٧ – صناصير – هى انواع كثيرة

١٨ – عتلة – آلة تدخل فى السنخ اذابقى شىء من جذور فرس مكسور فتعلق

١٩ – عود – لجبر عظم العضد

٢٠ – فاس – كالمبضع لفصد بعض الاوردة

٢١ – قاثاطير – لاخراج البول من المثانة

٢٢ – قصبتان – تستعمل فى تشمير العين

٢٣ – كلاب – لاخراج العلق وغيره مما يتشبث فى الحلق

٢٤ – كلاليب – هى آلات تخلع بها الاضراس و الاسنان المتحركة

٢٥ – لولب – هو آلة يفتح بها فم الرحم

٢٦ – مبخرة – للتبخير بها عند احتباس الطمث و المشيمة

٢٧ – مبرد – يبرد به الضرس النابت على غيره

٢٨ - مبضع بانواعه المختلفة ـ لشق الجلد فوق الشرايين وشق الاورام والتجمعات الصديدية وقطع الظفرة من العين وفصد العروق وغير ذلك من العمليات

٢٩ ـ مجدع ـ للشق والبط

٣٠ ـ مجرد ـ لكشط العظام

٣١ ـ مجرفة الاذن ـ لرفع الاشياء الغريبة من الاذن

٣٢ ـ محجم ـ لقطع النزف

٣٣ ـ محقن كبير ـ يحقن به الدواء

٣٤ ـ محقن لطيف ـ تحقن به المثانة

٣٥ ـ محك الجرب ـ لحك جرب الاجفان

٣٦ ـ مخالب التشمير ـ كالصنانير تستعمل فى تشمير الاجفان

٣٧ ـ مخرط المناخير ـ لقطع اللحم الزائد النابت فى الانف

٣٨ ـ مدس ـ لجس واستقصاء الاورام

٣٩ ـ مدفع ـ يدفع به الجنين

٤٠ ـ مدفع مجوف ـ لاستخراج السهام

٤١ ـ مزراقة ـ لتقطير الماء فى جوف المثانة

٤٢ ـ مسبار ـ كابرة الاسكاف يدخل فيها خيط مفتول فيدخل ما لخيط فى الناصور

٤٣ ـ مسعط ـ لتقطير الادهان فى الانف

٤٤ ـ مسل ـ ليشق بها الدالية

٤٥ ـ مشداخ ـ آلة تشدخ بها رأس الجنين حتى يسهل اخراجها من الرحم

٤٦ ـ مشرط ـ آلة تشق وتسلخ بها السلع والاورام

٤٧ ـ مشعب ـ آلة لثقب الحصاة وتسليك البول

٤٨ ـ مقدح ـ آلة لقدح الماء النازل فى العين

٤٩ – مقد – هو نوع من انواع المباضع ذو حدين

٥٠ – مقص – لقطع ما يفضل من الجلد فى عمليات الجفن

٥١ – مقطع – تقطع به العظام وهو انواع عديدة

٥٢ – مكبس اللسان – يكبس بها اللسان لرؤية الحلق واورامه

٥٣ – مكمدة الحشا – آلة تستعمل للضماد

٥٤ – مكواة – للكى وهى انواع كثيرة

٥٥ – ملزم البواسير – تلزم بها البواسير لقطعها

٥٦ – منشار – وهو انواع كثيرة

٥٧ – مشقب – يستعمل فى ناصور الانف

ما عدا هذه كانت آلات كثيرة لعمليات امراض العين وغيرها تركت ذكرها خوفا من الاطالة وبعض الآلات كانت تصنع من الذهب كالمكاوى وبعضها من الفضة كالقاثاطير وبعضها من النحاس كالمبخرة واكثرها من الحديد اوالفولاذ وكان كثير من الآلات الجراحية تجمع فى البيمارستانات وتستعمل وقت الحاجة مثلا قال ابن أبى اصيبعة .

« امر نصير الدولة بن مروان الطبيب زاهد العلماء ببناء البيمارستان بميافارقين وانفق عليه اموالا كثيرة ووقف له املاكا تقوم بكفايته وجعل فيه من الآلات وجميع مايحتاج اليه شيئا كثيرا جدا » .

اما العمليات الجراحية فى العصر الاسلامى فأذكر نبذة منها لكى تعرف مهارة الجراحيين فى هذه الصناعة فى ذلك العصر .

١ – عملية نشر العظم وقطع الساق

خرجت الآكلة برجل عروة بن الزبير رضى الله عنهما فاجتمع اليه الجراحيون واجمع رأيهم على إن لم ينشروها قتلته فقال شأنكم قالوا انسقيك شيئا لئلا تحس بما نصنع بك؟ قال لا! شأنكم بها فنشروا ساقه بالمنشار فما حرك عضوا عن عضو وصبر فلما رأى القدم بايديهم دعا بها فقبلها فى يده ثم قال أما والذى حملنى

عليك انه ليعلم انى ما مشيت بك الى حرام قط اوقال معصية . (صفة الصفوة)

٢ ـ عملية اخراج السلعة الكبيرة

خرجت سلعة فى اسفل عين احدى شهيرات النساء فى القرن الاول حتى كبرت ثم اخذت وجهها وعظم ما بها وكان دراقيس الجرائحى منقطعا اليها وفى خدمتها فقالت له ألا ترى ما وقعت فيه؟ فقال الجرائحى أتصبرين على مايمسك من الالم حتى اعالجك ؟ قالت نعم ! فاضجعها وشق جلد وجهها اجمع وسلخ اللحم من تحته حتى ظهرت العروق وكان منها شيء تحت الحدقة فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية ثم سل عروق السلعة من تحتها واخرجها ورد العين الى موضعها وهى مضجعة لا تتحرك ولا تئن حتى فرغ وبرئت منه وبقى اثر تلك الحزازة فى مؤخر عينها فكان احسن شيء فى وجهها من كل حلى وزينة ولم يؤثر ذلك فى نظرها ولا فى عينها (الاغانى) .

٣ ـ عملية الترقيع

ابتلى رجل بداء الثعلب وجاء الى الجرائحى علاء الدين الايرانى وكانت له مهارة تامة فى عمل الترقيع فكشط جلدة رأسه ورقعه بجلد كلب وخاطه؛ وبعد ايام لصق هذا الجلد برأسه وصلح ونبت الشعر عليه ، وعلى هذا الاساس جرت عملية الترقيع فى بلاد اوربا .

٤ ـ عملية الانف الصناعى والاسنان الصناعية

كانت عملية الانف الصناعى شائعة فى جاهلية العرب وفى مبتدأ الاسلام فضلا عما بعده وهو عصر النهضة والرقى فى سائر العلوم والصناعات .

قال ابن سعد فى طبقاته ان عرفجة بن اسعد رضى الله عنه اصيب انفه يوم الكلاب فى الجاهلية فاتخذ انفا من ورق فانتن عليه فذكره للنبى صلى الله عليه وسلم فأمره ان يتخذ انفا من ذهب .

وفى لسان الميزان ان عبد الله بن عبد الله بن ابى اصيبت ثنيته يوم احد فامره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتخذ ثنيته من ذهب .

من

وكذلك الاسنان تصنع من عظم وعاج ، قال ابن القف فى كتابه العمدة فى صناعة الجراحة « وقد تتخذ سن من عظم اومن عاج وتركز عوض سن قد سقطت وتشد بالشريط » .

وذكر ايضا بعض طرق العلاج الجراحى الذى يظهر منه ان ذاك كان شائعا وذائعا فى العصر الاسلامى وليس هذا من نتائج عمليات هذا العصر مثلا شق قصبة الرئة لاستنشاق النسيم البارد اذاتعذر الاستنشاق من الخياشيم وعدم خياطة القصبة المذكورة اصلا بل هى تندمل بنفسها بعد برهة من الزمان كما قال فى علاج الخوانيق بشق الحنجرة « اذا حصل ورم فى الحلق اوفى المرى وتعذر ادخال الهواء البارد الى جهة القلب وخفت على العليل الهلاك ومع ذلك لم تكن فى الرقبة آفة فشق حينئذ قصبة الرية وكيفية عمله ذلك هو ان تمد الحلق بصنارة ثم تشق حتى تظهر العروق والشرائين التى هناك ثم بعدهذا شق الغشائين والغضاريف ثم اترك ذلك الى حين تصلح العلة ثم تجمع شفتى الجلد وتخيط بخيط وتداوى بما يلحم ذلك ولا تتعرض لخياطة الغضروف اصلا . »

وذكر فى علاج البواسير يلزم على الجرائحى ان يترك فيها واحدة اوثنتين والا تحدث علة اخرى اردأ منها كما قال « اذا عالجت البواسير بما ذكرنا فاترك فيها واحدة اوثنتين فانه يحدث من قطعها كلها احد أمرين اما استسقاء اوسل وذلك لأن مادة البواسير مادة رديئة جدا فاذا احتبست رجعت القهقرى الى الكبدفآذتها وغمرت حرارتها واضعفت قوتها وكل ذلك سبب للاستسقاء لاسيما للحمى فان قويت الكبد على دفع هذه المادة مالت الى اقبل المواضع لها وذلك هى الرئة فانها لدوام حركتها وسخافة جرمها قابلة لذلك انتهى كلامه .

اما الجرائحيون فنبغ فى العصر الاسلامى من المسلمين عدد كبير ومن الامم الاخرى فى بلادهم فعددهم ايضا لايحصى ، وكثير منهم كانوا راغبين فى التخصص بفن واحد من فنون الطب فمن كان متخصصا بطب العين يقال له كحال ومن كان متخصصا بتجبير الاعضاء المكسورة يقال له المجبر ومن كان

متخصصا بصناعة الجراحة يقال له الجرائحي ومن يعاني الامراض العامة يقال له الطبيب والطبائعي ، وكل من هذه الطبقات له درس و تعليم علما وعملا وكانوا يوظفون في البيمارستانات للحكومات الاسلامية كما قال صاحب عيون الانباء في طبقات الاطباء « لما عمر عضد الدولة بن بويه البيمارستان الجديد على طرف الجسر من الجانب الغربي من بغداد كانت الاطباء الذين جمعهم فيه من كل موضع وامر الراتب منه اربعة وعشرون طبيبا من الطبائعيين والكحالين والجرائحيين والمجبرين .

ووصف البستاني في كتابه المعروف بدائرة المعارف عدة من الجرائحيين ما نصه « وقد نبغ من العرب جملة اطباء عظام اولهم ابوبكر الرازي وكان طبيبا لبيمارستان بغداد ووصف ريح العظام واستسقاء العمود المعروف في اللاتينية بسبينا بيفداء وكان يكوي الجراح الناشئة عن عض الحيوانات الكلبية وضاد استعمال السكين في السرطان الا اذا كان منحصرا وكان من الممكن استيصال الخراجة كلها وذكر لعلاج الفتق طرقا واضحة كافية ثم ظهر بعده علي بن عباس الفارسي فالف كتابه المشهور بكامل الصناعة في الطب واشتغل بالجراحة وحاز الفخر الجليل بكونه جمع مشاهداته ومعايناته في البيمارستانات وهذا دليل كاف على قدم فن الكلينيك اي الطب السريري او تعليم الامراض في المرضى وهم على اسرتهم ، وابن سينا المقلب بالرئيس اخترع القاثاطير القابل اللي ونبغ بعده ابو القاسم الزهراوي في بلاد الاندلس والف في العمليات الجراحية المهمة واشتغل بفن الولادة واخترع البرونج وهو آلة تستعمل في امراض البلعوم والمري واخترع آلة اخرى لشفاء الناصور الدمعي وكان ينجح في ضم جراح الامعاء بالخياطة ، وممن اشتهر ايضا ابن زهر وهو جراح عربي اندلسي » انتهى كلامه اقول وما عدا هولاء الجرائحيين الذين ساق البستاني ذكرهم كان ابن حمدان الجرائحي كان له يد طولى في صناعة الجراحة وكان موظفا في البيمارستان الكبير الذي انشأه نورالدين بن زنگی .

وسديد

وسديد الدين بن رقيقة كانت له معرفة تامة بالجراحة وباعمال الحديد فى مداواة امراض العين وقدح الماء النازل فى العين وانجب قدحه وابصروا وكان المقدح الذى يعانيه مجوفا وله عطفة ليتمكن فى وقت القدح من امتصاص الماء ويكون العلاج به ابلغ وكان يواظب على معالجة المرضى بالبيمارستان الكبير النورى بدمشق .

وعمار بن على الموصلى كان له دربة باعمال الحديد .

ونفيس الدين بن الزبير كان متميزا فى صناعة الطب واعمالها ومتقنا فى طب العين وعلم الجراح .

وصاعد بن بشر كان ماهرا فى صناعة الجراحة وله حكاية مشهورة مع ابن اخت الوزير على بن بلبل ببغداد لحقته سكتة دموية وجزم جميع الاطباء بموته ووقع الياس من حياته وتقدم الوزير فى تجهيزه واجتمع الخلق فى العزاء والنساء فى اللطم والنياح فبرئ المريض لما ارسل صاعد بن بشر مبضعا ولم يزل يخرج الدم حتى تمم ستمائة درهم واكثر وصح جسم المريض وركب فى الرابع الى الجامع ومنه الى ديوان الخليفة .

وعمر بن عبد الرحمن ابو الحكم الكرمانى القرطبى احد الراسخين فى علم العدد والهندسة وله عناية بالطب وتجارب فاضلة فيه ونفوذ مشهور فى الكى والقطع والشق والبط وغير ذلك من اعمال الصناعة الطبية .

وابو الحسين بن نفاخ الجرائحى مشهور فى علم الجراحة اختاره عضد الدولة للمقام بالبيمارستان ببغداد عند اعمره وجعله رفيقا لابى الحسن الجرائحى وكل واحد منهما موصوف بالحذق فى الصناعة .

وابو الخير الجرائحى خبير قيم به مشهور الصناعة فيه اختاره عضد الدولة للبيمارستان ببغداد .

وغالب طبيب المعتضد كانت له معرفة بصناعة الجراحة وهو الذى عالج الموفق بن المتوكل من سهم كان اصابه فى ثندوته وبرأ .

وعلاء الدين الايرانى كانت له معرفة تامة بالجراحة ومهارة فى عمل الترقيع .
ومحمد بن فتح طملون برع فى الطب براعة علابها من كان فى زمانه وكان له علم
بالجراح ويصنع مراهم عجيبة تطلى بها القروح فتجف من ليلتها .
وابو الخير النصرانى هذا طبيب جرائحى عالم بصناعته مشهور من اهل بغداد .
وابن وصيف الصابى كان طبيبا ببغداد فى حدود سنة خمس وثلثمائة وكان خبيرا
بطب العين قيما به يقدح من الماء النازل فى العيون لجماعة من الناس فى يوم
واحد ولم يكن احد فى زمانه اعظم منه اخذ الناس عنه ذلك ورحل اليه من
الاقطار فممن رحل اليه من الاندلس احمد بن يونس الحرانى الاندلسى واخوه .
والحقير النافع هذا جرائحى مصرى يهودى كان فى زمن الحاكم يرتزق بصناعة
مداواة الجراح فى غاية الخمول واتفق ان عرض برجل الحاكم عقر زمن
ولم يبرأ فأحضر اله هذا اليهودى فلما رآه طرح عليه دواء يابسا فنشفه وبرأ
فى ثلاثة ايام فاطلق له الف دينار وخلع عليه وجعله من اطباء الخاص .
وابو البركات المعروف باوحد الزمان وهو الذى لما رأى رجلا به داحس الا ان
الورم كان ناقصا وكان يسيل منه صديد فبادر الى سلامية اصبعه فقطعها وتفشى
هذا المرض فى تلك السنة وغفل جماعة من الاطباء عن القطع فتادى امر بعضهم
الى هلاك اليد وبعضهم الى هلاك انفسهم ــ وهذه الصناعة ما كانت منحصرة
فى الرجال بل كثير من النساء يتعلمن ويتمهرن فى هذه الصناعة ومنهن زينب
طبيبة بنى اود كانت عارفة بالاعمال الطبية خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين
والجراحات مشهورة بين العرب بذلك والسلام .

اخبار

المصادر

١ ـ اخبار الحكماء للقفطى
٢ ـ عيون الانباء لابن ابى اصيبعة
٣ ـ صفة الصفوة لابن الجوزى
٤ ـ الاصابة لابن حجر
٥ ـ محاضرة لمسيح الملك الطبيب المرحوم اجمل خان الدهلوى
٦ ـ الاغانى
٧ ـ التصريف لابن القاسم الزهراوى
٨ ـ فهرست لابن النديم
٩ ـ دائرة المعارف للبستانى
١٠ ـ آلات الطب والجراحة للدكتور احمد عيسى بك
١١ ـ العمدة لابن القف
١٢ ـ دائرة المعارف البريطانية بالانجليزية

مقالة الاستاذ الفاضل الدكتور عبدالحق
رئيس الشعبة العربية فى الجامعة العثمانية

تأسيس المجمع العلمى العربى بحيدر آباد الدكن

سادتى ! احييكم بتحية الاسلام ، وارحب بكم فى هذه الجامعة ـ الجامعة العثمانية التى تباهى الجامعات الاخرى بانتسابها الى صاحب السمو الاعلى سلطان الاقطار الدكنية ، والتى طارصيتها فى انحاء العالم ، لانها أسست على مبدأ قيم وفكرسام ـ الاوهو تدريس اولاد الامة كل علم وفن فى اللغة التى تلجلجوا بها اطفالا ، وافصحوا فيها حينما ترعرعوا اشكالاوامثالا ، وحق لها ان تتباهى على اترابها فان سائر الجامعات فى الهند تعلم اولادها فى لغة نشأت وارتقت على ضفاف التيمس ، ويالها من لغة قد ذاعت وانتشرت فى ادانى الهند واقاصيها ، بل سارت سيرا حثيثا الى بلاد العالم كلها .

لم تأل الجامعة العثمانية جهدا فى تعليم الالسنة القديمة وعلومها ترون فيها طلبة العلوم القديمة ولاسيما اللغة العربية صادرين منها بعد ما شفوا غلتهم وشربوا من منا هلها عللابعد نهل وحيدرآباد قد امتازت فى الهند بعلماء اللغة العربية وادبائها . وكفاك شهادة على هذا ان كثيرا من الشرقيين والمستشرقين الذين زاروا بلادنا شهدوا وابان حيدرآباد تفوق سائر بلاد الهند فى المعرفة باللغة العربية وخدمة الادب العربى . وانما هذه نتيجة مساعى الادباء الذين مهروا فى اللغة العربية ووطدوا اركانها وارسخوا بنيانها فلاخوف عليها اذ الوهبت عليها النكباء اونابتها الدهياء ولاغرو اذا رحبتكم ، وانتم أساطين اللغة ودعائمها فى عاصمة الدكن الآهلة بالادباء .

الحاجة

الحاجة الى تأسيس المجمع العلمى العربى فى الهند

سادتى ! قد بلغ السيل الزبى واصبحت الامم الاسلامية فى حالة يرثى لها فذلت بعد ما كانت عزيزة منيعة الجوانب، كانت مستمسكة بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها فخضعت لها الاكاسرة والجبابرة وعمت حضارتها جميع اصقاع العالم فانتقلت الشعوب من البربرية والهمجية الى المدنية العربية الاسلامية وصبغت بصبغتها ونطقت بلغتها وافصحت بعد ما كانت عجماء . ولكن الآن نترا المسلمون ايديهم من هذه العروة فوقعوا فى قعر المذلة والدمار واصبحوا اضحوكة للامم الاوربية التى تنظر اليهم شزرا بعد ما كانت عظمتهم تملأ قلوبها رعبا (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) .

سادتى ! قد تخيمت المدنية الغربية فى كثير من البلاد الاسلامية فاستأصلت عروق الحضارة الاسلامية المتأصلة فيها وزرعت بذور الالحاد والكفر والجحود واصبح عدد غير يسير من المسلمين يغرتربهنا قبها ويتفيهق فى ذكر مثالب التمدن الاسلامى ومظاهره . فيا لها من ضربة قضت على حياة الامم الاسلامية وزعزعت عقيدتها فى قوتها ومناعتها . وهاهى الامة التركية تراها خاضعة لسيطرة عميدها تئن ثم تنصت لما يقوله وتمتثل اوامره فارتدت لباس اوربا وتركت الخط العربى وآثرت الحروف اللاطينية عوضا عن الحروف العربية . وقد تعدت هذه الفكرة فكرة تغيير الحروف الهجائية من العربية الى اللاطينية ، ثغور تركيا وانتشرت فى كثير من البقاع الاسلامية مثل فارس وغيرها ونحن نجد دعاة فى الهند نفسها يدعون الناس الى اختيار الخط اللاطينى للغة الاردوية احتذاء بتركيا الحديثة من غير أن يتفكروا فى نقائصه وعيوبه ولكن هذه الفكرة الملعونة لم تتعد بعد الى البلاد التى يتكلم سكانها باللغة العربية وانا دتيقن بان حماة اللغة العربية سيحامون عن حوضها فلن يجترئ احد على ان يصيبها بسوء .

سادتى ! اللغة العربية هى لغة دين تسعين مليونا من مسلمى الهند وشريعتهم فلا عجب اذا شاعت وذاعت هذه اللغة الكريمة بينهم وهم مشغوفون بها كما انهم متمسكون بدينهم . ترى الوفا من علماء الهند وادبائها قد خدموا هذه اللغة ويخدمونها . ألفوا كتبا بها فى مواضيع شتى وفنون عديدة يشهد بفضلها كل من له المام بهذه اللغة الشريفة . فيجب علينا اذا ان لا نقصر فى منعها عن يد الجانى ونبذل جهدنا فى ارتقائها ونجاحها .

ولن يتيسر لنا هذا الا باقامة مجمع علمى عربى يفرغ اعضاؤه لاعلاء كلمتها واذاعتها بين الناس .

سادتى ! يقول العلامة الاديب الشهير محمد فريد وجدى فى كتابه دائرة المعارف للقرن العشرين وهو يشرح كلمة اكادميا اى المجمع العلمى .

« ولقد كانت لغتنا العربية الكريمة فى حاجة كبيرة الى مثل هذه الاقاذيميا الفرنسية لا سيما وقد طرأ على اللغة كثير من الالفاظ الدخيلة ، ونشأت اصطلاحات علمية كثيرة تحتاج الى الفاظ عربية تناسبها لتتوحد طرق التعبير ويخرج المعربون والناقلون من الحيرة التى قدتؤديهم الى الاستبداد بآرائهم فى وضع الالفاظ ونحت الكلمات . لقدقامت فى مصر جمعيات من هذا القبيل ولكنها لم تلبث ان انحلت لعدم استنادها الى ركن ثابت من السلطة الرسمية . فحبذا لو عنيت الحكومة باقامة مثل الاقاذيميا الفرنسية فى مصر تسد للامة حاجة من امس حاجاتها بحياتها الادبية . ولتنقطع السنة القائلين بعدم كفاية اللغة العربية لنقل العلوم العصرية » .

هذا ماقاله العلامة فريد وجدى وفيه كفاية للبيب . وقد اسست مجامع عديدة فى البلاد العربية على منوال الاقاذيميا الفرنسية وهى تجد وتفرغ جهدها فى خدمة اللسان العربى المبين . ولكن هذا لا يعوقنا عن اقامة جمعية للغرض نفسه فى بلاد يتجاوز عدد المشغوفين بها تسعين مليونا من النفوس وعلى هذا فان جمعية كهذه تستطيع ان تنهض باعباء نشر النسخ الخطية التى تعد

بالمئات

بالمئات فى مكاتب الشرق و الغرب ، بعد اصلاحها و تهذيبها . وقد سمعتم امس ماقاله صديقنا الاستاذ عبدالعزيز ميمن عمار آه فى مكاتب البلاد الاسلامية من النسخ التى لم تطبع بعد فحسب .

سادتى ! لا اريد فى هذه العجالة ان استنزف مناقب المجمع العربى فانها تكاد تظهر لعين الرائى ولكن غرضى الوحيد هو ان الفت انظاركم واوجه افكاركم الى فكر ذى بال يجب على كل واحد منا ان يجعله نصب عينيه . وهو تأسيس المجمع العلمى العربى بحيدرآباد الدكن فان هذه العاصمة جديرة من كل وجهة ، علمية كانت اوادبية ان تكون مركز مجمع علمى كهذا ومنتزها علميا ادبيا مثل منتزه اكاذيموس يختلف اليه العلماء و الادباء لتنشيط أفكارهم وانعاش الآداب التى قد امحت وماتت واندرست آثارها . ورجائى من الضيوف الكرام ان يلبوا ندائى وان ينقلوا هذه الفكرة من الخيال الى حيز العمل . فان هذا المؤتمر العلمى ولوكان صغيرا ينبئنا ان سيكون له شأن فى المستقبل الآتى كما قال ابو تمام .

واذا رأيت عن الهلال نموه ايقنت ان سيكون بدرا كاملا

ندعو الله ان يوفقنا جميعا الى ما هو خير لنا آمين .

مقالة الدكتور الفاضل حسين الهمدانى استاذ
اللغة العربية بكلية الفستن (بمبى)

كتاب الرياض للشيخ احمد الكرمانى

ايها السادة الكرام والعلماء الافاضل

لايخفى على حضراتكم بأن فى السنين الأخيرة تداهتم بعض علماء المستشرقين مثل الاستاذ الانجليزى جيب والاستاذ الفرنسى ماسينيون والاستاذ الألمانى ستروتهمان والاستاذ الروسى ايوانوف والاستاذ الهندى آصف فيضى والاستاذ الشيكوسلافوكى بولوس كراوس والاستاذ المصرى حسن ابراهيم حسن وغيرهم من العلماء الكبار اهتماما بليغا فى درس تاريخ الآراء والنحل فى الإسلام وبالخصوص فى تاريخ الاسماعيلية وعقائدهم الدينية وآرائهم الفلسفية.
ان أول عمل مهم فى هذا الصدد كان نشر «كتاب المستظهرى» لحجة الاسلام الامام ابى حامد الغزالى مع مقدمة علمية تاريخية قيمة من تأليف المستشرق المجرى غولد تصير فتهيأ هذا العمل الجليل القدر سبيلا واسعا لاكتشاف تاريخ علم الكلام عند الاسماعيلية.
قد اعتمد غولد تصير ومن اتبعه من المستشرقين على الآداب التى خلت جماعة من العلماء الغير الإسماعيليين وهى كانت ردا على سعى الاسماعيلية فى مزج الفلسفة بالدين ونقدا على الحادهم عن المذاهب الاسلامية الرسمية.
واما الآداب الاسماعيلية الباطنية فكانت غير معلومة لان الدعوة جمعية سرية واهل الدعوة يكتمون كتبهم ولا يفشون «اسرار أولياء الله» بغير إذن «اولى الأمر».

فلما أتى كابروتى التاجر الطليانى من اليمن ببعض الكتب إلى ايطاليا وأهداها الى المتحف الأهلى بميلانو ونشر المستشرق الطليانى حريفينى بيان هذه المخطوطات فى مجلة الجمعية الآسوية الالمانية (ز ـ و ـ م ـ ج) اطلع العلماء عن وجود الآداب الاسماعيلية المستورة، ثم لفت النظر الى اكتشافها.

ومن

ومن اقدم الآداب الاسماعيلية التى حفظت الى يومنا هذا فهى كتب الشيخ أبى حاتم احمد بن حمدان الرازى (المتوفى فى سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ ميلادية) ولما ظهر المهدى بالله الفاطمى فى القرن الثالث وأسس الدولة الفاطمية فى الغرب الأقصى تبدلت مساعى الدعاة من التورة فى الدين والسياسة الى تأسيس دولة اهل البيت فكان الداعى ابو حاتم من الدعاة المتقدمين الذين حموا حمى الدعوة وساعدوا الفاطمية فقد دافع الداعى أبو حاتم فى كتابه المسمى بأعلام النبوة الفيلسوف الكبير والعالم الطبيعى الشهير محمد بن زكريا الرازى فى الحاده عن أمر الدين ومسئلة النبوة . وايضا قابل الشيخ ابو حاتم الرازى معاصره الرازى الفيلسوف وناظره فى مسائل الدين (١) .

وايضا كان الشيخ ابو يعقوب السجستانى من علماء هذا العصر الذين اشتغلوا بالفلسفة وارادوا مزج الفلسفة بالدين الاسلامى . وكان الشيخ أبو يعقوب من أقدم الفلاسفة والمفكرين فى تاريخ الإسلام قتل هو واستاذه المفيد الشيخ النسفى بعد اضطها دمؤلم بتركستان فى اوائل القرن الرابع .

وأما الدعاة الذين جاءوا بعد أبى يعقوب الفيلسوف اشتغلوا بتأويل القرآن وتفسيره وتعمقوا فى درس علوم الحديث والفقه الاسلامى والتاريخ وايدوا الدولة الفاطمية القائمة بمصر بدعائم الإسلام وأهملوا الفلسفة والتصوف والاكتشاف العلمى ومن الغريب ان «رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا» مع صلتها بالتورة الاسماعيلية لم تذكر ولو بمرة فى كتب دعاة الفاطميين مع انها تعد عند الإسماعيليين «قرآن الامامة» والقرآن «قرآن الأمة» .

ان القرن الرابع كان أهم الادوار الاسلامية لنضج الفلسفة وانتشار العلوم الطبيعية لأن فى هذا الدور ظهر كبار فلاسفة الاسلام مثل الشيخ أبى على ابن سينا والمعلم الثانى الفارابى لتنوير حياة المسلمين بآرائهم الفلسفية واكتشافاتهم العلمية . وظهر فى هذا الدور فيلسوف آخر ساوى أحيانا فى اعماله بمعاصره

---

(١) قد نشرا خيرا صديقى الدكتور ونوس كروس هذه المناظرة فى مجلة اورنتيل التى تصدر .

الفلاطونى الحديث الفارابى وهو الشيخ أحمد حميد الدين الكرمانى حجة العراقين للخليفة الفاطمى الحاكم بامرالله ولكن مع الاسف جهل العلماء امر هذا الفيلسوف النحرير والعالم العبقرى لتستر الآداب الاسماعيلية فاليوم اريدأن اذكر مايحتويه كتابه المسمى بالرياض خدمة للعلم والعلماء .

وللكرمانى فضل عظيم فى تطور الفلسفة الاسماعيلية . دعى الشيخ احمد الكرمانى زعيم الدعوة بالعراقين إلى مصر لإحياء العلوم والفلسفة التى اهملت فى القرون الغابرة وافتتح الحاكم بأمر الله بمصر مرة أخرى« دار الحكمة » التى كانت مغلقة لمدة وعينه رئيسا « لدار الحكمة » . وقد كان الكرمانى رجعيا فى مذهبه الفلسفى واستعمل فلسفة الفلاطونية الحديثة فى توطيد بناء الامامة الفاطمية وهاجم الدروز مهاجمة شديدة لغلوهم فى أمرالحاكم ونسبتهم الألوهية اليه وبذل كل جهد فى جميع مصنفاته لاثبات أمرالنبوة والإمامة من الوجهتين الفلسفية والدينية وأراد أن يوفق مبادى الدين و مسئلة النبوة بآراء الثائرين من الفلاسفة المتقدمين مثل الداعى أبى حاتم الرازى وابى يعقوب السجستانى .

واحتج الكرمانى فى كتابه« الأقوال الذهبية فى الطب النفسانى» على الفيلسوف الشهير محمد بن زكريا الرازى الذى ناظره الشيخ أبوحاتم الرازى فى امر النبوة كما ذكرناه آنفا وجعل الكرمانى كتابه على بابين ، احدهما فى ابانة « الخطاء المستمر » على ابن زكريا فى طبه الروحانى وفيما جرى بين الشيخ ابى حاتم الرازى وابن زكريا الرازى وفيما اهمل ابو حاتم ،وثانيهما فى ابانة « الحق المستقر » فيما هو حق الطب النفسانى . وقد حفظت الدعوة اليمنية بعض مصنفاته ورسائله وأهم هذه المصنفات هوكتاب « راحة العقل »(١) (تم تصنيف الكتاب فى سنة ٤١٢ هجرية) وفيه اظهر نظريته فى مسئلة بدء العالم وجمع لأول وهلة الأصلين الأولين العقل الفعال والنفس الكلية مع مسئلة العقول العشرة الفلاطونية التى

(١) تحصلت اخيرا مكتبة الجامعة المصرية مخطوطة كتاب راحة العقل والمرجو من الجامعة انها ستنشر هذا الكتاب .

أبانها

أبا نها معاصره الفيلسوف الفارابى وأدخل الكرمانى فى فلسفته عناصر جديدة وأضافها فيما استنبطه من الفلاسفة المتقدمين وأكد بكل توكيد المشابهة بين عالم الإبداع (وهو عالم العقول او العالم الروحانى اللطيف) وبين العالم الجرمانى (وهو عالم الأفلاك والكواكب) وبين العالم الجسمانى (وهومادون فلك القمر) وبين عالم الدين (وهو معرفة مراتب حدود الدين) لأن العوالم كلها مرتبة تحت سياسة قانون « الميزان » حذو النعل بالنعل .

إن الجزء الأكبر من هذا الكتاب يشتمل على فلسفة الفطرة ومبدأ الانسان ومعاده بتعاون قوى الفطرة .

وأما ما اريد اليوم فهو ذكر الكتاب المسمى « بالرياض » (١) للشيخ أحمد الكرمانى وهذا ما أورده الشيخ فى مقدمة كتاب الرياض موضحا ما كان مؤديا إلى تصنيف كتابه .

«فان احق امر صرف موحد عنايته اليه ووقف همته عليه امر كان مؤديا فى توحيد الله تعالى ومعرفة حدوده إلى نظام اعتقاد الموقنين وداعيا إلى كشف لبس وظلام عن انفس المؤمنين ومطرقا إلى توحيد رب العالمين) وإنى لما رأيت الشيخ أبا حاتم الرازى قد أصلح من كتاب المحصول مازعم انه كان فاسدا والشيخ أبا يعقوب السجزى قدنصر صاحب المحصول (٢) وصار بصحة قوله

---

(١) فقد وجدت مخطوطة هذا الكتاب بخزائن الكتب المختصة بالدعوة الاسماعيلية فى اليمن والهند .

(٢) ولم يذكر الكرمانى اسم صاحب المحصول مع أنه معلوم عندالدعاة بأن الشيخ النسفى كان مفيدا واستاذا للشيخ أبى يعقوب السجزى الذى صنف كتاب « النصرة » نصرة لاستاذه المفيد وايضا ذكر الشيخ ابو حاتم فى كتابه «الاصلاح » الموجود بخزائن الدعوة اسم صاحب المحصول ولكننا لم نعرف احوال حياته الا أنه كان عالما وداعيا من الدرجة العالية وقتل مع تلميذه الشيخ أبى يعقوب وبعض المشايخ الاسماعيليين بتركستان ومع الأسف كتاب المحصول

شا هدا ولم يكن ما تنا زعا فيه من الفروع التى يجوز أن يختلف فيها مع سلامة اصولها ووجدت الشيخ أبا يعقوب السجزى فى بعض ما أورده صادقا على الوجه الذى قصده فى النقض ومتحاملا على الشيخ أبى حاتم فى بعض وبعض من كلامهما صادر على غير نظام ..... وكان ذلك اجمع مفضيا باهل الدعوة الهادية إذ وقفوا عليه إلى اختلاف وفى مسالك التوحيد ومعرفة الحدود إلى اختلال ، رأيت ان اورد أقاويل كل واحد منهما هذا فى كتاب الإصلاح إصلاحا وهذا فى كتاب النصرة نقضا بأعيانها ..... ثم أتكلم على ما أهمل اصلاحه من كتاب المحصول من الاصول التى لايجوز أن يختلف فيها وابين الحق فيه طلبا للثواب ففعلت وجعلت ذلك كله فى هذا الكتاب ووسمته بكتاب « الرياض » فى الحكم بين الصادين (١) صاحب الاصلاح وصاحب النصرة لكونه فيما يجمعه من اقاويلهما ومانورده فصلا بينهما وبيانا لما استمر من الخطاء لما اهمل اصلاحه من كتاب المحصول وقضاء بالواجب فيه مما استفدناه من بركات اولياء الله عليهم السلام كالرياض خضرة فى العين وثمرة تحصل فى اليدين وبالله نستعين وبوليه فى ارضه فى ايراد الشيء موقى من آثار الخطاء وان كنا لا نعرى منه » .

والكتاب يجمع عشرة ابواب يشتمل جميعها على مائة سبعة وخمسين فصلا .

ابواب الكتاب

الباب الاول ـ فى ما تكلم عليه فى باب النفس الذى هو المنبعث الأول يشتمل على ثمانية وثلاثين فصلا .

الباب الثانى ـ فى ما تكلم عليه فى باب العقل الاول الذى هو المبدع

وكتاب النصرة كلاهما مفقود ولا أثر لاحدهما بخزائن كتب الدعوة باليمن والهند وانى رأيت بعض مخطوطات كتاب « الاصلاح » باليمن والهند وقابلتها بالعبارات التى اوردها الشيخ احمد الكرمانى فى كتابه الرياض .

(١) اخذ احدى الصادين من اول حروف صاحب الاصلاح واخذت الصاد الثانية من اول حروف صاحب النصرة .

الاول

الاول يشتمل على تسعة فصول

الباب الثالث ـ فيما تكلم عليه فى باب النفس والهيولى . وهل هما يشبهان الاول ام لا ـ يشتمل على ستة فصول

الباب الرابع ـ فيما تكلم عليه فى باب كون النفس اجزاء اوآثارا . يشتمل على ثمانية فصول

الباب الخامس ـ فيما تكلم عليه فى باب كون البشر ثمرة العالم . يشتمل على تسعة فصول

الباب السادس ـ فيما تكلم عليه فى باب الحركة والسكون والهيولى والصورة يشتمل على تسعة فصول

الباب السابع ـ فيما تكلم عليه فى باب اقسام العالم ـ يشتمل على سبعة فصول .

الباب الثامن ـ فيما تكلم عليه فى باب القضاء والقدر ـ يشتمل على اربعة وعشرين فصلا .

الباب التاسع ـ فيما تكلم عليه فى شريعة آدم ووصى نوح . يشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلا .

الباب العاشر ـ فيما اهمل اصلاحه من كتاب المحصول فى باب التوحيد والمبدع الاول مما كان اولى باصلاحه مما تكلم عليه . يشتمل على ستة عشر فصلا .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة الاستاد الفاضل عبد القدوس الهاشمى

كتاب المخترع فى فنون من الصنع

الصناعات والعلوم التطبيقية ليست كما هو معروف من خصائص امة دون غيرها بل هى من خصائص عصر فيه تبث الحضارة والتمدن وتنضج الافكار والشعور ويجر الاحتياج المدنى اليها ، ففى العهد العتيق الذى كان النوع الانسانى فيه يعيش فى الكهوف لم يكن احد يعرف الهندسة التطبيقية ولا الكيميا ولا الصناعة ولا شيئا من العلوم التى تولدت بعده وتزايدت وتشعبت فى عصر بعد عصر حتى بلغت الى حدنراه فى الحضارة الحديثة الاوروبية وخير ما قيل « ان الحاجة هى ام الاختراع » .

فلا غرو فى ان نرى كل عصر من عصور الاجيال الانسانية تتقدم فيه هذه العلوم تقدما عاليا وتخطو خطوة بغير تقهقهر وان الحضارة العربية التى شيد فيها البنيان والقصور ونشر فيها العلوم العصرية ونضجت كانت حاملة لهذه العلوم ، كيف لا وهى كلية لا استثناء فيها فان الحضارة العربية لما ترعرعت وتوسعت ما ورثت العلوم من القدماء فقط بل اضافت اليها زيادات حسنة عليها بنيت قصور التجربات الجديدة والعلوم الحديثة التى نتمتع بثمارها اليوم قال الاستاذ غوستا وليبان العالم الفرنسوى فى كتابه .

«ان القدر الذى ورثت العرب من اليونان من علوم الكميا كان قدرا لا يعتد به بسبب قلته ولكنهم اخترعوا اشياء كثيرة من المركبات التى عليها اليوم بناء هذه العلوم كالكحول، والزاج الاحمر وحمض الكبريتور وحمض ناتريك اواسيد ناترك وماء الملوك الحمض الذى ينحل فيه الذهب وغيرها من المركبات المفيدة » (١) .

لو اردنا بسط الكلام فى هذه العلوم واصولها ورقيها وما نقل من اللغات

---

(١) التمدن العربى ص ٤٣٥ –

 الاخرى

الاخرى وما ورثه العرب من الحضارات العتيقة والامم القديمة ، لضاق بنا المقام وبعدنا عن المراد فانه معروف ان اول من عنى بالعلوم الدخيلة من العرب هو خالد بن يزيد بن معاوية الاكبر الاموى المتوفى سنة ٨٥ ولذلك اشتهر فيما بين الناس بخالد الحكيم ، وكان طامعا فى الخلافة بعد خلع اخيه معاوية الثانى فغلبه على ذلك مروان وانتقلت الخلافة به من بيت ابى سفيان الى بيت مروان ، فلما يئس خالد من الخلافة وكان ذا فهم وذكاء وذهن متوقد انصرف ذهنه الى اكتساب العلى بالعلم وكانت صناعة الكيميا رائجة يومئذ فى مدرسة الاسكندرية فاستقدم جماعة ، منهم رومى اسمه مريانوس وامره ان يعلمه هذه الصناعة فتعلم ونقل شيئا من الكتب لم يبق منها شيء الى يومنا هذا فهو اول من نقل هذه الصناعة الى العربية .

ومما يحسن بيانه فى هذا المقام امتياز اصحاب التمدن العربى على من سواهم من الفاتحين فى العالم الانسانى فان المسلمين كانوا راغبين فى ان تنتشر علوم الاوائل فيهم خلاف غيرهم من الفاتحين فان القوط وقبائل الجرمان سطوا على مملكة الروم من الشمال كما سطا العرب عليها من الجنوب وكلاهما اهل بادية وحرب ، امتلك القوط ايطالية فى القرن الخامس الميلادى وتركوا اهلها الروميين على ما كانوا عليه من آدابهم وعلومهم وطلوا هم على بداوتهم وحبهم الحرب واستخدموا من رعاياهم من يقوم فى تدبير حكومتهم كما فعل العرب فى اوائل دولتهم . لكن القوط لما تحضروا حملوا علماء الرومان على التأليف فالفوا لهم الكتب باللاتينية لا بالقوطية فذهبت القوطية وبقيت لغة الروم . اما العرب فانهم حالما استتبت لهم السيادة جعلوا الدواوين فى العربية وحملوا رعاياهم على مكاتبتهم بالعربية ولما ارادوا نشر العلوم كلفوهم نقل تلك العلوم الى العربية فذهبت لغات الأمم التى كانت تحت سلطانهم وبقيت العربية ولاتزال تبقى ابقاها الله الى يوم القيامة .

ايها السادة الفضلاء ! ان العرب لما تحضروا وتمدنوا نشر فيهم العلوم

والصناعات على احدث انواع مايكون، والفوافيها كتبا قيمة وتواليف جمة، ولكن قد ضاع كثير من نتاج قرائحهم وان ورثهم شيئا من اتى من بعدهم، ولانجد اليوم كتابا مشتملا على الفنون والصناعات والحرف الاقليلا ، فان مؤلفات العرب فى العلوم الدخيلة قد حجبها عن اعيننا ايدى الزمان ولا سيما الكتب التى صنفت فى فنون من الصنع والحرف كتواليف بنى شاكر فى الطبيعيات والميكانيكيات ، وكثير من كتب الكندى وأبى زكريا يحيى بن محمد ابن العوام والامير لاجين الطرابلسى وغيرهم .

اما اليوم فلا اريد الا ان اعرفكم بكتاب نادر فى هذا الموضوع لم يطبع الى الآن ولاتوجد منه نسخة الاالوحيدة التى هى فى الكتبخانة الآصفية تحت رقم (٢٢١) فن المتفرقات ، وكما اعرف لا توجد ثانيتها فى المكاتب الاوروبية ولافى الآسيوية ، وهى نسخة من «كتاب المخترع فى فنون من الصنع» مكتوبة بالخط الواضح الدقيق الخفى فى غاية الدقة والجودة والصحة ، العناوين بالشنجرف والجداول بالحمرة والزرقة تقطيعها الورق ٣٠ فى ٨١ والمكتوب ٢٤ فى ١٥ سنتميترعدد السطور ٢٣ ، والحجم ١١٨ ورقة- فيها مئات من الاشكال الهندسية واشكال الآلات التجربية والميكانية وبعضها فى تمام الصفحة .

كتبها الشيخ محمد بن قوام بن صفى بن محمد ضياء ترك ناگورى فى ثانىعشر رجب سنة ٨٧٦ ، كما ارخ فى آخرها ، « تم الكتاب بعون الملك الوهاب بيد الخط الفقير الحقير النحيف الضعيف محمد بن قوام بن صفى بن محمد ضياء ترك ناگورى عرف قاضى خان بتاريخ بست ودوم ماه رجب رجب قدره سنة ٨٧٦ » .

وقاضى خان الكاتب هذا كان من اجلاء فقهاء الهند فى القرن التاسع للهجرة ، واسمه محمد بن قوام الدين وعرف بقاضى خان بسبب مهارته فى الفقه ومشابهته فى ذلك بالامام فخر الدين حسن بن منصور قاضى خان الاوزجندى المتوفى سنة ٥٩٢ ، صاحب الفتاوى المشهورة ، وقيل ان قاصيخان كان لقبه

من

من تلقاء السلطان ، و مات سنة ٨٩٦ وبيته مشهور بالعلم والفضل .

واما الكتاب ، فما وجدت ذكره فى كشف الظنون لحاجى خليفة الچلپى ولا فى تاريخ آداب اللغة العربية للاستاذ العلامة بروكلمن الالمانى ، ولا فى فهرس من الفهارس المطبوعة للمكاتب الشرقية والغربية ، ولا فى شىء من كتب التراجم والطبقات ولا اعرف كتابا يسمى بالمخترع الا كتاب المخترع فى القوافى لابى القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٩ ، وظنى ان عهد مؤلفه هوالنصف الاول من القرن التاسع للهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام لان نسق العبارة يدل على ذالك ـ الاسف انى بذلت اقصى جهدى لان اظفر باسم مؤلفه ولكن لم افز .

وظنى لعل الكتاب ليوسف بن سليمان الكركى المتوفى سنة ٨٣١ لانه هوالوحيد الذى اشتغل بتلك العلوم فى ذلك العهد .

والكتاب له اهمية زائدة قد ذكر فيه كثير من الصنائع والحرف بالنهج الفنى وها انا اذكر مقدمته لتعرفوا مقام الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه استعين واتوكل

الحمد لله المحمود بكل لسان المنيل فواضل الاحسان المفضل على كل انسان بما الهمه من البيان وصلى الله على رسوله سيدنا محمد المبعوث الى كل قاص ودان وبعد فهذا الباب جمعنا فيه طرفا من الصناعات المستحسنة ونبذا من الهندسة على قانون من الاصول الحسنة واجتهدنا بالبحث فى ذلك مع كل ماهر من ارباب هذه الصنائع حتى شاركناهم فى معرفة اصولها وفروعها وصلاحها وفسادها من اى المواضع وشاهدنا ماصوروه لنا من سائر الامثال ومن وضعوه شكله مما يمكن ان يوضع له شكل من الاشكال وأمرنا كل صانع ان يعبر عن صناعته بلسانه ويوضح بلفظه عما يعرفه فى جنانه فعجزوا عن العبارة بما يفيد من يريد تضمين كلامه كتابا اويفهم منه من يريد يعلم خطابا فعبرنا اقوالهم بما يضمنه كتابنا

من العبارة وبيناه بما حواه فى سائر الصنع من الاشارة بعد ان بلغنا فى ذلك غاية المجهود ونرجو به ان شاء الله تعالى حصول الغرض والمقصود وما اشكل من ذلك فليس تركه عن تقصير بل بلغنا فيه نهاية ما امكن من التحرير وسمناه بكتاب المخترع فى فنون من الصنع وقسمناه خمسة عشر بابا ليكون اسرع لطالبها يستدل بها الطالب لحاجته ويستعين بها الصانع على صناعته والله الموفق الى سواء السبيل وهو حسبى ونعم الوكيل .

الباب الاول ــ فى القلم واستحباب الجيد منه واختياره واختلاف بريه على اجناس الخطوط وصفة الدواة وآلاتها من السكاكين وسراها ، (؟)

الباب الثانى ــ فى عمل اجناس المداد وعمل الاحبار السود والاحبار الملونة .

الباب الثالث ــ فى عمل الليق وتلوين الصباغات وخلطها وحل اللك والصاق القزدير وما يعمل لدهان السقوف وحك السندروس .

الباب الرابع ــ فى دق الذهب والكتابة بالذهب والفضة ومايقوم مقامهما وغسل اللازورد .

الباب الخامس ــ فى عمل الكاغذ البلدى على اختلاف اصنافه ووضع الاسرار فى الكتب وما يمحوا الدفاتر والرقوق .

الباب السادس ــ فى عمل غراء الحلزون وغراء السمك والكعب والسكرية وغراء الجبن ، والصاق الذهب وصفة مصاقلته واقلام الشعر والريش وجميع آلات الذهب والفضة .

الباب السابع فى تجليد الكتب وآلاتها وصورة نقشها بالمناقش وصفة دباغ الجلود وعمل السيرون وصبغ الفندس وصباغ العود القاقلى وصباغ العاج والابيص من الآبنوس وصقال النصب .

الباب الثامن فى صبغ الوان الحرير والثياب على اختلاف الوانها وصبغ الصوف على اختلاف الوانها ومعرفة لقصارة لسائر انواع الثياب واللانس الخام والمالوى وغير ذلك .

الباب

الباب التاسع فى قلع الآثار والطبوعات من سائر الثياب وعمل الصابون .

الباب العاشر فى عجن اللك لدهان الخرط وفى تعليق الذهب واخلاص الفضة وسبك الكحال للذهب والفضة وقتل الذهب طلاء الفضة وطلاء الحديد وسبك اللحام للذهب والفضة ورشن الملقب وصفة الرشن فى الخلاخيل والاسورة وعمل الاحجال من الفضة والاسورة وصفة المرغول من الذهب والفضة والطيب منهما وصفة جمع السبيكة من الذهب والفضة وعمل الحلب والقصب وجلاء الفضة والذهب وصفة حشو يحشى بها بيوت الفصوص فى العصائب وغيرها وصفة انواع النحاس وسبكه وما يعمل منه الاوانى وذكر آلاته وبياضه بالرصاص والحام ما يكسر فيه وصفة صقال السيوف والحديد والنحاس وتحريق الفحم لاشغال الذهب والفضة وذكر الصنعة الشريفة المعروفة بالكيمياء .

الباب الحادى عشر ، فى هندسة تفصيل الخيم على اختلاف انواعها وذكر اطنابها واخشابها وآلاتها التى يحتاج اليها فى الاسفار مضبوطا على قانون من الحساب وزنا وطولا .

الباب الثانى عشر ، فى هندسة عمل المنجنيقات على اختلاف اصنافها وعمل السكنجيل والخطارة على اختلاف اصنافها والزحافات والجسر وذكر الذراع النجارى . . .

الباب الثالث عشر ، فى معرفة الرمى بقوس اليد والجرخ وذكر آلاتها واوتار القوس .

الباب الرابع عشر ، فى عمل النفط وتطييبه وآلاته . . . .

الباب الخامس عشر ، فى اصناف شتى مختلفة . . . . وعمل القصور من الخشب وعمل الحمام . . . . وصنعة بئر الدولاب . . . والناعورة وصفة الميخال لشل الاثقال من الحجارة والاخشاب وغير ذلك وصفة بيت الخيش . . . . (ذكر فيه الارحية والمعاصر والسفن وغيرها) .

انى امعنت النظر فى صفحات هذا الكتاب ونظرت فى غرف هذه الخزينة كما نظرت فى غيره من الكتب فى هذا الموضوع باللغات العربية والانجليزية والفارسية فوجدت ان هذا الكتاب ليس من الكتب التى صنفت بغير كد بل هو من قبيل الكتب المؤلفة من الوجهة الفنية بالاصول العلمية كالمصنفات العصرية للمحترفين بالصباغة او الميكانيكية ، اوغيرها ،

وامعنت النظر فى الاشكال فوجدت اشكالا فنية هندسية لا خطوطا غير مرتبة متساوية وغير متساوية كخطوط الصبيان ،

ورأيت فيه من الأسرار الفنية المكنوزة مالايعرفه اهل هذه الصنائع الى الآن ، ولاريب فى ان هذا الكتاب لو سعى احد من العلماء فى تصحيحه وتهذيبه على النمط الحديث وانفقت احدى الادارات على اشاعته لكان مفيدا لاهل الزمان ،

بسم الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة الاستاذ الفاضل امتياز على عرشى ، مدير الخزانة برامفور

الامام الثورى وكتابه فى التفسير

سادتى الكرام !

نحن نعلم ان امرالوحى العزيز قد بدأ بنزول آيات تنص ان العلم والكتابة من نعم الله جل وعز ذكره واول ما تلا النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المقدس المطهر (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم، الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) (١) ـ

ونرى انه عليه الصلاة والسلام قد سعى طول حياته الطيبة فى الكشف عن هذا السر لتلاميذه السعداء رضوان الله عليهم اجمعين ، واوضح لهم جلالة العلم والقراءة والكتابة ، فكان فى اقل من قرن ان الامة العربية التى كانت امية حين بعث الله تعالى فيها رسولا ليعلمها الكتاب والحكمة ، قد تحلت بحلى العلم والحكمة وترقت درجاتهما العالية الرفيعة ، ولم يكن ذلك الابركة خدمتها الكتاب المقدس ، الذى قد تكفل لها بالنجاة والفلاح فى الدنيا والآخرة ـ ومع هذا كان موافقا للذوق الادبى الشعرى ، الذى قد حث العرب على ان يلقبوا غيرهم بالعجم فصرفوا وجوههم فى حفظه وكتابته والتفكر فى معانيه والعمل باوامره والاجتناب عن نواهيه ، وتركوا كل ما كان يفخر به العرب من القصائد والاشعار وردوه على الشياطين الذين القوها على قائليها من الجاهلية الاولى .

وكان هذا الكتاب الجليل الذى نزل بلسان عربى مبين ليتيسر الذكر والاعتبار بآياته حاويا لاسرار الصفات الالهية الغامضة ، وجامعا لقوانين الاخلاق والسياسة والتمدن ولقصص الامم الماضية ، وهاديا الى الفكر الصحيح فى المبدأ والمعاد الذى لم يرزق من قبل ، فكان لابد من ان يكون فيه مواضع

---

(١) سورة العلق ـ ١ ـ ٥ .

لم تصل الى فهمها عقول تلك الامة الجديدة النشأة الطيبة ، لكنهم لم يروا فيها بآرائهم ؛ بل سألوا عنها رسولا قد امره الله ان (لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذ أقراناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه) (١) فتارة فسر الله ما اشكل عليهم بالوحى كما فى آية (حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود) بلفظ (من الفجر) (٢) وتارة اخرى شرح النبى صلى الله عليه وسلم اشكال الآية اما بآية اخرى نزلت من قبل كما فعل فى(ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) بآية (ان الشرك لظلم عظيم) (٣) او بالفاظه الطاهرة التى نحن نعتقد أنها تقوم مقام الوحى الخفى اذا صحت نسبتها اليه من حيث الرواية والدراية فحفظت الصحابة رضى الله عنهم كل ما قال الله و رسوله فى تفسير القرآن العزيز وروه لتابعيهم (٤) .

لكنهم لم يدونوا تلك الروايات فى الكتب والمصاحف ، اولا لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه (٥) وثانيالان الصحابة لخلوص عقيدتهم ببركة صحبة النبى صلى الله عليه وسلم وقرب العهد اليه ولقلة الاختلاف والواقعات وتمكنهم من المراجعة الى الثقات كانوا مستغنين عن تدوين علم الشرائع والاحكام (٦) .

عهد التابعين

فلما انقضى عصر الصحابة اوكاد وصار الامر الى تابعيهم باحسان انتشر الاسلام واتسعت الامصار وتفرقت الصحابة فى الاقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى فأخذوا فى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن » (٦) ـ فاول ما دونوه من العلوم التفسير ـ ومن اقدم

---

(١) سورة القيامة ركوع ١ ـ آية ١٦ ـ ١٩ (٢) سورة البقرة ركوع ٢٣ ـ اية ـ ٥ (٣) الانعام ركوع ٩ اية ١٠ (٤) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٤٠٤ ـ ٥ ـ ٤
(٥) صحيح مسلم ج ٢ ص ٨ ٥٢ طبعة دار الكتب المصرية ـ سنة ١٣٢٣ ه
(٦) كشف الظنون ج ١ ص ٢٦ .

التفاسير تفسير ابى العالية رفيع بن مهران الرياحى (م ٩٠ ھ) الذى رواه الربيع ابن انس عنه ـ وتفسير مجاهد بن جبير (م ١٠١ ھ او ١٠٢ ھ او ١٠٣ ھ) وتفسير عطاء بن ابى رباح (م ١١٤ ھ) و تفسير محمد بن كعب القرظى (م ١١٧ ھ) وغيرها ـ (١) .

وانقسمت جماعة المفسرين الى ثلاث مدارس ، اولها مفسرو مكة المكرمة ـ وهم تلاميذ عبدالله بن عباس رضى الله عنه ، حبر هذه الامة ، الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حقه « اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن » (٢) وثانيتها مفسرو الكوفة ـ وهم تلاميذ عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، الذى قال صلى الله عليه وسلم فى حقه « من احب ان يقرأ القرآن غضا كما انزل فليقرأه على قراءة ابن ام عبد » ـ (٣) وثالثتها مفسرو المدينة المنورة ـ وهم اصحاب زيد بن اسلم العدوى ـ وهذه الطائفة لقبت بقدماء المفسرين ـ

عهد تبع التابعين

وبعد ذلك العصر جاء تبع التابعين، فصرفوا هممهم فى جمع ماروى فى تفسير الآيات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اوالصحابة والتابعين ، ولم يفرقوا بين المدارس الثلاث التى كانت امتازت فى عصر التابعين بروايات مخصوصة فدونوا علم التفسير فى الكتب ، وصارت كتبهم اجمع من الكتب السابقة واشتهر من بينهم وكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون واسحق بن راهويه، وسفيان بن عيينة ، وسفيان بن سعيد الثورى .

---

(١) كشف الظنون حرف التاء تحت عنوان التفسير (٢) الاستيعاب ج ١ ص ٣٧٢ وقال فى بعض الروايات « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وفى حديث آخر « اللهم بارك فيه وانشر منه واجعله من عبادك الصالحين » وفى حديث آخر « اللهم زده علما وفقها » وهى كلها احاديث صحاح (٣) الاستيعاب ج ١ ص ٣٦٠ .

مزية تفاسيرهم

ولما كانت كتبهم حاوية لما تركه الصحابة والتابعون فى تفسير القرآن ، وكان الصحابة والتابعون يرجحون المشى فى النار على القول بالرأى فى القرآن ، لا لعدم البصيرة فيه او التساهل فى خدمته ، بل لانه تعالى قد قال (لا تقف ما ليس لك به علم) ولانه صلى الله عليه وسلم قدنهى عنه بقوله « من فسر القرآن برأيه فاصاب فقد اخطأ » و« من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » ولان ابا بكر الصديق رضى الله عنه قال « اى سماء تظلنى واى ارض تقلنى لو قلت فى القرآن برائى » فصار تفسير كل واحد من هذه الطائفة منبع الرشد والهداية وهاديا الى ما فهموه من القرآن والى نهج فهمهم الذى قد سهل لهم الخوض فى آياته والفكر الصحيح فى معانيه ومطالبه التى هى الوسيلة العظمى للنهضة المستقيمة ، لكن لم يكن عندنا كتاب لأحد من تبع التابعين ايضا الا أن ابن جرير الطبرى (م ٣١٠ هـ) قد جمع اكثر رواياتهم، ولعبت بباقيها ايدى الزمان . فابشركم اليوم بانى قد وجدت فى خزانة الكتب برامفور كتابا فى التفسير لسفيان بن سعيد الثورى الكوفى . الذى كان من اعلم الرجال بالقرآن (١) .

ولاجل عظمة قدره وقدامة عهده كان خليقا بان يشاع فأمر صاحب ايالة رامفور ادام الله ملكه بتصحيح النسخة وطبعها وفوض الامر الى هذا العبد الضعيف ، فاريد اليوم ان اذكر بين ايديكم ايها السادة الكرام ترجمة الثورى ونبذة من خصوصيات النسخة راجيا منكم الاعانة فى امرى باكتشاف نسخة اخرى له كاملة ــ والله الموفق والمعين .

نسب الثورى

هو ابو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى احد الأئمة الخمسة المجتهدين

---

(١) كتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم؛ العكس الفوتوغرافى الموجود بدائرة المعارف ذكر سفيان .

ونسبه

ونسبه على ماذكر ابن سعد (١) وابن جرير الطبرى (٢) وابن حزم (٣) سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبدالله بن موهبة بن ابى بن عبدالله ابن منقذ بن نصربن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن اد بن طابخة بن الياس بن مضربن نزار.

وهو الصحيح المجمع عليه ورواه الخطيب ايضا عن الهيثم بن عدى بتغيير يسير لا يعبأ به (٤) وروى عن ابى عبدالله محمد بن خلف التيمى انه سفيان بن سعيد بن مسروق بن حمزة بن حبيب بن نافع بن موهبة بن ابى عبدالله بن نصر بن ثعلبة بن ملكان واختاره السمعانى (٥)

واسقط ابن القيسرانى (٦) والخزرجى (٧) ابى بن عبدالله، وثعلبة وزادا «الحكم» بعد «نصر» وابدلا «عامرا» بمالك. واثبت ابن خلكان(٨) نصربن الحكم بن الحارث وثعلبة بن ملكان -

ومع هذا الخلاف الذى رأيناه الآن فى نسب الثورى بحذف الاسماء فى رواية وبزيادتها فى اخرى قد تحقق انه كان عربى النسل - وعلى هذا يدل نسبته «الثورى» فقد صرح ابن النديم، وتابعه الآخرون، ان نسب سفيان يصل الى ثور بن عبد مناة - وما رواه بعض المؤرخين من انه ينتسب الى ثور همدان فهو غلط (٩)

بيت الثورى

كان والده سعيد بن مسروق من محدثى الكوفة وثقه ابن معين وابو حاتم

---

(١) الطبقات ج ٦ ص ٢٥٧ (٢) الذيل المذيل ص ١٠٥ طبع مصر (٣) جمهرة النسب ورقة ٦٣ ب - مخطوطة (٤) تاريخ بغداد ج ٩ - ص ٥٤، وفيه «ابى عبدالله» و«ثعلبة بن ملكان» (٥) كتاب الانساب ١٧٧ حرف الثاء (٦) الجمع بين رجال الصحيحين - ج ١ - ص ١٩٤ (٧) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال - ص ١٤٥ - طبع مصر سنة ١٣٠١ هـ (٨) وفيات - ج - ١ - ص ٢٩٦
(٩) الفهرست - ص ٣١٤ - والانساب للحافظ ابى الفضل المقدسى ٢٧ - طبع اوربا - وتهذيب التهذيب - ج ٤ - ص ١١١ - وخلاصه - ١٤٥.

والعجلى والنسائى وابن المديني - وذكره ابن حبان فى الثقات - روى سعيد عن ابراهيم التيمى وخيثمة بن عبد الرحمن وسلمة بن كهيل والشعبى، وعكرمة، وعون بن ابى جحيفة - وروى عنه الاعمش، وشعبة بن الحجاج، وابو عوانة، وابنه سفيان غير مرة فى كتاب التفسير.

واختلف فى وفاته - فقال ابن ابى عاصم انه توفى سنة ١٢٦ ﻫ (٧٤٣م) وقال ابن قانع انه مات سنة ١٢٧ ﻫ (٧٤٤ م) - وقال احمد وابن حبان انه قضى نحبه فى سنة ١٢٨ ﻫ (٧٤٥ م) (١).

وامه، التى اشتهرت بام سفيان، كانت ذات زهد وورع - ذكرها الحافظ ابن الجوزى والنادى فى الصالحات المتورعات من النساء - ونقلا عنها كلمتين فى النصح لابنها جديرتين بان تحفظهما امهات المسلمين، جيلا بعد جيل، ويرشدن بهما ابناء هن وبناتهن مرة بعد اخرى.

الاولى منهما انها قالت لسفيان «يا بنى اطلب العلم وانا اكفيك بمغزلى» والثانية منهما انها قالت له «يابنى! اذا كتبت عشرة احرف فانظر هل ترى فى نفسك زيادة فى مشيك (وحالك) وحلمك ووقارك - فان لم تر ذلك فاعلم انه لايضرك ولا ينفعك» (٢).

واخواه، عمر بن سعيد ومبارك بن سعيد، كانا من اولى العلم والفضل والثقة - ذكرهما المقدسى وابن حزم والحاكم والعسقلانى (٣).

واخته كانت ام عمار بن محمد المحدث المتوفى سنة ١٨٢ ﻫ (٨٠١ م) (٤) ولم تعط حقها من الذكر فى كتب التاريخ والرجال - ولذا علمنا بها قليل.

وكان لسفيان اقارب اخر توطنوا بخارى وما توابها - منهم عمه الذى

---

(١) الجمع بين رجال الصحيحين - ج ١ ص - ٦٩ تهذيب ج - ٤ ص - ٨٢ - خلاصة - ١٤٢ (٢) صفة الصفوة ج ٣ ص ١١٦ والكواكب الدرية ج ١ - ص ١٦٢ مخطوطة (٣) كتاب الانساب للمقدسى ص ٢٧ طبع اوربا - جمهرة النسب ورقة ٦٣ ب ومعرفة علوم الحديث وتهذيب التهذيب ج ٤ ص ٤٥٢ وج ١٠ - ص ٢٨ (٤) الطبقات ج ٦ ص ٢٥٨.

لما

لما مات بها ذهب سفيان لطلب ميراثه ، وكان عمره اذ ذاك ثمانى عشرة سنة (١) .

ولادة الثورى

ولد الثورى فى الكوفة التى كانت رأس بلاد العراق ، فى خلافة سليمان ابن عبد الملك الاموى ، واختلف فى السنة التى ولد فيها ، فقال ابن سعد (٢) وابن جرير (٣) وابن النديم (٤) وابن قتيبة (٥) والخطيب (٥) وابن الجوزى (٦) والذهبى (٧) انه ولد فى سنة ٩٧ ﻫ (٧١٥ م) — وروى الخطيب عن على ابن صالح انه قال ولدنا سنة مائة وكان سفيان اسن منا بخمس سنين » وروى ايضا عن ابى نعيم انه قال « خرج سفيان الثورى من الكوفة سنة خمس وخمسين ومائة ، ولم يرجع ومات سنة احدى وستين ومائة ، وهو ابن ست وستين فيما اظن » (٨) فيظهر من هاتين الروايتين انه ولد فى سنة ٩٥ ﻫ (٧١٣ م)

ونقل ابن خلكان (٩) واليافعى (١٠) رواية اخرى فى سنة ولادته تدل على انه ولد فى سنة ٩٦ ﻫ (٧١٤ م) —

والاول هو الصحيح المعتمد عليه —

مشايخ الثورى

واذ كان مسقط رأس الثورى الكوفة التى كانت فى تلك الايام من اهم مراكز العلوم الشرعية ، الحديث والفقه ، وكان بيته ايضا بيت وجاهة ووثوق فى الحديث ، سلك الثورى مسلك ابيه وطلب الحديث وفقهه من اجلة المحدثين منهم ابو اسحق السبيعى ، ومنصور بن المعتمر ، وسلمة بن كهيل ، وحبيب بن ابى ثابت ، وايوب السختيانى ، وعاصم الاحول ، وعمرو بن دينار ، وخلق غير

---

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٥٣ (٢) الطبقات ج ٦ ص ٢٥٨ (٣) الذيل المذيل ص ١٠٥ (٤) الفهرست ص ٣١٥ (٤) المعارف ص ٢٥٥ مخطوطة (٥) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٧١ — ١٧٢ (٦) صفة الصفوة ج ٣ ص ٨٧ (٧) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٩٢ (٨) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٧١ — ١٧٢ (٩) وفيات ج ٢ ص ٢٦ (١٠) مرءاة الجنان ج ١ ص ٣٤٥

هؤلاء من مشايخ الكوفة والبصرة والحجاز وغيرها ـ (١)

تلامذة الثورى

ولما اشتهر صيته فى بلاد الاسلام رحل اليه طلبة الحديث والفقه وكثر اجتماعهم عنده حتى انه لم ينقطع حين كان هو مختفيا من المنصور والمهدى فى مكة المكرمة والبصرة .

ويبلغ عدد تلامذته الى عشرين الفا . واذ لم يمكن احصاء مثل هذا العدد اقتصر ابن ابى حاتم والخطيب وغيرهما على ذكر مشاهير من الذين رووا عنه ، من شيوخه واقرانه وممن هو دونه (٢) ونحن نكتفى بذكر الاعمش ، وشعبة ، والامام مالك بن انس ، ويحيى بن سعيد القطان ، والاوزاعى ، وابن جريج ، ومحمد بن اسحق ، وسفيان بن عيينة ، وفضيل بن عياض ووكيع ـ لجلالة منزلتهم فى فن الحديث والرواية .

مرتبته فى الحديث

قد بالغ اصحاب الرجال فى اظهار مقامه الفنى ولقبوه باميرالمؤمنين فى الحديث ، وسيد الحفاظ ، وغير ذلك . قد ذكر ابن سعد وابن ابى حاتم والخطيب والذهبى والعسقلانى آراءهم فى سفيان بالتفصيل . ومن جملتها انه قال شعبة وابن عيينة وابوعاصم وابن معين وغيرهم ان سفيان امير المؤمنين فى الحديث .

وقال ابن المبارك «كتبت عن الف ومائة شيخ ، كان سفيان افضلهم» فقال رجل « اباعبدالرحمن ارأيت سعيد بن جبير وغيره ، وتقول هذا؟ قال ابن المبارك « هو ما اقول ، ما رايت افضل من سفيان ،،

وقال ابن عيينة لم يدرك مثل ابن عباس فى زمانه ، ولا مثل الشعبى فى زمانه ، ولا مثل الثورى فى زمانه .

وكان رأى ورقاء بن عمر وابن عيينة ووكيع بن الجراح وعيسى بن يونس ويحى بن يمان وغيرهم ان سفيان لم ير مثل نفسه .

( ) كتاب الجرح والتعديل لابن ابى حاتم ـ وتاريخ بغداد ج ٩ ص ١٧٢ تهذيب ج ٤ ص ١١١ (٢) ابن ابى حاتم والخطيب ج ٩ ص ١٥٢ والتهذيب .

وقال

وقال يحيى بن سعيد القطان سفيان الثورى احب الى من مالك فى كل شىء ، وفسر ابن معين كل شىء بالحديث والفقه والزهد .

وقال ابوحنيفة لوكان سفيان الثورى فى التابعين لكان فيهم له شأن .

وسئل اسمعيل بن ابراهيم عن علم شعبة وسفيان فقال ما علم شعبة عند علم سفيان الا كتفلة فى بحر .

وقال مالك انما كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذجاء سفيان (يعنى الثورى)

وقال الامام النسائى هواجل من ان يقال فيه ثقة ، هواحد الأئمة الذين ارجوأن يكون ممن جعله الله للتقين اماما .

ولاجل هذه الاقوال المنقولة عن اساطين الحديث والرجال اجمع السلف والخلف على انه كان « اماما من ائمة المسلمين ، وعلما من اعلام الدين مجمعا على امامته ، بحيث يستغنى عن تزكيته ، مع الاتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد » (١) .

واذ نعلم ان الذين سبقت آراؤهم فى سفيان لم يكونوا من الشعراء اوالادباء الذين يغلب عليهم المدح اوالهجاء بل هم ارباب الحق والصدق والمعرفة يقولون ما يجدون فى رجل ، اى رجل كان ، ولا يخافون فيه لومة لائم ، فلا سبيل لنا الا الى قبول ما قالوا فى الثورى وعلمه ـ وهو انه كان اماما مجمعاً على امامته فى الحديث وفقهه .

رتبته فى الفقه

مع هذا كان الثورى قد فاق اقرانه فى الفقه والاجتهاد ، منذ قرون نسمع ان الفقه الاسلامى يدور حول الامام ابى حنيفة الكوفى والامام مالك ابن انس المدنى والامام الشافعى والامام احمد بن حنبل . نعم ، فقه هؤلاء الائمة الاربعة هوالمعمول به فى العالم الاسلامى منذ قرون حالية . لكن لاينحصر عدد المجتهدين فى هؤلاء الاربعة ، فقدكان خامسهم وكان متعارفا بين

---

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٥٢

الائمة وارباب الفقه والاجتهاد ، ولذاكان المؤرخون اذا ذكروا احدا من هؤلاء الائمة المجمع على امامتهم يقولون « احد الائمة الخمسة » .

وهذا الامام هوسفيان بن سعيد الثورى ، قد ذكره ابن قتيبة فى من اشتهر بالرأى (١) وذكر ابن خلكان وغيره ان فقه الثورى كان معمولا به فى القرون الاولى ، وكان شيخ الطائفة جنيد البغدادى من مقلديه (٢) .

ولمعرفة رتبته فى الفقه يكفينا ان نذكر نبذة مما حكى لنا عن الفقهاء .

قال الخطيب عرض الفريابى مرة على الامام ابن عيينة مسئلة فقهية فاجابه الامام بما كان رأيه فيها ، فقال الفريابى « ان الثورى يرى خلاف هذا » ـ فقال ابن عيينه « لم ترعينا لك مثل سفيان ابدا » (٣) .

وقال الحسن بن الربيع سمعت ابن المبارك قبل ان يموت بيومين اوثلاثة وكان حسن هوالذى غسله وكفنه وقبره ـ قال سمعته قال « ما احد عندى من الفقهاء افضل من سفيان بن سعيد ـ ما ادرى ماعبدالله بن عون ؟» (٤) .

وقال الاوزاعى « لو قيل لى اختر لهذه الامة ما اخترت الا سفيان الثورى » (٤) .

وقد سبق من آراء ابى حنيفة ومالك وابن حنبل رحمهم الله ما يدل على جلالة تفقه الثورى حتى ان ابن معين لا يقدم عليه احدا فى الحديث والفقه والزهد . ولاجل هـذه الصفات كان شعيب بن حرب يقول انى لأحسب يجاء بسفيان يوم القيامة حجة من الله عـلى هذا الخلق ، يقال لهم « لم تدركوا نبيكم ، فقد رأيتم سفيان ألا اقتديتم به ؟» (٥) .

ويا للاسف ان الدهر قد لعب بالكتب التى صنفت فى الفقه الثورى ، لكن نقلت اقواله الفقهية كثيرا فى الكتب التى صنفها فقهاء الحنفية والشافعية

---

(١) المعارف ص ٢٥٥ مخطوطة سنة ٥٠٠ (٢) وفيات ج ٣ ص ٢٦ وطبقات الفقهاء الحنفية ورقة ٦٦ (الف) مخطوطة (٣) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٥٦ (٤)تاريخ بغداد ج ٩ ص١٥٧ و ١٦٢ والتهذيب وغيرها (٥) تاريخ بغداد ايضا

 وغيرهم

وغيرهم فيمكن الآن جمع كتاب مستقل فى فقهه من هذه الكتب .

عقيدته

قد اختلف المؤرخون فى عقيدة الثورى نعده ابن قتيبة من الشيعة (١) وقال ابن النديم إنه كان زيديا (٢) وذكر الطبرى أنه كان شيعيا فى بدء الامر فلماذهب الى البصرة لطلب الحديث ولقى ابن عون وايوب ترك التشيع وسلك مسلك اهل السنة (٣) ويؤيد قول الطبرى ماحكى الكفوى انه سئل مرة عن عثمان وعلى رضى الله عنهما — فقال « اهل البصرة يقولون بتفضيل عثمان واهل الكوفة بتفضيل على » قيل له فانت ؟ قال « انا رجل كوفى » (٤)

ومعلوم ان اهل الكوفة قاطبة كانوا من شيعة على بن ابى طالب رضى الله عنه — وكان التشيع فى تلك الايام منحصرا فى تفضيل علىّ على عثمان رضى الله عنهما ولم يجز الامر من السياسة الى الدين والمذهب ، فلايبعدأن يكون الثورى الذى كان مسقط رأسه الكوفة ، بفضل هذا على ذاك حين اقامته فى الكوفة — ولذا يذكر فى الكتب التاريخية انه كان شيعيا مطلقا اوزيديا خاصة .

فهل ترك الثورى مسلك اهل التشيع وذهب طريق اهل السنة بعد ما دخل البصرة كما ادعى ابن جرير ؟ الجواب « نعم » لان مالدينا من آرائه فى الفروع والاصول ، التى قد تواتر النقل بها من راو الى راو ومن كتاب الى كتاب ، برهان واضح على كونه من اهل السنة والجماعة — واذ الوقت ضيق نترك البحث عن الفروع لمن له فرصة لمطالعة الكتب الفقهية — ونقتصر بذكر ما املى الثورى فى العقائد على ماحكاه لنا الذهبى فى تذكرة الحفاظ (٥) .

روى الذهبى باسناده الى شعيب بن حرب قال شعيب قلت لسفيان الثورى حدث بحديث فى السنة ينفعنى الله به — فاذا وقفت بين يديه وسألنى عنه قلت يارب ! حدثنى بهذا سفيان — فأنجوأنا وتؤخذ ! فقال اكتب .

---

(١) المعارف مطبوع ص ٣٠٦ (٢) الفهرست ص ٢٥٣ (٣) الذيل المذيل ص ١٠٥ (٤) طبقات الحنفية ورقة ٦٥ ب (٥) ج ١ ص ١٩٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ واليه يعود ، من قال غير هذا فهو كافر والايمان قول وعمل ونية يزيد وينقص وتقدمة الشيخين (الى ان قال) ياشعيب لاينفعك ما كتبت حتى ترى المسح على الخفين ، وحتى ترى ان اخفاء « بسم الله الرحمن الرحيم » افضل من الجهر به ، وحتى تؤمن بالقدر ، وحتى ترى الصلاة خلف كل بر وفاجر ، والجهاد ماض الى يوم القيامة ، والصبر تحت لواء السلطان جائر اوعدل . فقلت يا اباعبدالله الصلاة كلها ؟ قال لا ولكن صلاة الجمعة والعيدين ، صل خلف من ادركت ، واما سائر ذلك فانت مخير ، لا تصل الا خلف من تثق به وتعلم انه من اهل السنة . اذا وقفت بين يدى الله فسألك عن هذا فقل يارب حدثني بهذا سفيان الثورى – ثم خل بيني وبين الله عز وجل .

فيظهر من هذا الكتاب ان الثورى كان يعتقد كسائر ائمة اهل السنة وكان يقدم الشيخين على باقى الخلفاء – اما عثمان وعلى رضى الله عنهما فلعله كان يسكت عن تقديم احدهما على الآخر ، ويحب كليهما ، لانه كان يقول لا يستقيم حب على وعثمان رضى الله عنهما الا فى قلب نبلاء الرجال ، وان الخلفاء الراشدين خمسة ابوبكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهم ومن اعتقد خلاف هذا فهو متجاوز عن الحد . (١) .

اما من فرق اهل السنة فعده الشهرستانى فى الصفاتية ، الذين لم يتعرضوا للتأويل فى الصفات ولاتهدفوا للتشبيه – (٢) .

وكان يبغض المرجئة الذين يقولون ان الايمان تصديق فقط ، ولذا لايزيد ولا ينقص – حتى انه سئل مرة ان يصلى على مرجئ قد مات فأبى (٣) وروى القفطى انه لقى مرة ماشاء الله اليهودى المنجم ، فقال له – ماشاءالله !

---

(١) مختصر مجمع الاحباب اختصار محمد بن الحسن تلميذ ابى عمرو بن الصلاح مخطوط ورقة ٨٢ (الف) والكواكب الدريه ج ١ ص ٢٠٧ باختلاف يسير فى الالفاظ (٢) الملل والنحل ص ٦٥ طبع لندن (٣) دائرة المعارف الاسلامية بحوالة ابن سعد

انت

انت تخاف الزحل وترجو المشترى ـ وانا اخاف ربهما (١).

زهد الثورى وورعه

ومع هذا العلم الذى سبق ذكره آنفا كان الثورى، رحمه الله من ازهد الناس واورعهم فى زمانه ـ كان يتقى الله حق تقاته ويحاسب نفسه كالذى لايغادر صغيرة ولاكبيرة الااحصاها.

قال يحيى بن يمان « مارأينا مثل سفيان الثورى ولارأى سفيان مثله ـ اقبلت الدنيا عليه فصرف وجهه عنها » (٢)

وقال عبدالرحمن بن مهدى « ماعاشرت فى الناس رجلاارق من سفيان الثورى، وكنت أرمقه فى الليلة بعد الليلة، ينهض مذعورا ينادى ـ النار! النار! شغلنى ذكر النار عن النوم والشهوات » (٢)

وقال قبيصة « ماجلست مع سفيان مجلسا الاذكرت الموت ـ ومارأيت احدا كان اكثر ذكرا للموت منه » (٢)

وقال ابوخالد « أكل سفيان ليلة فشبع فقال ـ ان الحمار اذا زيد فى علفه زيد فى عمله ـ فقام حتى اصبح (٢).

وقال محمد بن عبدالوهاب « مارأيت الفقر قط اعز ولا ارفع منه فى مجلس سفيان ـ ولا رأيت الغنى اذل منه فى مجلس سفيان (٣).

وقال ابن ثابت « رأيت سفيان فى طريق مكة ـ فقومت كل شىء عليه حتى نعليه درهم واربعة دوانيق (٣).

فهذا هو سفيان الثورى، الذى رأيناه الآن جالسابين المجتهدين يذاكرهم فى اصول الدين وفروعه ـ يوافق واحداويخالف آخر ـ يؤيدهم مرةويرد عليهم اخرى ـ يباحثهم ويناظرهم ـ يملى عليهم ويروى عنهم ـ وذاك الثورى بعينه يرى قاعدا فى مجلس التورع والتزهد، لاكعامة تلك الطريقة ـ بل كأنه سيدها ومدارها تحيا بحياته وتموت بموته. ونؤيد رأينا ما قال شعبة « ان سفيان ساد

---

(١) تاريخ الحكما ـ ١٤١ (٢) تاريخ بغداد ـ ج ٩ ص ٥٦ ـ (٣) تاريخ بغداد ـ ج ٩ ـ ص ١٦٢

الناس بالورع والعلم » وما قال ابو رجاء « لولا الثورى لمات الورع » (١) .

كسب الثورى لمعيشته

كان الثورى يتجر كالامام ابى حنيفة الكوفى رحمهما الله وكان مابيديه نحوا من مائتى دينار — كان يفرقها على قوم من اخوانه فى اليمن — يبضعون له به ، ويوافى الموسم كل عام . فيلقاهم ويحاسبهم ويأخذ ما ربحوا . ولم يأخذ الثورى مالا ولاصلة من الولاة والسلاطين الامرة ثم ترك ذلك (٢) .

حتى انه جاء اليه رجل ببدرة اوبدرتين — وكان ابو ذلك الرجل صديقا لسفيان جدا — وكان سفيان يأتيه ، فيقيل عنده ، ويأتيه كثيرا — فقال « يا ابا عبدالله ! فى نفسك من ابى شىء ؟ » فاثنى عليه وقال « رحم الله اباك » وذكر من فضله — فقال له « يا ابا عبدالله ! قد عرفت كيف صار الىّ هذا المال — وانا احب ان تقبل هذا الذى جئتك به ؟ تستعين به على عيالك » فقبله منه — فخرج الرجل — فلما خرج اوكاد أن يخرج قال لاخيه مبارك بن سعيد « يا مبارك ! الحقه فرده » قال مبارك فلحقته فرددته ، فقال « يا ابن اخى ! احب ان تقبل هذا المال — فانى قد قبلته منك ولكن احب ان تأخذه فترجع به » فقال « يا ابا عبدالله ! فى نفسك منه شىء ؟ » قال « لا ! ولكن احب ان تقبله » فلم يزل به حتى اخذه — فلما خرج جئت وقد داخلنى مالا املك ، فقعدت بين يديه ، فقلت ويحك يا اخى ! ايش قلبك هذا ؟ حجارة ؟ انت ليس لك عيال — اما ترحمنى ؟ اما ترحم اخوانك ؟ اما ترحم صبياننا ؟ فاكثرت عليه من هذا النحو — فقال « يا مبارك ! تأكلها انت هنيئا مريئا واسأل انا عنه ؟ لا يكون هذا ابدا » (٣) .

وكان مبنى هذا الاجتناب انه كان آية فى الورع ، وهو لا يجتمع مع اكل ما فيه شبهة ، والاموال التى كانت بيد السلاطين والامراء كان المتورعون من العلماء يحسبونها من بيوت اموال المسلمين ، التى تصرفوا فيها خلافا للشرع المبين .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٦٢ (٢) الطبقات ج ٦ ص ٢٥٨ (٣) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٦١

وقد عرض على الثورى قضاء الكوفة ، فلم يقبله ايضا ، لانه كان لايحب ان يعين الحكومة التى بنيت على القهر والجبر ولايود أن يجعل نفسه عرضة لوعيد (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظلمون) فانها لم تبق حرية الفكر والعمل فى ذلك العهد ، وكان العمال مجبورين بان يحكموا بما اشار به السلاطين ومن لم يفعل ذلك ذاق نتيجة عمله ، ولاجل هذا الاجتناب صار قلب الثورى ولسانه جريئا على القول بالحق واشتهر بين الناس ، بالقوال بالحق (١) .

خروج الثورى من الكوفة

لما قعد بنو العباس راوده المنصور على ان يلى الحكم ، فابى وخرج من الكوفة هاربا للنصف من ذى القعدة سنة ١٤٥ ﻫ (٧٦١ م) ولم يرجع اليها حتى مات (٢) وكان معدان معه حين خرج ، فلما خلفا الكوفة بظهر قال له سفيان يامعدان ! ما تركت ورائى من اثق به ـ ولا اقدم امامى على من اثق به » يعنى الثقة فى الدين (٣) .

وقال الكفوى انه قد أخذه رجال الحكومة ، فهرب من الطريق (٤) .

وروده مكة

ولعله ذهب من هنا الى مكة لأداء فريضة الحج ، فلما صار اليها اجتمع هو والاوزاعى فى دار مفضل بن مهلهل ـ قال المفضل وكان على الموسم عبد الصمد بن على الهاشمى ، فدق داق الباب ، قلنا من هذا ؟ قال « الامير » فقام الثورى فدخل المخرج ، وقام الاوزاعى فتلقاه ، فقال له عبد الصمد بن على من انت ؟ ايها الشيخ ! قال انا ابو عمرو الاوزاعى قال حياك الله بالسلام

---

(١) مختصر مجمع الاحباب ورقة ٢٨١ ب مخطوطة نقلا عن النواوى (٢) الانساب ورقة ١٧٧ وتاريخ بغداد ج ٩ ص ٧١ وتهذيب الاسماء ٢٥٨ وقال فى تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١١٢ نقلا عن ابى نعيم انه خرج من الكوفة سنة ١٥٠ وهو سهو لأن الخطيب وغيره نقلوا رواية ١٥٥ عن ابى نعيم نفسه فليصحح ـ
(٣) الذيل المذيل ص ٥ ١ (٤) طبقات الفقهاء الحنفية ورقة ٤ ب

اما ان كتبك كانت تأتينا فكنا نقضى حوائجك ، ما فعل سفيان الثورى ؟ قال قلت دخل المخرج ، فدخل الاوزاعى فى اثره ، فقال ان هذا الرجل ما قصد الا قصدك فخرج سفيان مقطبا فقال سلام عليكم ـ كيف انتم ؟ فقال له عبدالصمد بن على يا ابا عبدالله ! اتيتك اكتب هذه المناسك عنك ، قال له سفيان ألا أدلك على ماهو انفع لك ؟ قال وماهو؟ قال تدع ما انت فيه ، قال كيف أصنع بامير المؤمنين ابى جعفر؟ قال ان اردت الله ، كفاك الله ابا جعفر ! فقال له الاوزاعى يا ابا عبد الله ان هؤلاء قريش ، وليس يرضون مما الا بالاعظام لهم فقال يا ابا عمرو ! إنا ليس نقدر نضربهم ـ فانما نؤدبهم بمثل هذا الذى ترى قال المفضل فالتفت الى الاوزاعى ، فقال لى قم بنا من ههنا ، فانى لا آمن ان يبعث هذا من يضع فى رقابنا حبالا ، وارى هذا لا يبالى (١) .

حبسه بامر المنصور

ولما تيقن المنصور أن الثورى لايعدل عن نهجه فى نقد الحكومة ولايبالى فى مؤاخذتها اى مؤاخذه كانت اراد أن يحبسه وينتقم منه انتقاما تاما ، فكتب فى سنة ١٥٨ هـ ـ (٧٧٤ م) الى محمد بن ابراهيم عامله على مكة بحبس رجل من آل ابى طالب كان بمكة ، وبحبس ابن جريج وعباد بن كثير والثورى فحبسهم ، ثم اطلقهم من الحبس بغير اذن ابى جعفر ، فغضب عليه ابو جعفر (٢)

خروج ابى جعفر الى مكة وامره بصلب الثورى

ولما لم تصل يد ابى جعفر الى الثورى وظن انه قد خاب فى الامر بعث الخشابين حين خرج الى مكة لاداء الفريضة فى سنة ١٥٨ هـ (٧٧٤ م) ـ فقال ان رأيتم سفيان الثورى فاصلبوه » فجاء النجارون ونصبوا الخشب ، ونودى سفيان ، واذا رأسه فى حجر الفضيل بن عياض ورجلاه فى حجر ابن عيينة ، فقالوا « يا اباعبدالله ! اتق الله ولاتشمت بنا الاعداء ، فتقدم الى استار الكعبة ثم اخذها ثم قال « برئت منه ان دخلها ابوجعفر » فمات قبل ان يدخل مكة

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٥٩ (٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٨٥ .

فاخبر

فاخبر بذلك سفيان ـ فلم يقل (١) .

وقد ذكر ابن قتيبة فى قصة طويلة حضوره عند المنصور سنة ثمان واربعين ومائة حين خرج المنصور الى مكة حاجا لكن الواقعة لاتستقيم على النقد التاريخى لان المنصور لم يحج فى السنة المذكورة بل حج فيها بالناس جعفر بن ابى جعفر المنصور كما ذكر الطبرى فيما وقع فى السنة .

حضرة المهدى

ولما مات ابو جعفر المنصور فى سنة ١٥٨ هـ ظن الثورى ان الخلاف الذى كان بينه وبين الحكومة قد مات معه ، وكان قد قاسى الشدة حين اختفائه بمكة ، فكان لايرى ان يبقى على تلك الحالة الصعبة ، بل يود حينئذ أن يسالم الحكومة ويمسك لسانه ـ فجاؤ ابه الى المهدى على ماروى الخطيب عن بشر بن الحارث (٢) قال المسعودى ان القعقاع بن حكيم كان عنده حين دخل الثورى قال فلما دخل عليه الثورى سلم تسليم العامة ، ولم يسلم تسليم الخلافة ، والربيع قائم على رأسه ، متكئا على سيفه ، يراقب امره ، فأقبل عليه المهدى بوجه طلق وقال له يا سفيان تفر منا ههنا وههنا وتظن انا لو اردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخش ان نحكم فيك بهوانا ؟ قال سفيان ان تحكم فىّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ! فقال له الربيع ألهذا الجاهل ان يستقبلك بمثل هذا ؟ ائذن لى ان اضرب عنقه ، فقال له المهدى اسكت ، ويلك وهل يريد هذا وامثاله الا ان نقتلهم فنشقى بسعادتهم ! اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ان لا يعترض عليه فى حكم ، فكتب عهده ودفع اليه فأخذه وخرج فرمى به فى دجلة وهرب ـ فطلب فى كل بلد ، فلم يوجد . ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبدالله النخعى قال الشاعر .

تحرز سفيان وفر بدينه　　　وامسى شريك مرصدا للدراهم

---

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٥٩ وتهذيب الاسماء للنووى ص ٢٨٦ والكفوى ورقة ٦٦ ب والكواكب الدرية ج ١ ص ٢٠٦ و تهذيب العسقلانى ج ٤ ص ١١١ و ١١٤ (٢) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٥٣ .

هذا لفظ المسعودي - ونقله ابن خلكان والكفوي وابن عماد بلفظه - (١)

الامر بطلب الثوري

وقال ابن سعد - فطلب الثوري فخرج الى مكة ، فكتب المهدي امير المؤمنين الى محمد بن ابراهيم وهو على مكة يطلبه ، فبعث محمد الى سفيان فاعلمه ذلك وقال « ان كنت تريد اتيان القوم فاظهر حتى ابعث بك اليهم ، وان كنت لا تريد ذلك فتوار ، فتوارى سفيان وطلبه محمد بن ابراهيم ، وامر مناديا فنادى بمكة « من جاء بسفيان فله كذا وكذا » فلم يزل متواريا بمكة لا يظهر الا لاهل العلم ومن لا يخافه .

وحينما كان متواريا بمكة لقيه الفقر والفاقة - حتى ان اخته بعثت مرة مع ابي شهاب الحناط بجراب فيه كعك(٢) وخشكنانج ، فقدم هو مكة فسأل عنه ، فقيل له انه ربما يقعد دبر الكعبة مما يلي باب الحناطين ، قال ابو شهاب فاتيته هناك - وكان لي صديقا - فوجدته مستلقيا ، فسلمت عليه ، فلم يسائلني تلك المساءلة ، ولم يسلم علي كما كنت اعرف منه ، فقلت له ، ان اختك بعثت اليك معي بجراب فيه كعك وخشكنانج فعجل علي واستوى جالسا ، فقلت يا ابا عبدالله أتيتك وانا صديقك فسلمت عليك فلم ترد على ذاك الرد فلما اخبرتك اني اتيتك بجراب كعك ، لا يساوي شيئا ، جلست وكلمتني ، فقال « يا ابا شهاب ، لا تلمني فان هذه لي ثلاثة ايام لم اذق فيها ذواقا » قال ابو شهاب « فعذرته » (٣) .

عند المهدي في مكة

حج المهدي بالناس في سنة ١٦٠ هـ وكان سفيان مختفيا هناك من خوفه ، قال احمد بن صالح العجلي فدخل سفيان على المهدي فقال « السلام عليكم ! كيف انتم ؟ ابا عبدالله ! » ثم جلس فقال « حج عمر بن الخطاب فانفق في حجته

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٠ وابن خلكان ج ١ ص ٢٩٦ وابن العماد في الشذرات تحت سنة ١٦١ هـ والكفوي ورقة ٦٥ ب (٢) - الكعك خبز يعمل مستديرا من الدقيق والحليب والسكر وغير ذلك (٣) الطبقات ج ٦ ص ٢٥٩ .

ستة عشر دينارا ، وانت حججت فانفقت فى حجتك بيوت الاموال » فقال « اى شيء تريد ؟ اكون مثلك ؟ » قال « فوق ما انا فيه ، ودون ما انت فيه » فقال وزيره ابوعبيدالله « يا ابا عبد الله ! قدكانت كتبك تأتينا فننفذها » قال « من هذا ؟ » قال المهدى « ابوعبيد الله وزيرى » قال احذره فانه كذاب ! انا كتبت اليك ؟ ثم قام فقال له المهدى » اين ابا عبدالله ؟ « قال« اعود » وكان قد ترك نعله حين قام ، فعاد فأخذها ، ثم مضى ، فانتظره المهدى فلم يعد ، قال وعدنا ان يعود فلم يعد قيل له انه قد عاد لأخذ نعله ، فغضب فقال « قدامن الناس الاسفيان الثورى ويونس بن فروة الزنديق » قرنه بزنديق قال فانه ليطلب وانه لفى المسجد الحرام ــ فذهب فالقى نفسه بين النساء ــ فجللنه قيل له «لم فعلت ؟ قال « انهن ارحم» ثم خرج الى البصرة، فلم يزل بها حتى مات (١) .

ورود ه البصرة

قال ابن سعد فلماخاف سفيان بمكة من الطلب خرج الى البصرة فقدمها فنزل قرب منزل يحيى بن سعيد القطان ، فقال لبعض اهل الدار اما قربكم احد من اصحاب الحديث ؟ قالوا بلى ! يحيى بن سعيد قال فجئنى به فاتاه به فقال انا ههنا منذ ستة ايام اوسبعة فحوله يحيى الى جواره وفتح بينه وبينه بابا وكان يأتيه بمحدثى اهل البصرة ، يسلمون عليه ويسمعون منه فكان فيمن اتاه جرير ابن حازم والمبارك بن فضالة وحماد بن سلمة ومرحوم العطار وحماد بن زيد وغيرهم .

واتاه عبدالرحمن بن مهدى ولزمه ، فكان يحيى وعبدالرحمن يكتبان عنه تلك الايام ، وكلما ابا عوانه ان يأتيه . فابى وقال رجل لايعرفنى ، كيف آتيه وذلك ان ابا عوانة سلم عليه بمكة ، فلم يرد عليه سفيان السلام ، وكلم فى ذلك فقال « لا اعرفه »

ولما تخوف سفيان ان يشهر بمقامه بالبصرة قرب يحيى بن سعيد قال له « حولنى من هذا الموضع » فحولـه الى منزل الهيثم بن منصور الاعرجى من

---

(١) تاريخ بغداد ــ ج ٩ ــ ص ١٦٠ .

بنى سعد بن زيد مناة من بنى تميم ، فلم يزل فيهم .

المراسلة بينه وبين الخليفة

وحين قيامه بالبصرة كلمه حماد بن زيد فى تنحيه عن السلطان وقال « هذا فعل اهل البدع ، وما تخاف منهم ، » فاجمع سفيان وحماد بن زيد على ان يقدما بغداد ، وكتب سفيان الى المهدى (اوالى يعقوب بن داود) فبدأ بنفسه — فقيل له « انهم يغضبون من هذا » فبدأ بهم ، فأتاه جواب كتابه بما يحب من التقريب والكرامة والسمع منه والطاعة .

فكان على الخروج اليهم ، فحم ومرض مرضا شديدا ، وحضره الموت فجزع فقال له مرحوم بن عبدالعزيز « يا ابا عبدالله ! ماهذا الجزع ؟ انك تقدم على الرب الذى كنت تعبده » فسكن وهدأ وقال « انظروا من ههنا من اصحابنا الكوفيين فارسلوا الى عبادان ، فقدم عليه عبد الرحمن بن عبدالملك والحسن بن عياش اخوابى بكر بن عياش ، فاوصى الى عبد الرحمن بن عبد الملك واوصاه ان يصلى عليه فاقاما عنده حتى مات ، فخرج بجنازته على اهل البصرة فجأة » وسمعوا بموته وشهده الخلق ، وصلى عليه عبد الرحمن بن عبد الملك ، وكان رجلا صالحا رضيه سفيان لنفسه ، ونزل فى حفرته ونزل معه خالد بن الحارث وغيرهما ودفنوه ، ثم انصرف عبد الرحمن بن عبد الملك والحسن بن عياش الى الكوفة فأخبرا اهلها بموت سفيان (١)

وقال السمعانى انه كان انتقل الى عبد الرحمن بن مهدى قبل موته ، فغسله هو ويحيى بن سعيد — ودفن فى مقابر بنى كليب بالبصرة ، وقت العشاء ، وكان ابو حاتم الرازى قد زار قبره هناك (٢)

وقال الخطيب ان بنى تميم كانوا لا يحبون ان يصلى يمانى على مضرى ، فقيل لهم ما اوصاه به الثورى ، فسكتوا — (٣)

---

(١) ابن سعد ج ٦ ص ٤٥٧ — ٤٦٠ — وتاريخ بغداد ج ٩ ص ١٦٠ — مجملا

(٢) الانساب تحت « الثورى » (٣) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٦٠ .

وقال ابو داود « مات سفيان بالبصرة ودفن ليلا ولم نشهد الصلاة ـ يعني عليه ـ وغدونا على قبره، ومعنا جرير بن حازم وسلام بن مسكين ، فتقدم جرير فصلى بنا على قبره ثم بكى فقال .

اذا بكيت على قبر لتكرمه ... فابك الغداة على الثورى سفيان

ورثاه ابو زياد الفقيمى فقال .

لقد مات سفيان حميدا مبرزا ... على كل قار هجنته المطامع
يلوذ بابواب الملوك بنية ... مبهرجة ، والزى فيه التواضع
يشمر عن ساقيه والرأس فوقه ... قلنسوة ، فيها اللصيص المخادع
جعلتم فداء اللذى صان دينه ... وفر به حتى حوته المضاجع
على غير ذنب كان الا تنزها ... عن الناس ، حتى ادركته المصارع
بعيد من ابواب الملوك مجانب ... وان طلبوه لم تنله الاصابع
فعينى على سفيان تبكى حزينة ... شحاها طريد نازح الدار شاسع
يقلب طرفا لايرى عند رأسه ... قريبا حميما اوجعته الفواجع
فجعنا به حبرا فقيها مؤدبا ... بفقه جميع الناس قصد الشرائع
على مثله تبكى العيون بفقده ... على واصل الارحام، والخلق واسع (١)

تاريخ وفاته

قال ابن سعد « واجمعوا لنا انه توفى بالبصرة وهو مستخف فى شعبان سنة احدى وستين ومائة فى خلافة المهدى » ـ (٢) واختاره البخارى (٣) والطبرى (٤) والمسعودى (٥) والخطيب (٦) وابن المديم (٧) والامام الحاكم فى معرفة علوم الحديث (ص ٢٠٤) والسمعانى (٨) وابن الجوزى (٩)

---

(١) تاريخ بغداد ج ـ ٩ ـ ص ١٧١ (٢) طبقات ـ ج ٦ ـ ص ٢٥٨ (٣) التاريخ الصغير ص ٢٨٦ ـ طع اله اباد (٤) الذيل المذيل ـ ص ١٠٥ (٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٠ (٦) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٧٢ (٧) الفهرست ـ ص ٣١٥ ـ طبع مصر (٨) كتاب الانساب تحت « الثورى » (٥) صفة الصفوة ج ٣ ص ـ ٨٧

وابن خلكان (١) والذهبي (٢) واليافعى (٣) وابن حجر (٤) وعيرهم كصاحب تاريخ گزيده .

وروى الخطيب عن خليفة بن خياط ، انه مات سنة ١٦٢ ه (٧٧٨ م) - وذكرها ابن خلكان واليافعى ايضا - لكنهم ضعفوا هذا القول .

واختلف فى عمره - فالأصح انه مات وهوابن ٦٤ سنة ، لان موسى ابن داود قال سمعت سفيان الثورى يقول سنة ثمان وخمسين « لى احدى وستون سنة » - وروى الخطيب عن ابى نعيم انه مات وهو ابن ٦٦ سنة - واختار هذه الرواية السمعانى واليافعى والمناوى وعندالمسعودى كان له ٦٣ - سنة حين قضى نحبه .

زواجه

وكان الثورى ، مع الزهد عن الدنيا ومزخرفاتها ، يقول « كثرة النساء ليست من الدنيا ، لان عليا رضى الله عنه كان من ازهد الصحابة ، وكان له اربع نسوة وتسع عشرة سرية » (٥) فنكح هومرتين ، فولدت له زوجته الاولى ابنا مات فى حياة ابيه ولم يعقم سفيان ، ولاجل ذلك وهب كل ماله لاخته وابن اخته عمار بن محمد - ولم يرثه مبارك بن سعيد اخوه - (٦) .

ثم نكح الثورى ام ابى حذيفة موسى بن مسعود النهدى حين اختفائه بالبصرة (٧) ولم تلدله على الاغلب .

كتب الثورى

قدصرح المؤرخون ان للثورى غيرواحد من الكتب المؤلفة فى التفسير

---

(١) وفيات ج ١ ص ٢٩٦ (٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٩٣ ودول الاسلام - ج ١ ص ٨٤ (٣) مرآة الجنان ج ١ ص ٣٤٥ (٤) تهذيب ج ٤ ص ١١٤ وتقريب التهذيب ص ١٥١ طبع اله باد (٥) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ١ ص ٥٤ (٦) ابن سعد ج ٦ ص ٢٥٧ وكتاب المعارف لابن قتيبة ورقة ١٦٩ ب مخطوطة وفهرست ابن النديم ص ٣١٥ - ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص ٥٢ (٧) تهذيب ج ١٠ ص ٣٧٠ .

والحديث

والحديث والفقه والاختلاف والزهد ـ قال الخطيب « وكان اصحاب الحديث يأتونه فى مكانه (حين اختفائه بالبصرة فى بيت يحيى بن سعيد القطان) فاذا سمع بصاحب حديث بعث اليه ـ وكان يقول انت (يعنى يحيى) تريد مثل ابى وائل عن عبد الله ـ اين تجد كل وقت هذا ؟ اذهب الى الكوفة ـ بجئنى بكتبى) احدثك « قال له يحيى » انا اختلف اليك واخاف على دمى ـ فكيف اذهب فآتى بكتبك ؟ قال « وكان يحيى جبانا جدا » (١) .

وروى باسناده عن ابن الاسود الحارثى قال خاف سفيان شيئا فطرح كتبه ، فلما أمن ارسل الى والى يزيد بن توبة المرهبى ، فجعلنا نخرجها فاقول « يا ابا عبد الله ! وفى الركاز الخمس » وهو يضحك . فاخرجنا تسع قمطرات كل واحدة الى هنا ، واشار الى اسفل من ثدييه ، قال فقلت لـه اعرض لى كتابا تحدثنى به فعزل لى كتابا فحدثنى به (٢)

واذ قضى اكثر عمره فى الكوفة وكانت هى مركز جولانه الى سنة ١٥٥ ﻫ فنحن على اليقين فى انه صنف اكثر الكتب اوكلها فى الكوفة ، ثم لما خرج منها فى السنة المذكورة خوفا على نفسه من الخليفة تركها فى بيته ، ونظن ان واحدا من تلاميذه جاء بها اليه حين كان هو مستترا بالبصرة ليرويها عنه ثم طرحها الثورى حين خاف شيئا ثم اخرجها لما أمن وحدث بها وايضا نجزم بان ما اخرج من الكتب كان تسع قمطرات كل واحدة الى اسفل من ثديى الرجل والظاهر أن الكتب الاربعة التى نسبهما المؤرخون الى الثورى لايمكن ان تبلغ الى تسع قمطرات ، فهل لعب بها الحدثان مثل مؤلفات معاصريه ام فى الرواية مبالغة ؟ فلولا ان عندنا قول ابن قتيبة ، الذى اختاره ابن النديم ايضا لحملنا الرواية على المبالغة ، فانه قال واوصى الى عمار بن سيف فى كتبه فمحاها واحرقها (٣) فيتضح منه ان الكتب الاربعة المذكورة فى التاريخ والتذكرة

---

(١) تاريخ بغداد ـ ج ٩ ـ ص ١٦٠ (٢) تاريخ بغداد ـ ج ٩ ـ ص ١٦١

(٣) المعارف ـ ص ١٦٩ ب مخطوط وكتاب الفهرست ـ ٣١٥ .

هى البقية التى كانت قد رويت وانتشرت فى البلاد، ولذا لم تصل اليها يدالنار .

فاول تلك الكتب الاربعة .

١ ـ الجامع الكبير فى الفقه والاختلاف .

ذكره ابن النديم مع الصراحة برواته وقال يجرى مجرى الحديث وايضا ذكره ابوبكر محمد بن ابى الخير فى فهرست مروياته (١) والعلامة محمد عابد بن احمد على السندى فى حصر الشارد (٢) وكان الجامع الكبير هذا من اطول الكتب ، قال صاحب مواسم الادب(٣)جامع سفيان الثورى فى الفقه يضرب للشيء الجامع كل شيء كما يضرب لسفينة نوح قال ابن حجاج .

فقر وذل ونحول معا　　احسنت يا جامع سفيان

٢ ـ الجامع الصغير .

ذكره ابن النديم فى فهرسته وقال رواه جماعة .

٣ ـ كتاب الفرائض .

ذكره ابن النديم والعلامة السندى (٤) .

٤ ـ كتاب التفسير .

قد ذكره الحاج خليفة باسم « تفسير الثورى » لكنه لم ير نسخته بنفسه فاحال النسبة على الثعلبى بقوله «ذكره الثعلبى» (٥) وايضا ذكره العلامة السندى فى الحصر الشارد فى جملة ماقراه من الكتب ـ وقال .

اما كتاب التفسير للامام الثورى ، فأنا أرويه عن الشيخ صالح الفلانى ، عن محمد بن مسند ، عن مولاى الشريف محمد بن عبد الله باجازته ، عن محمد بن عبدالرحمن العلقمى ، عن الحافظ السيوطى ، عن الحافظ ابن حجر عن عبدالقادر ابن محمد بن على الدمشقى سبط الحافظ الذهبى ، انا احمد بن على بن الحسن

(١) الفهرست ـ ص ٢٧٥ ـ طبع سرقسطة (٢) حرف الجيم منه (٣) ـ ج ٢ ـ ص ٤٣ (٤) حصر الشارد فى حرف الفاء (٥) كشف الظنون ـ ج ٢ ـ ص ٣٥٧ طبع ليبزك المانيه .

الجزری ، انا محمد بن اسمعیل بن ابی الفتح خطیب مرو ، انا علی بن حمزة بن علی ابن طلحة البغدادی ، انا ابوالقاسم هبة الدین محمد بن عبدالواحد بن الحصین ، انا محمد بن ابراهیم بن غیلان ، انا محمد بن عبدالله بن ابراهیم الشافعی ، انا اسحاق ابن الحسن الحربی ، انا ابو حذیفة موسی بن مسعود النهدی عن سفیان الثوری (١) .

وذکر ابن الندیم فی فهرسته وابوالمحاسن فی تاریخه (٢) رسالتین له — اولها رسالة الی عباد بن عباد الارسوفی « والاخری فی موضع اسمها بیاض فی فهرست ابن الندیم ورسالته الی الارسوفی بقدر صفحة فی النصیحة والزهد نقلها الشعرانی فی الطبقات الکبری له (٣) .

النسخة الرامفوریة للتفسیر

ومن سعادة هذا العصر انی حین اشتغالی فی ترتیب الفهرس الجدید للکتب العربیة الخطیة طالعت نسخة خطیة لکتاب الابانة فی اصول الدیانة لابن بطة الحنبلی ورأیت فی آخرها اوراقا عدیدة بخط مختلف من خط اول الکتاب فظننت ان واحدا من مالکی النسخة وجدها ناقصة فاکملها بخطه ، لکن المطالعة قدهدتنی الی ان تلك الاوراق هی جزء من کتاب التفسیر لسفیان وکان هناك سفیانان فی عصر واحد ، الثوری وابن عیینة — وکان لکلیهما تفسیر القرآن العزیز — فتأملت نسبة الکتاب الی احدهما حتی وجدت دلیلین .

الاول انه ذکر فی اول سورة « والصافات » اسناد لفظه « حدثنا محمد ثنا ابوحذیفة ثنا سفیان » وابوحذیفة هذا هوموسی بن مسعود النهدی الذی لازم الثوری بالبصرة — وکان العلامة السندی قد ذکره فی اسناده المذکور آنفا لتفسیر الثوری .

والثانی انی وجدت فی اسناد الروایة فی تفسیر « والهکم اله واحد

---

(١) حصر الشارد حرف التاء (٢) الفهرست — ص ٣١٥ — ودائرة المعارف الاسلامیة ذکر سفیان باللغة الانکلیزیة (٣) الطبقات الکبری ج ١ — ص ٥٢ .

لااله الاهو الرحمن الرحيم» (البقرة) مالفظه «سفيان عن أبيه سعيد بن مسروق عن ابن الضحى» وكان سعيد اسم ابى الثورى .

بجزمت بان ما كان بيدى من الاوراق هو جزء من كتاب التفسير للثورى .

كيفية النسخة وكميتها

والنسخة مكتوبة بقلم عربى قديم بالنسخ المايل الى الكوفى على كاغد عربى لونه احمر خفيفا ـ ولايبعدان تكون قد كتبت فى المائة الخامسة .

وفى اول النسخة وآخرها خرم قليل لايمكن عمله على التخمين ايضا لان الصفحات خالية عن الاعداد، والاوراق عليها اثر البلى الخفيف ، وعدد الاوراق ٨١ ـ وعداد السطور ٢٧ - ٣١ وطول الكتاب وعرضه .... وطول الكتابة وعرضها - ٧ - ٤ .

وتبتدئ النسخة من قوله «... الاسلام يعنى طورتهم ـفنزلت « لا اكراه فى الدين » سفيان عن منصور بن المعتمر عن مجاهد فى قوله « ويلعنهم اللاعنون» قال العقارب والخنافس والدواب يقولون حبس عنا المطر بذنوب بنى آدم».

وخاتمتها ـ « سورة والطور ـ سفيان عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ان الله .... » .

وقد فسرت فى هذا الجزء من سور القرآن العزيز .

(١) البقرة (٢) وآل عمران (٣) والنساء (٤) والمائدة (٥) والانعام (٦) والاعراف (٧) والانفال (٨) وبراءة (٩) ويونس (١٠) وهود (١١) ويوسف (١٢) ورعد (١٣) وابراهيم (١٤) والحجر (١٥) والنحل (١٦) وسورة بنى اسرائيل (١٧) والكهف (١٨) ومريم (١٩) وطه (٢٠) واقترب (٢١) والحج (٢٢) والمؤمنون (٢٣) والنور (٢٤) والفرقان (٢٥) والشعراء (٢٦) وطس النمل (٢٧) والقصص (٢٨) والعنكبوت (٢٩) والروم (٣٠) ولقمان (٣١) والم السجدة (٣٢) واحزاب (٣٣) وسبا (٣٤) والملئكة (٣٥) ويس

٣٦)

(٣٦) و والصافات (٣٧) وص (٣٨) والزمر (٣٩) والمؤمن (٤٠) وحم السجدة (٤١) وعسق (٤٢) والزخرف (٤٣) والجاثية (٤٤) والاحقاف (٤٥) والفتح (٤٦) والحجرات (٤٧) وق (٤٨) والذاريات (٤٩) والطور .

وترتيب السور هو الترتيب المتعارف العثمانى ، لكن سقط من بين السور تفسير سورة محمد وسورة الدخان ، فكأنه لم يكن عنده فى تفسيرها شيء يذكر ولم يلتزم الترتيب فى الآيات ـ فتارة تفسير الآية المتأخرة مقدم على تفسير آية المتقدمة ـ وايضا تفسير بعض الآيات يوجد فى تفسير الآيات لسورة اخرى .

عداد الروايات

وعدد روايات هذه النسخة الناقصة ٨١١ ـ فيها كوفية و مدنية ومكية واكثرها مروية عن مفسرى مكة ـ لانى قد عددت ماروى الثورى عن ابن عباس فبلغت ٩٢ رواية وما رواه عن مجاهد يبلغ ٢٠٧ رواية .

وفيهاست روايات رفعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

اولاها ـ ماروى الثورى عن ابراهيم الخوزى عن محمد بن عباد المخزومى عن ابن عمر قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله جل وعز « من استطاع إليه سبيلا » قال السبيل الزاد والراحلة ـ (البقرة) .

وثانيتها ـ ما رواه عن الكلبي عن ابن صالح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر « من جاء باسير فله كذا ـ ومن جاء براس فله كذا « فجاء ابو اليسر باسيرين ـ فقال » يا رسول الله ! انك قلت من جاء باسير فله كذا ومن جاء براس فله كذا ـ وقد جئت بهذين « قال سعد بن عبادة » يا رسول الله قد رأينا مكان ما اخذوا وحرسنا ك مخافة عليك « فجعل ابو اليسر يتكلم ـ فاذا فرغ تكلم سعد بن عبادة ـ فنزلت » يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول ـ (الانفال) .

ثالثتها ـ مارواه عن اسامة بن زيد عن صالح بن كيسان عن عقبة بن عامر عن

النبي صلى الله عليه وسلم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » قال الرمي (ايضا).

رابعتها — مارواه عن عبدالرحمن بن زياد عن عبدالله بن يزيد عن عبدالله ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية وان انتم لقيتموهم فاثبتوا واكثروا ذكر الله واصبروا — وان جلبوا وصيحوا فعليكم بالصمت — (ايضا).

خامستها — ما رواه عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الغيب خمس — لايعلمهن الا الله عزوجل — لايعلم متى الساعة ولايعلم ما تغيض الارحام ولا يعلم ما في غد ولا تعلم نفس باى ارض تموت الا الله ولايعلم احد متى ينزل الغيث الا الله — (لقمان).

سادستها — مارواه عن اسمعيل بن ابي خالد عن ابي بكر بن ابي زهير قال قال ابوبكر كيف الاصلاح بعد هذه الآية ؟ يا رسول الله « من يعمل سوءا يجزبه » فان عملنا سوءا نجزبه « فقال » غفر الله لك يا ابابكر ! ثلث مرات — ألست تمرض ، الست تنصب ، الست تصيبك الادواء ، فان ذلك مما تجزون به (النساء).

وسابعتها — ما رواه الثوري باسناده عن جابر بن عبد الله في تفسير « كما بدأكم تعودون » قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث كل عبد على ما مات عليه — المؤمن على ايمانه والكافر على كفره .

وروى الثوري من الصحابة عن الخلفاء الاربعة وعبد الله بن مسعود وابي بن كعب وعبد الله بن عمر وانس بن مالك وابي سعيد الخدري ، وزبير ابن العوام وابي هريرة وعمار بن ياسر وأبي ذر وابن عباس رضي الله عنهم اجمعين — ومن امهات المؤمنين عن عائشة وام سلمة رضي الله عنهما .

لكن اكثر ما رواه ينقطع على التابعين منهم مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وابو رزين ، والشعبي ، والسدي ، وحذيفة ، وعطا ، وطاوس ، وسعيد ابن المسيب ، وشريح ، والحسن البصري ، وعبدالرحمن بن ابي ليلى ، وضحاك بن

مزاحم

مزاحم ، وعمرو بن ميمون ، وعلقمة ، وحبيب بن ابى ثابت ، وقاسم بن محمد ، ومسروق ، ومحمد بن كعب القرظى ، وابو الهيثم ، وابو مجلز۔

لطائف التفسير

ومن لطائف ما نعلم من تفسير الثورى ما رواه عن ابن عباس فى قوله « يود احدهم لو يعمر الف سنة » يقول احدهم ، اعيش هزارسال ، البقرة) لانا نعرف من هذه الرواية ان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتعلمون السنة العجم ولا يكرهونها ويستعملونها فى تفسير القرآن العزيز ايضا لسهولة من يتعلم من الاعاجم ، وايضا يظهر منها ان لسان الايران فى القرن الاول من الهجرة ، كان يشبه فارسية القرن الرابع وما بعده مشابهة قريبة۔

ومن اللطائف الادبية ايضا ما رواه الثورى عن الاعمش عن ابن الضحى قال دخل مسروق على عائشة رضى الله عنها وعندها حسان ينشدها شعر حسان .

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقلت لها « ما تدعين هذا يدخل عليك وهو من الذين تولى كبره » قالت « افلا تراه قد اصابه عذاب عظيم » .

فهذه الرواية تطلعنا على رواية اخرى لالفاظ شعر حسان بن ثابت رضى الله عنه ، فانه على ما فى الديوان المطبوع (ص ٦٠ – طبع بمبئ) .

حصان رزان الرجل يشبع جارها وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

اشاعة تفسير الثورى

واذ ليس عندنا فى التفسير كتاب للتابعين سوى هذا وكان الثورى وما قد قد منا ممن كان عنده فى التفسير شئ كثير حتى كان له ان يأخذ المصحف ويقرأه آية آية ويفسره حتى ياتى آخره فلا بد من ان نطبعه باحسن ما يكون من التصحيح والتحشية ، واحمد الله على ان قد وفقنى لهذا وادعوه ان يجعل خاتمة العمل خيرا ، واذ ليس عندى ، الا نسخة واحدة فرجو من يسمع او يقرأ

مقالتی ان یطلب نسخة اخری لهذا الکتاب الجلیل ویطلعنی علیها لیسهل علیّ أمر التصحیح الذی لا یتم الا بالنسختین علی الا قل ، و احمد الله فی الاولی والاخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة العلامة المحقق مولانا الاستاذ

عبد الله العمادى ركن دار الترجمة

ابن الهيثم وما اصّله فى علم المناظر

الحمد لله رب العالمين ، الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

وبعد فان الذين اقتفوا اثر الرسول ، واتبعوه باحسان ، وتعلموا الحكمة وتدبروا فى خلق السموات والارض ، كان منهم الحسن بن الحسن بن الهيثم ابو على البصرى المتوفى سنة ثلاثين واربعمائة للهجرة او بعدها بقليل .

١ – مكانة ابن الهيثم – وقد اجمع العلماء على جلالته حيث كان نابغة فى علم الهندسة متقنا له ، متفننا فيه ، فيما بغوامضه ومعانيه ، كاشفا لاسرار الطبيعة ، فكثيرا ما كان يبدع فيها ويجيد ، سرسورا لا اسر ولاسنيد ، فاذن ماهى آياته ؟ وكيف تختبر محكماته ؟

٢ – عند علماء الغرب – اهتم المغاربة فى البحث عن ذلك فاكثروا ذكره فى موسوعاتهم الهامة ، ودوائر معارفهم العامة ، وترجموا اسفاره فى لغاتهم ، واسفروا عن خباياه فى مدوناتهم ، لان المعارف وان اعربت عنها فى العربية فانها لاشرقية ولاغربية

تقديره فى نبوغه – فاعتبروه من اعظم علماء الرياضة والطبيعة فى القرون الوسطى واعترفوا نبوغه فى نظرياته .

(١) فى علم النفس

(٢) وفى ادراك الحس عامة .

(٣) وفى الابصار خاصة .

(٤) وفى درس الاحساس .

(٥) وفى المقابلة بين الاحساسات المختلفة .

(٦) وفى طرق التعرف عن الاحساس وتمييز بعضه عن بعض ، ولم يغادروا كبيرة ولاصغيرة من دروسه الزاهرة الا احصوها وذكروا ان آثاره ظاهرة فى النظريات الرياضية الى اليوم وباقية فى تطبيقها العملى حتى الآن .

فنشكر هم جزيل الشكر ، ونثنى عليهم جميل الثناء . اما نحن فنقتصر على ماشاهدناه فى كتبه من آيات الحكمة ، معرضين عن سيرته ، وترجمة سريرته ، لقصور الباع عن كل مايهتم به ويهم ، فعلى المرء ان يجتهد على قدر معرفته وان لم يحكم ، على حد المثل السائر « ان لا اكن صنعا فانى اعتزم » وكل يعمل على شاكلته ، وربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلا .

٣ ـ فنقول وبالله التوفيق

المناظر عند القدماء ـ ممايُنسب الى القدماء انهم كانوا يرون المبصرات فى الماء ومن وراء البلور على اشكال عجيبة تخالف مرءاها بالاستقامة فى الهواء فدرسوها وبحثوا عنها وهدوا الى ان الضوء يشرق من النير على خطوط مستقيمة فاذا صادفت سطحا كسطح الماء انعكست عنه على زوايا ونفذت فيه على سمت الاشراق عليه وانعطفت فيه على سمت الانعكاس عنه، فتحدث من ذلك اربع زوايا هى زوايا (١) الاستقامة و(٢) الانعكاس و(٣) النفوذ و(٤) الانعطاف .

فتفرعت عنها احكام فى الرؤية جلها نخالف المحسوس .

فانعموا البحث عنها ، واعملوا افكارهم فيها ، وانتهوا منها الى ان الابصار انما يكون بشعاع يخرج من البصر الى المبصر وبه يدرك البصر صورة المبصر وان هذا الشعاع يمتد على سموت خطوط مستقيمة اطرافها مجتمعة عند مركز البصر ، وان كل شعاع يدرك به بصر من المبصرات فشكل جملته شكل مخروط رأسه مركز البصر وقاعدته سطح المبصر .

اختلافاتهم ـ ثم اختلفوا فبعضهم رأى ان مخروط الشعاع جسم مصمت

متصل

متصل ملتئم .

وبعضهم ذهب الى ان الشعاع خطوط مستقيمة هي اجسام دقاق اطرافها مجتمعة عند مركز البصر وتمتد متفرقة حتى تنتهي الى المبصر، ايما وافق اطراف هذه الخطوط من سطح المبصر ادركه البصر وما حصل بين اطراف خطوط الشعاع من اجزاء المبصر لم يدركه البصر .

والذين يعتقدون ان مخروط الشعاع مصمت ملتئم فطائفة منهم ترى ان الشعاع يخرج من البصر على خط واحد مستقيم الى ان ينتهي الى المبصر ثم يتحرك على سطحه حركة في غاية السرعة طولا وعرضا لا يدركه الحس بسرعتها فيحدث بتلك الحركة المخروط المصمت .

وطائفة ترى ان البصر اذا فتح اجفانه قبالة المبصر حدث المخروط في الحال دفعة واحدة بغير زمان محسوس .

ومنهم من رأى ان الشعاع الذي يكون به الابصار هو قوة نورية تنبعث من البصر وتنتهي الى المبصر وبتلك القوة يكون الاحساس .

ورأى طائفة ان الهواء اذا اتصل بالبصر تقبل منه كيفيته فقط فيصير الهواء في الحالة بتلك الكيفية شعاعا يدرك به البصر المبصرات . ولكل منهم وجهة هو موليها

٤ ـ اهتداء ابن الهيثم

فتبين ابن الهيثم من اضطراب آرائهم واختلاف مذاهبهم ان الحقائق غامضة والغايات خفية . والشبهات كثيرة ، والافهام كدرة ، والمقاييس مختلفة ، والمقدمات ملتقطة من الحواس والحواس التي هي العدة غير مأمونة من الغلط فطريق النظر معفى الاثر ، ولذلك تكثر الحيرة وتتشتت الآراء ، وتتفرق الظنون وتختلف النتائج ، ويتعذر اليقين .

كيف كان اهتداؤه ـ فاستأنف ابن الهيثم النظر في مبادئ الفن ومقدماته باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ،

فى كل ما يخص البصر فى حال الابصار ، وما هو مطرد لايتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس ،

ثم ترقى فى البحث على التدريج مع انتقاد المقدمات والتجنب عن الخطاء فى الاستنتاج ، فظهرت له الحقيقة ولاح له الحق الصراح

٥ ـ آياته المحكمات ـ واليكم ايها السادة نبذة من ممحصاته .

شروط الابصار ـ حقق ان الابعاد التى منها يصح ان تدرك المبصرات انما تكون بحسب قوة البصر وبحسب اعظامها واضوائها والوانها ،

وهذه معان لايتم الابصار الاباجتماعها فى البصر والمبصر وفى مابينهما ،

فاما فى البصر فان يكون قويا ،

واما فى المبصر فان لا يكون فى غاية الصغر ولامظلما ولا مشفا ولا كدر اللون فى الغاية ،

واما فى ما بينهما فان يكونا متقابلين ولا يقطع الخطوط المستقيمة الواصلة بينهما كثيف ،

وهذه المعانى هى الخواص التى بها وباجتماعها يتم الابصار فالبعد الذى منه يدرك البصر المبصر ادراكا صحيحا ليس بعدا واحدا معينا ،

حدود الاشراق ـ ان اشراق جميع الاضواء انما هو على سموت خطوط مستقيمة فى مشف واحد ،

وان كل نقطة من جسم مضىء ذاتيا كان اوعرضيا فان الضوء يشرق منها على كل خط مستقيم يصح ان يتوهم ممتدا منها فى الجسم المشف المتصل بها اشراقا كريا من جميع الجهات ، وهذا بالاستقامة .

وان المنعكسة تمتد على خطوط مستقيمة مخصوصة ، وكذا النافذة فى الاجسام المشفة عند خروجها منها .

وان الاضواء التوانى اضعف من الاول وكلما بعدت ازدادت ضعفا .

اللون مع الضوء ـ ان الالوان توجد ابدا ممتدة مع الاضواء ممازجة

لها

لها وذلك خاصة طبيعية للالوان قويها وضعيفها ، فان لم يظهر ضعيفها للبصر فلقصور الحس عن ادراك ذلك .

حقيقة اللون – اعتقد قوم ان اللون لا حقيقة له ، وانه شيء يعرض بين البصر والضوء كما يعرض التقازيح .

وليس الامر على ما اعتقدوه فان التقازيح انما تكون بالانعكاس والانعكاس لا يكون الا من موضع مخصوص .

والتقازيح التي تظهر فى بعض ارياش الحيوانات انما هى انعكاس الاضواء وانعطافها على سطوح تلك الارياش ، ولذلك تختلف صورها بحسب اختلاف الاضواء ، وكذلك تختلف باختلاف اوضاع تلك الحيوانات من البصر .

ادراك الاجسام المتلونة – ان الاجسام المتلونة انما يدرك البصر الوانها بحسب الاضواء المشرقة عليها ، فان الصورة التي يدركها البصر من المبصر انما يكون بحسب الضوء الذى فى المبصر وبحسب الاضواء المشرقة على البصر حالة الابصار ، وعلى الهواء المتوسط بينهما .

كيف يصح الابصار – ان الابصار انما يصح بورود صور المبصرات الى البصر وحصولها فى سطح الطبقة الجليدية ونفوذها فى جسمها على سموت الاعمدة ، ثم تأديها الى العصبة المشتركة ، ثم احساس الحس الاخير بها عنده فان التقى الصورتان وتطابقتا ادركت واحدة والا اثنتين .

عند التباين بين اللون والضوء – ان المبصرات المتجاورة اذا كانت الوانها واضواؤها متباينة تباينا مفرطا فى القوة والضعف فان الضعيف يخفى عند اقترانه بالقوى .

وسط البصر – ان الابصار بوسط البصر وبالسهم ابين و[illegible] تحققا منه بحواشى البصر ، وبالخطوط المحيطة بالسهم ، وبما قرب من السهم ابين منه بما بعد عنه .

انواع المدركات – ان المعانى التى تدركها [illegible] يدركها بمجرد

الحس وهي الاضواء والالوان ، ومنها ما يدرك بالمعرفة ، ومنها ما يدرك بتمييز وقياس يزيد على مقاييس المعرفة .

ابعاد المبصرات – ان ابعاد المبصرات ليس منها شيء يتحقق مقداره الا التي تسامت اجساما مترتبة متصلة وكان البعد معتدلا .

٦ – بين الضوء واللون

زعموا ان الضوء شرط وجود اللون في نفسه ، فاللون انما يحدث في الجسم بالفعل عند حصول الضوء فيه ، وان اللون لا يوجد في الظلمة لفقدان شرط وجوده حينئذ بل الجسم في الظلمة مستعد لان يحصل فيه عند الضوء اللون المعين فانا لا نراه في الظلمة ، فعدم رؤيتنا اياه اما لعدمه في نفسه او لوجود عائق عن رؤيته وهو الهواء المظلم ، والثاني باطل لان الهواء المظلم غير مانع من الابصار فان الجالس في غار مظلم يرى من في الخارج اذا اوقد نارا ووقع عليه ضوؤها والهواء الذي بينهما مع كونه مظلما لا يعوق عن رؤيته ، وكيف تكون الظلمة عائقة من الرؤية مع كونها امرا عدميا .

مذهب ابن الخطيب – واختار الامام الرازي ان الضوء شرط لرؤيته لا لوجوده فان رؤيته زائدة على ذاته والمتحقق عدم رؤيته في الظلمة واما عدمه في نفسه فلا ، فانتفاء الرؤية في الظلمة لعدم شرط الرؤية لا لوجود العائق عنها ولا لعدم اللون في نفسه ، والجالس في الغار انما لا يراه الخارج عنه لعدم احاطة الضوء به فان شرط الرؤية ليس هو الضوء كيف كان بل الضوء المحيط بالمرئى ولذلك يرى الجالس الخارج المستضيء بالنار .

استدلال ابن الهيثم – قال ابن الهيثم مستدلا على ان الضوء شرط لوجود اللون . انا نرى الالوان تضعف بحسب ضعف الضوء فكلما كان الضوء اقوى كان اللون اشد وكلما كان اضعف كان اضعف ، فكل طبقة من الضوء شرط لطبقة من اللون لانتفاء الثانية بانتفاء الاولى ، فاذا انتفى طبقات الاضواء كلها انتفى ايضا طبقات الالوان بأسرها .

الدلالة على المدلول ــ وهذا يوجب ان هذه الالوان التى هى فى ضمن هـذه الطبقات تنتفى فى الظلمة لانتفاء شروطها التى هى طبقات الاضواء ، فينتفى اللون المطلق ايضا لان العام لايوجد الا فى ضمن الخاص .

نوع من الاحتمال ــ ولما احتمل ان يكون للون طبقة توجد فى الظلمة فقط ولايحس بها نيوجد اللون المطلق فى ضمنها قال ــ ويحدس منه انتفاء اللون مطلقا .

الاعتراض على ابن الهيثم ــ واعترض المتكلمون عليه بانه قداعترف بان ما ذكره محتاج الى الحدس ، فلايكون حجة على الغير . ومذهبهم ان الرؤية سواء كانت متعلقة بالالوان اوبغيرها امريخلقه الله فى الحى على وفق مشيئته ولايشترط بضوء ولامقابلة ولاغيرهما من الشرائط التى اعتبرها ابن الهيثم وغيره من الحكماء ، ونحن لانتعرض للبحث عن ذلك لانه خارج عما نحن فيه .

تقرير الاعتراض ــ ولايتجاوز اعتراضهم عن كلمة « الحدس » فقالوا ان ابن الهيثم اعترف بان ماذكره محتاج الى الحدس ، فلايكون حجة على الغير لان الحدس لايفيد اليقين ولايتم به الاستدلال .

تمحيص اللغة ــ فزعموا ان الحدس هو التوهم فى معنى الكلام والامر من غير تحققه ، وحدس الظن انما هو رجم بالغيب ظناً وتخميناً .

وقد اصابوا فى ذلك ، ولكن الكلمة لاتنحصر على معناها الواحد بل لها معان اخر ايضا ، منها الاناخة ، والنحر ، والصرع ، والسرعة .

ومن امثالهم السائرة « حدس لهم بمطفئة الرضف » اى بشاة مهزولة ، او انه ذبح لاضيافه شاة سمينة اطفأت من شحمها تلك الرضف .

ويقولون « اذا امسى النجم قم الرأس فعظمها فحدس » اى نحر اعظم الابل .

حقيقة الحدس ــ وأصل الحدس عند العرب الرمى .

والرمى قديكون على اصابة واستقامة . ومنه الحدس بمعنى السرعة والمضى

على الاستقامة ، ويوصف به فيقال سير حدس ، والشاهد على ذلك قولهم .

كأنها من بعد سير حدس

وقد يكون على غير هداية وغير طريقة مستمرة ، ومنه ، حدس الكلام على عواهنه ، اى تعسفه ولم يتوقه .

وانت خبير أن ابن الهيثم لايذهب الى هذا المعنى ، وانما عنى معناه الاول (الاصابة والاستقامة) .

اصطلاحهم فى التعبير عن الحدس — والذين اعترضوا عليه يا ليتهم اطلعوا على اصطلاح القوم فانهم يعبرون عن الحدسيات بالمسائل اليقينية ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، فقد صرحوا عند ما ذكروا موضوعات المناظر أنهم يبحثون عنها من جهات ومبادى بعضها من الطبيعى وبعضها من الهندسة وبعضها من المجسطى وبعضها مشاهدات وبعضها حدسيات ومسائل يقينية هى كيفية الابصار اجمالا وادراك المعانى الجزئية البسيطة الاثنتين والعشرين تفصيلا الخ وبهذا تتبين ان المسائل الحدسية عندهم من اليقينيات فزال الاشكال ، واتضح الحق ، وبطل ما كانوا يوردون .

٧ — اما مسائله فى رسائله فا ليكموها مشبعة

الاضواء فى نجوم السماء — قاسوا الكواكب على القمر واذ قد تبين لديهم ان جرم القمر غير مضيء وان الضوء الذى يظهر فيه انما يكتسبه من ضوء الشمس جوّزوا أن تكون الكواكب ايضا على مثل ما عليه القمر من اكتساب الضوء ، الا انهم لم يأتوا على ذلك ببراهين ولا مقاييس ، وانما اعتقدوه على طريق التظنى ، فانعم ابن الهيثم النظر فى اضواء الكواكب وفى خواصها المطردة فيها فحقق انها مضيئة من ذواتها بخاصة تخص جوهرها ولا يكتسب احد منها الضوء من غيره .

البحث عن الضوء — ان الاجسام الملونة اذا صارت ظاهرة بالفعل مستنيرة فان ذلك الظهور إما كيفية ثابتة فيها منبسطة عليها من غير أن يقال انها

 سواد

سواد اوبياض اوصفرة اوحمرة ، واما لمعان وهو الذى يترقرق على الاجسام ويستنيرلونها وكأنه شىء يفيض منها ، وكل واحد من القسمين إما ان يكون له من ذاته اومن غيره .

فالظهور الذى للشىء من ذاته يسمى ضوءا والظهور الذى للشىء من غيره يسمى نورا ؛ والترقرق الذى للشىء من ذاته كما للشمس يسمى شعاعا ، والذى يكون للشىء من غيره كما للمرءاة يسمى بريقا .

ثم اختلط الامر عليهم ، فحقق ابن الهيثم ان الضوء بمعنيين

فالضوء عندالفلاسفة فى كل جسم مضىء من ذاته وهو صورة جوهرية فى ذلك الجسم ، والضوء العرضى هو صورة عرضية تظهر على الاجسام الكثيفة التى يشرق عليها الضوء .

والضوء عند اصحاب التعاليم حرارة نارية — الذاتى منه والعرضى — وانما يظهر فى الاجسام المضيئة كما تظهر النار فى الاجسام الحاملة للنار .

والشعاع هو كل ضوء يمتد على خطوط مستقيمة فى جسم مشف .

والاجسام المشفة هى كل ما ينفذ الضوء فيها ويدرك البصر ماوراءها وهى تنقسم على قسمين ، احدهما هو ما ينفذ الضوء فى جميعها ، والآخر ما ينفذ الضوء فى بعض اجزائها دون بعض .

وشفيف الاجسام المشفة هو صورة مؤدية للضوء ، ويعتبر اختلاف الشفيف بزوايا الانعطاف ، فالذى احدث الزاوية الصغرى هو اشد شفيفا .

المرايا المحرقة بالقطوع — الشعاع قد ينعكس من بسيط المرايا المسطحة وقد ينعكس من سطوح المرايا الكرية ، وتختلف المواضع التى ينعكس اليها الشعاع بحسب اختلاف مقاديرها .

الا ان الشعاع الذى ينعكس عن المرءاة المسطحة الى نقطة واحدة انما ينعكس من نقطة واحدة فقط ، والذى ينعكس من المرءاة الكرية انما ينعكس من محيط دائرة واحدة من الدوائر التى تقع فى تلك الكرة .

فاتخذ وامرايا مسطحة كثيرة العدد مضافا بعضها الى بعض ينعكس الشعاع من جميعها الى نقطة واحدة ، واتخذوا مرايا كرية مقعرة .

ومنهم من اتخذ مرايا كرية كثيرة تنعكس شعاعاتها الى نقطة واحدة ليكون الاحراق اقوى .

والسطح المقعر من الجسم المكافىء تنعكس الشعاعات من جميع بسيطه الى نقطة واحدة بعينها ، فالاحراق الذى يكون من المرءاة التى على هذا الشكل يكون اقوى من احراق جميع المرايا التى على غير هذا الشكل .

الا انهم لم يشرحوا البرهان على هذا المعنى ولا الطريق الذى به استنبطوا ذلك شرحا مقنعا .

فاوضحه ابن الهيثم ولخص البرهان على علم حقيقته وذكر طريق العمل فى اتخاذه وترتيب آلته ، وهو السابق فى كل ذلك .

المحرقة بالدائرة — استنبط اتخاذ المرايا المحرقة بالدائرة على اى بعد شئت اذا لم يكن من الابعاد المتفاوتة وباى قوة فرض الاحراق ، واتخذ مرءاة يكون احراقها فى موضعين على بعدين مفروضين احدهما فى داخل الدائرة والآخر خارجها .

المكان — ان الابعاد المتخيلة التى بين النقط المتقابلة من السطح المحيط بالجسم هى المكان الذى قد تمكن فيه الجسم الذى ليس يزيد على مقدار الجسم ، ومن اجل تلك الابعاد من بعد تمكن الجسم فيها ومن بعد انطباق ابعاده على الجسم عليها يتحد بابعاد الجسم ويصير ابعادا للجسم ، فيكون الخلاء المتخيل المساوى للجسم الذى قد ملأه الجسم هو ابعاد الجسم نفسه ، فمكان الجسم هو ابعاد الجسم .

شكل بنى موسى — محمد واحمد والحسن بنو موسى بن شاكر من المتقدمين فى الهندسة والرياضة وهيأة الافلاك وحركات النجوم والحيل وقد اظهروا عجائب الحكمة ايام المأمون بن الرشيد العباسى .

وقد صنفوا كتابا فى براهين المخروطات ، فظهر لابن الهيثم ان احد

الاشكال

الاشكال التى قدموها فى ذلك الكتاب — وهو الشكل الاخير من مقدمات — على غير الصفة التى وصفوه بها .

وذلك انهم جعلوه كليا وهو جزئى ولحقهم سهو فى البرهان عليه ، وهو شكل يحتاج اليه فى بعض براهين المخروطات ، ولاجل ذلك حققه ابن الهيثم وشرح صورته وبيّن انه جزئى يصح على بعض الاوضاع ويبطل فى بعضها ، لكن الذى يستعمل منه فى براهين المخروطات هو من الاوضاع التى تصح ، وان الاوضاع التى تبطل ليس يستعمل شيء منها فى المخروطات .

المساحة — اصّل اصولا راسخة تتبين بها كيف تمسح قواعد الاساطين والمخروطات المستديرة والدوائر الكبيرة واستخراج ارتفاعات الاجسام اذا كان ارتفاعها مجهولا من جبال اوابنية لا يوصل الى رؤسها ولا الى مساقط اعمدتها .

وكل ذلك مبرهن بالبراهين الهندسية اليقينية .

ضوء القمر — من المعروف عند القوم ان ضوء القمر انما هو مستفاد من الشمس ، وان سطحه المضيء هو الذى يكون مقابلا لجرم الشمس ، وان الارض اذا سترت عنه ضوء الشمس فى كسوفها عاد الى جوهره .

ومنهم من زعم ان القمر لاضوء له ، وجرمه كرى كثيف املس صقيل اذا قابلته الشمس وانتهى شعاعها الى سطحه انعكس عنه وامتد فحيثما صادف جسما كثيفا اشرق عليه . وان اللون النير الذى يرى للقمر عند بعده من الشمس انما هو ضوء الشمس المشرق عليه .

ذكروا كل ذلك مرسلا لا مبرهنا فلايوجد لأحد منهم قول برهنى يدل على ان ذلك واجب ضرورة ، ومالم يقم البرهن على وجوبه يحتمل ان يكون مظنونا لا متيقنا ، والنفس تتوق الى الوقوف على هيئات الامور الموجودة ولا تسكن الا عند اليقين الذى تسقط معه الظنون .

فأفصح ابن الهيثم عن حقيقة ضوء هذا الجرم ودعته هذه الحال الى البحث

عن كيفيته واستقصاء النظر فيه وكشف ما هو ملتبس من امره بأدلة حقة لا يشوبها الباطل ٠

٨ ـ تصانيفه

وله تصانيف غزيرة نقلوا بعضها الى اللاطينية والالمانية واستوفوا البحث عنها ، وبعضها رسائله هذه التى اعتنت بنشرها دائرة المعارف العثمانية فخدمت بذلك العلم اطيب خدمة لا ينسى اولو الفضل عرفها مدى الزمان ، ولعل الله يوفقها بنشر ما لم يندثر منها ٠

٩ ـ شظفه فى عيشه ـ عاش طول عمره عيشة هنيئة هادئة فى خدمة العلم بين تصنيف وتأليف وانتساخ ، فكان ينسخ فى مدة سنة ثلاثة كتب فى ضمن اشغاله وهى اقليدس والمتوسطات والمجسطى ، ويستكملها فى مدة السنة ، فاذا شرع فى نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين دينارا ، وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتاج فيه الى مواكسة ولا معاودة قول ، فيجعلها مؤنة لسنته ٠ وفيه عبرة للذين جل همهم ان تزادر واتبهم ولو ينقص مراتبهم ـ القدر ناصبة والقدر مخفوض .

١٠ ـ عمله الذى تم بعد تسعة قرون ـ بلغ الخليفة الحاكم بامر الله صاحب مصر خبر ابن الهيثم ونقل اليه عنه انه قال لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من زيادة ونقص ، فدعاه الحاكم اليه واكرمه وطالبه بما وعد به من امر النيل ، فسار ومعه جماعة من الصناع ليستعين بهم على هندسته التى خطرت له ، ووصل الى الموضع المعروف بالجنادل قبلى مدينة اسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعاينه وباشره واختبره من جانبيه ، فوجد امره لا يمشى على موافقة مراده لكثرة النفقات فى عمله وقلة المساعدين له مع ما بلغه من الخليفة بانه « كثير الاستحالة ، مريق للدماء ، بغير سبب او باضعف سبب ، من خيال يتخيله » فاعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه .

والذى نواه ابن الهيثم تم عمله لمصر بعد تسعة قرون او ازيد منها على صورة خزان اسوان ، وضمير الفضل يرجع فى كل ذلك الى مرجعه المتقدم .

بسم الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة الاستاذ الجليل الناقد فى علم الادب
والتاريخ شمس العلماء عبدالرحمن الدهلوى

كلمة فى المستشرقين

المستشرق ـ وهو كلمة مولدة ـ يطلق على من له المام بلغات المشرق وآدابها من الافرنج ، والمشرق فيه اقوام وبلاد ولها ألسنة عديدة وحضارات مختلفة ، فالذين توفروا على درس المشرق وآدابه وعنوا بالتنقيب عن تاريخه وآثاره وبحثوا عما كان عليه اهله فى غابر الزمان من شئون حياتهم وعماهم عليه فى العصر الحاضر يقال لهم المستشرقون فنطاق بحثهم كما هو ظاهر واسع جدا وما نحن فى مقالتنا هذه الابصدد كلمة فى المستشرقين المستعربين الذين لهم عناية خاصة بلغة العرب وآدابه وديانة الاسلام وثقافته وهؤلاء المستعربون كلهم من اليهود والنصارى .

ظهر الاسلام فى العرب الوثنيين بمكة ونشأ بينهم وبين اليهود والنصارى فى طيبة حتى علت كلمته وقويت شوكته فغلب المسلمون عليهم اجمعين وملكوا العرب كله ودوخوا ارض المجوس وجاسوا خلال بلاد الروم والترك والبربر والهند وغيرها حتى جازوا الى المغرب قبل انتهاء القرن الاول من الهجرة وفتحوا اسبانيا وولايات من برتقال وايطليا الى تخوم افرنسة وسموها اندلس وحكموا عليها الى قرون ففتح المسلمون فى ثمانين سنة من الممالك والبلاد مالم يتيسر فتحها للروم فى ثمانية قرون ولم يكن لهم ثقافة الا ثقافة دينية .

لما دخل العرب فى غمار الناس من اقوام مختلفة واختلطوا بهم ـ وفيهم الحضارة العلمية والصناعية ـ اخذوا منهم ثقافة علمية وصناعية وصبغوا ثقافتهم الدينية بصبغتها واجادوا فيها وزادوا وسادت مدنيتهم على مدنيات العالم كلها فاندرست الثقافة المجوسية فى ارض فارس والترك وصارت كأن لم تكن شيئا مذكورا، واما الحضارة البزنطينية فأخذت فى الاضمحلال بضعف قوتها السياسية

ودخلت فى دور الاحتضار ولم تستطع القيام امام الحضارة الاسلامية العربية التى كان اصل مستقرها بغداد قاعدة العباسيين فى العراق وبالشرق .

اما المغرب وفيه رومية مهد حضارة الروم وكرسي البابا واكبر المصادر وأجلها للثقافة الدينية المسيحية ـ فلما تأصلت الحضارة الاسلامية العربية فيه وسبقت وجعلت الاندلس تضاهى العراق والشام فى علومها ومدنيتها تضاءلت الحضارة الرومية امامها وتضعضعت وخضعت لها خضوعا علميا وان لم تخضع دول اوروبا للعرب وسلطانهم خضوعا سياسيا وآية ذلك ان ملوك اوروبا وعظماءها لما رأوا تقدم العرب فى العلوم والحضارة وتقهقر بلادهم فى تلك المزايا طفقوا يرسلون ارساليات من طلاب العلوم الى الاندلس ليغترفوا من بحرهم ويتولوا تعليم اهل بلادهم بعد رجوعهم الى اوطانهم فذلك كان اول شعاع من الاستشراق تشعشعت على ارض الافرنج واهلها .

قال الباحثون عن تاريخ الاستشراق فى بلاد اوروبا انه بدأ الافرنج يهتمون باللغة العربية من القرن العاشر للميلاد فلما برع بعض منهم فيها جعل الناس يتسابقون بينهم ويتنافسون فيها حتى كان احد هؤلاء السابقين الاسقف سلسفتر الثانى الذى انتخب بعد ذلك البابا خليفة ابولوس فى رومية ثم ازدادت تلك النزعة فى الناس عاما فعاما الى ان صارت مدائن العرب فى الاندلس مأهولة بالطلاب النازحين اليها من الافرنج الذين كانوا يقرؤن على المسلمين المنطق والالهى من الحكمة واقليدس والمثلثات والدوائر والمخروطات والمتوسطات والعدد والجبر المقابلة والاوفاق والمساحة والخطأين والهيئة والنجامة من العلوم الرياضية، والطب والكيمياء والنبات والثقل والمرايا والمناظر وغيرها من الطبيعيات .

ومن المعلوم انه لما فشل الافرنج فى الحروب الصليبية فشلا ظاهرا جعلوا يهتمون بالحرب الاخلاقية والسياسية خلاف الاسلام واهله فعقدوا مؤتمرا فى فينا بأوائل القرن الرابع عشر تحت رياسة البابا كليمان واستشاروا

فى طرق يتغلبون بها على المسلمين خاصة وعلى غيرهم من المشارقة عامة فاتفق الرأى على تأسيس المدارس فى معظم بلدان اوروبا واهمها لدرس اللغات الشرقية فيها وتخريج وعاظ اشداء مهرة فى المجادلة الدينية لتنصير المسلمين واليهود واصلاح المسيحيين الشرقيين الذين كانت عقائدهم قد فسدت فى زعمهم لضعف الكنيسة الشرقية فمعا هذا التبشير مهدت والمدارس اسست والوعاظ رشحت والدعاة منهم ارسلت الى ارض المشرق ولانهم عاشوا فى المشرق الى زمان طويل وخالطوا المشارقة وسكنوا اليهم فتعلموا لغاتهم اللاتى هم يتكلمون بها ثم انهم لما رجعوا الى اوطانهم وبلادهم وذكروا للناس ماراوه من حالات الشرق وكمالاته ازداد الناس ميلا الى المشرق وآدابه ولغاته وكانت العربية واحدة منها واهمها .

وكان العلم فى اوروبا فى قرونها المظلمة مختصا بارباب الكنيسة اوالذين يرشحون انفسهم لخدمة الكنيسة وما كان يكتب ولا يقرأ الا عدد قليل من الشرفاء لان بابوات الكنيسة الكاثوليكية كانوا حاجزين بين العلم وبين جمهور الناس لاسيما اذا كان العلم ماسا ــ ولوادنى مساس ــ بالدين وعقائد الكنيسة ولعلكم انتم تعلمون ماقاسى العلماء الذين ماكانوا يعتقدون ببعض عقائدالكنيسة فى اكسفورد وغيرها من الكليات فى انكلترا والمانيا من الاضطهاد وسوء العذاب لما اعلنوا باالكلمات الحقة العلمية فى الناس وكان الحال على هذا المنوال حتى قام مارتن لوثر بالاصلاح الدينى ففك قيود الكنيسة واطلق رقاب الناس عن اغلالها وجاء بحرية الافكار فصار الناس يتعلمون عامة فنهضت اوروبا نهضة علمية واتبعتها نهضة سياسية استعمارية واحتاج الناس الى السنة المشرق عامة والى العربية خاصة لشدة حاجتهم اليها فى الاستعمار عدا و ر الدين فكثر طلاب اللغة العربية وغيرها من لغات الشرق وغابت على بعضهم نزعة علمية محضة وسمت بهم هممهم الى مطامح عالية خالية من شوائب اغراض غير علمية فوقفوا حياتهم على درس المشرق وآدابه والتنقيب عن آثاره وتاريخه ورأى الناس

تفانيهم فى الشرقيات فلقبوهم (اورى انت لست) اى المستشرقين فمنهم اثريون لهم عناية خاصة بتنقيب آثار مطمورة تحت الارض مطموسة اوباقية على ظهرها دارسة للبحث عنها بحثا تاريخيا . ومنهم الذى يدرسون اسفار الكتب وما فيها من العلوم بانواعها من الخرافات الى الحقائق فهؤلاء هم الذى يقال لهم المستشرقون فى اصطلاح عصرنا هذا ويقال انهم يخدمون الشرق والشرقيات والمستعربون منهم يخدمون العربية وآدابها ونحن نريد أن نقول كلمة فى مثالبهم خاصة بعد كلمة فى فضائل المستشرقين عامة .

ومن فضائل المستشرقين انهم يقاسون فى سبيل العلم صعوبات ولا يملون ولا يسأمون وربما يقضون اعمارهم فى تحقيق مسئلة واحدة وتمحيصها وان مات احد منهم ولم يستتب له ماكان يريد من عمله يتعهد به الى رجل آخر منهم فيتم عمله ويحيي اسمه وذكره بعمله واستدراكه عليه .

ومنها انهم يساعدون بعضهم بعضا فى اعمالهم العلمية ولا يضنون فيما عندهم من المعلومات او المواد العلمية اذ يحتاج اليه رجل منهم اومن غيرهم من العلماء فى عمله من التحقيق والتنقيد ، ولهم طريقة خاصة للمطالعة وهى انهم لايعتمدون عند المطالعة على حفظهم وذاكرتهم بل كلما عثروا على جملة اوعبارة مهمة ــ فى اى موضوع كانت ــ ينقلونها على بطاقة صغيرة اوفى دفتر خاص بالاقتباسات ويكتبون على جانبها اشارة الى ما تتعلق به من المباحث العلمية ويضيفون اليها بعض ملاحظات لهم ان سنحت لهم عند مطالعة الكتاب مشيرين الى مصادرها فلايأتون على آخر الكتاب الاومغزى الكتاب يكون فى ايديهم وهذه المواد تزداد كل يوم بمطالعتهم وربما تكون مفتاحا لباب مغلق من علم حديث فيسهل عليهم الانتفاع بتلك المواد فى ترتيب كتاب جديداو تنقيد مسألة قديمةفلذلك نرى انهم يأتون بطرائف علمية لم يأت بها احد من علماء الشرق ونجد فى تأليفاتهم ومقالاتهم علما جما فى مكان واحد لا نجده فى غيرها من الكتب القديمة الا نادرا .

 ولهم

ولهم شغف مفرط بتحقيق الامور و تنقيدها بطريقة علمية فهم لايؤمنون بكل سواد على بياض ولا تطمئن قلوبهم الابالدليل والاسناد الصحيح وان كان الامر امراهينا وعلى ذلك انهم لاينتقدون الابسكينة ووقار لايبخلون ولايبخسون فى قيمة عمل عامل وينالون من شرفه ولا يفخرون عليه ولايغلظون فى الرد والخطاب وكل ما يكتبون من كتب اومقالات يذكرون مصادرها البتة ليسهل الرجوع اليها للقارى ان احتاج اليها عند التحقيق و التنقيد فلهم فى عملهم وتنقيدهم طريقة علمية معتدلة سوية لا يتجافون عنها الا فى فلتات و طفرات ولذلك اسباب ولهم اعذار كما ستأتى .

والآن نبدأ بكلمتنا فى المستشرقين المستعربين. واما المستعربون فمنهم الذين نجحوا فى العربية ببعض كليات اوروبا ثم بقوا ببلادهم عاكفين على مطالعات الكتب ودرسها والبحث عما فيها من العلوم والترجمة منها الى لغات بلادهم او التأليف فيها حتى علاشأنهم وطارصيت فضلهم الى اقطار العالم . ومنهم الذين تعلموا العربية فى كلية ثم سافروا الى بلاد عربية اللغة لدعاية الناس الى دينهم كالموظفين بالمعاهد الدينية اوالمدارس والمستشفيات وغيرها اولخدمة استعمارية لدولهم كالسفارة والقنصلية والكتابة والوكالة وغيرها اولطلب البراعة فى العربية وما اليها فخالطوا العرب واقاموا فيهم الى زمان طويل واستفادوا منهم وجعلوا يتكلمون فى العربية كأنهم من العرب ولكن مع هذا كله لم يتمكن احد منهم قط من القبض على ناصية اللغة العربية أفلا ترى انه مانبغ فيهم الى يومنا هذا شاعر مفلق اوكاتب اديب ومن كتب احيانا رسالة اومقالة فى العربية اوعلق شرحا على كتاب من عند نفسه خبط فيه خبط عشواء واستقصاء هذا البحث ليس من مطالبنا فى هذا المختصر فمن يرد الاطلاع على ذلك فليرجع الى ماكتب العرب انتقادا عليهم من المقالات والرسائل ككشف المخبأ عن فنون اوروبا لاحمدفارس الشدياق اورسالة الشيخ ناصيف اليازجى البيروتى الى البارون رساسى اكبر شيوخ المستعربين فى اوروبا

ولكن مع ذلك لا ننكر أن للمستعربين علما واسعا بما يتعلق بالعرب والعربية وآدابها ونظرا دقيقا فى تاريخها وعلومها ولهم لضعف ملكتهم فى العربية عذر واضح مقبول عند المنصفين وهو انك لاترى احدا من المستشرقين الاوله دخل فى عدة لغات والملكات اللسانية اذا ازدحمت واختلطت بعضها بالبعض تفسد كلها ولا تكمل واحدة منها الى حد الكمال فلامعرة على المستعربين فى هذا النقص لانهم اشد حرصا على العلوم والحقائق بالنسبة الى اللغة واساليبها فلايلتفتون اليها حق الالتفات ويصرفون همتهم الى مايوجد فى الكتب العربية من علوم العرب وثقافتها فينقلون الى لغاتهم اهم الكتب العربية من فنون شتى كالادب والاخلاق والحكمة والتاريخ والجغرافية والطبيعية والرياضية فترى تراجم كتب العلوم عن العربية الى لغات اوروبا اكثر مماترى فى غيرها من الالسنة كالفارسية والتركية وهما لغتا ملايين من المسلمين منذ عهد بعيد وعلى ذلك لهم مزية لسانية اخرى وهى نجاحهم فى استنباط علم حديث يبحثون فيه عن اصول اللغات وفروعها ويستدلون به بمقارنة بعض اللغات ببعضها على ان الالسنة كلها اوجلها ترجع الى اصل واحد وهو علم حديث غريب مفيد يقال له فيلالوجيا اى الفلسفة اللغوية وللمستشرقين فيها يد طويلة ولاحظ للشارقة فى هذا العلم اوهم عيال على المستشرقين فى هذا الفن ٠

والفضل كل الفضل للمستشرقين المستعربين فى انهم عنوا عناية خاصة بجمع الكتب العربية وتأسيس دورها الشخصية والرسمية حتى اجتمعت فيها آلاف آلاف من كتب قيمة قد ضاعت من ايدينا لغفلتنا وزوال سلطاننا ووقعت بايديهم لسعيهم وسعد حظهم فصارت مكاتب الدول والكليات اثمن من خزائن الاعلاق والطرائف ثم انهم رتبوالها فهارس علمية لهداية الطالبين الى منزلة كتاب وكتاب وصاغوا الطبع تلك النفائس ونشرها حروفا من الرصاص ثم نشروا منها آلافا من كتب لها اهمية كبرى ولايزالون فى طلب نوادر من مظانها ويحسنون بنشرها الى كل من ينطق بالضاد لانهم سهلوا لنا الوصول الى تلك

الكتب

الكتب النادرة التى تصف لنا ما كان عليه اسلافنا الماجدون من العلوم والثقافة فى ابان حضارتهم العالية فنشكر لهم شكرا جميلا لا مزيد عليه لرد بعض ثروتنا العلمية الينا وان كانت لهم اولبعضهم مآرب اخرى فى هذا الجميل .

ومن مزايا كتب ينشرها المستشرقون اتقانها فى الصحة والضبط وهو دليل على دقة نظرهم فى ضوابط اللغة وقواعدها ولعله يكون من سوء الظن بهم ان هذا الفضل يرجع اولا الى مراجعتهم الى اصول متعددة من الكتب محفوظة فى دور الكتب عندهم من المخطوطات القديمة الموثوقة بها فتجىء منشوراتهم اصح واوثق من كتب تنشرها المشارقة من المسلمين عامة ولكن فضل عملهم على كل حال لاينكر لانهم ولاريب فيه اشد حرصا منا فى رد الكتاب الى نصابه من الصحة والضبط والاشارة الى مصادر قرآات مختلفة وزد على ذلك انهم يضيفون بمنشوراتهم فهارس ابجدية للاسماء والمواضع ومفردات اللغة مفيدة عند المراجعة الى كل ما يحتاج اليه من مثل تلك الكتب المهمة فتضاعف فائدة منشوراتهم .

ولكن لاتظن ان كل ما ينشرون من الكتب يكون متقنا صحيحا خاليا من الاغلاط قاطبة فانك تجد فيهم انفارا متبجحين مثل الدكتور برونله الذى حازشهادة الدكتوراه فى آداب اللغة العربية من احدى كليات المانيا ثم انتخب عضوا فى مجامع علمية عديدة بالمانيا وافرنسة وانكلترا وارلينده وامريكا ثم انه شمر ذيله لخدمة العلم والادب فدبر ونشر كتابا بعد الاستفادة من الخلائق والاستعانة بهم وهو كتاب املاه الشيخ العلامة الحافظ المحدث الفقيه ابوذر بن محمد بن مسعود الخشنى على غريب السيرة النبوية لابن هشام وكتب فى اول الكتاب مقدمة فى الانكليزية ذات صفحة منمقة اطرى فيها فى شأن تدبيره وتبجيل عمله كأنه اتى بآية لم يقدر عليها احد من المشارقة المستشرقين ولكن نجد كتابه مغشوشا من اوله الى آخره مغلوطا بعيدا عن الصحة والضبط الى غاية لاغاية بعدها .

اما تصنيفات المستعربين وتاليفاتهم فى لغات بلادهم كالانكليزية والالمانية وغيرها فعلى انواع فمنها ما كتبوا فى صرف العربية ونحوها والعروض والقافية ومفردات اللغة وغيرها فلاشك انه عمل عظيم واساس متين قامت عليه بناء الاستشراق وصرحه والمستشرقون قاسوا فى تسويته اتعابا شديدة حتى تمكنوا منه ولاريب انه خدمة علمية خالصة ولكن تلك الكتب ليست لها رابطة بموضوع بحثنا . ومنها ما كتب المستشرقون من الكتب فى لغات اوروبا ويكتبون فى تاريخ عرب الجاهلية والاسلام وآدابهم وعلومهم ودولهم ونظامهم وعزهم وذلهم ودياناتهم وثقافتهم فى حياتهم ومعاشهم واخلاقهم وسياستهم ومعاشرتهم بازواجهم واماءهم وعبيدهم ومواليهم وبذخهم وسرفهم فى اموالهم ومصافاتهم بالعروبية ومناواتهم بالشعوبية وغيرها من الامور العمرانية ما لا يعدو لايحصى فتلك الكتب لها قبول واحترام فى نفوس الافرنج وقلما ينشر كتاب على موضوع من مثل هذه المباحث الاوينقل الى لغات اخرى اوروباوية والكتاب الذين لهم ادنى علاقة بسياسة الشرق وديانة المشارقة من العرب وغيرهم من المسلمين يقتبسون ويأخذون مما فيه من الباطل والخزعبلات ماهو مفيد فى اغراضهم ومطالبهم فيضلون عن سواء السبيل ويضلون الناس عنه ويفسدون الراى العام بحق المسلمين فى اروبا بل فى العالم كله ولا نجد بؤرة هذا الفساد كله الا تحت اقلام المستشرقين.

وهل تعلمون ايها السادة كيف دخل الباطل فى كتب المستعربين وهؤلاء هم الذين لهم شغف بتمحيص الحقائق وتمقيدها كما قلنا من قبل فلهذا الخبط اسباب نذكر منها اهمها فاسمعوا وعوا ومن المعلوم ان الناس يحبون طبعا ما هم عليه من اخلاقهم وآدابهم وعوائدهم لاسيما اذا كان لها علاقة بديانة وشريعة فلذلك نرى ان اهل الديانة المتقدمة ينكرون دائما على الدين المتاخر واتباعه الم تر انه جاء موسى على نبينا وعليه السلام بشريعة الحق والعدالة فكفر فرعون وقومه ثم جاء عيسى ابن مريم صلوات الله عليه بشريعة الحق والفضيلة فانكر اليهود

قوم

قوم موسى وطعنوا فيه ، ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالحق والشريعة الجامعة بين العدالة والفضيلة فجحد الوثنيون واليهود والنصارى معاورموه بما رموه من الدجل والسحر - فانكار الاقدمين على المتأخرين داء قديم وان كان الحق معهم وزد على ذلك ان الافرنج عنوا عناية الى اللغة العربية وآدابها الاسلامية من اول يوم لخدمة الكنيسة ولذلك المقصد بعينه دخلت العربية فى دروس كلياتهم وهى فى اصلها كنائس وكان معلموها الاولون كلهم من القسوس والبطاريق وكانت تربيتهم تربية دينية محضة واثره لا يزال باقيا الى يومنا هذا وانى سمعت عن دكتور ثقة ان بعض المعلمين فى تلك الكليات يكلفون تلاميذهم المسلمين على آرائهم الزائغة التى لا حجة على صحتها خلافا للاسلام والمسلمين ثم ايرادها برسالات يكتبها التلاميذ لنيل شهادة الدكتوراة من كلية هؤلاء المعلمين وما هذا الا اثر من تربية الكنيسة والتعصب ولا معنى لتربية الكنيسة الا مخالفة الاسلام وذويه لانه جاء بعد اليهودية والنصرانية وادعى اصلاحهما فلذلك نرى ان رحى انتقادهم وطعنهم على الاسلام تدور على قطب واحد وهو مخالفة الاسلام والمسلمين فالاصول جاءت من قبل الكنيسة ورجالها ثم نصرها الفلسفى منهم من ناحية الفلسفة والمؤرخ من طرف التاريخ والجغرافى من جهة الجغرافية والاثرى بالحفريات والآثار واما التربية الاستعمارية وهى حليفة لتربية الكنيسة ايضا تؤيدها ولا تخالفها الا فى الصورة فرجال الكنيسة وحماتها يطعنون رأسا على الاسلام فينتقدون على المسلمين فى اخلاقهم وعاداتهم وآدابهم وسياستهم تبعا والسياسى يعمل بعكس ذلك الترتيب فينتقدون على المسلمين فى حالاتهم وعلاتهم اولا ثم يستنتج ان المساوى كلها تأتى من ناحية الاسلام وتعليمه فطرق انتقادهم مختلفة والغاية واحدة .

ولكن التربية - دينية كانت اواستعمارية اوغيرها - لا تأتى دائماً بنتيجة واحدة موافقة لهؤلاء المربين واغراضهم بل تنتج بعض الاحيان بنتائج مخالفة للتربية مضادة لاغراض المربين واهوائهم ولذلك نرى ان بعض المتعلمين

بعد نبوغهم فى العلم خالفوا معلميهم ومربيهم فى آرائهم ونظرياتهم الخاصة وصاروا احرارا فى افكارهم مستقلين فى فكرتهم ومذاهبهم ولا يخافون لومة لائم فى كلمة الحق ولو كانت على انفسهم فهؤلاء هم العلماء حقا وان كانوا من رجال الكنيسة اوخدام الاستعمار وأصحاب الدرس فى الكليات فنحن نحترمهم كل الاحترام ونعترف بفضلهم وان كانوا يخالفوننا وينتقدون علينا فى ثقافتنا الماضية وآدابنا السالفة لأنهم يتمسكون بدلائل علمية على قدر علمهم وفهمهم ولا يستبدون على آرائهم ومذاهبهم فيرجى منهم الخضوع لسلطان الحق اذا عرض عليهم بالحجة والبرهان .

واما المستشرقون المتطفلون على مائدة العلم الذين يخدمون الاغراض الدينية والاهواء الفاسدة وهم على درجات فلا احترام لهم عندنا ولكن لانلومهم على ما يأتون به من الطعن والشناعة على المشرق وآدابه عامة وعلى الاسلام وثقافته خاصة ويصورونها باقبح الصور وابشعها كأنه همجية محضة وليس بينه وبين الفضيلة صلة والجاهلية كانت اولى منها ! لانهم على كل حال يعلمون ما هو واجب عليهم من ناحية دينهم او دولتهم او معاهدهم الاستعمارية ـ بل الملام كل الملام على الذين يدعون انهم على الحق والذين يخالفونهم على الباطل ثم لايسعون فى احقاق الحق ودحض الباطل بالحجة ولكن يقولون بالاسف ان المستشرقين متعصبون فهم لا يرون الحق باعيننا ولا يفكرون بطريقة فكرتنا ! أليس للمستشرقين وان كانوا من المتطفلين ان يقولوا لهم مثل قولهم والحق انه ليس الفارق الآن بينه وبين الباطل الا الحجة والبرهان لاننا نعلم ان الحق لم يجىء فى هذ العالم الابتلانة ، بشخصيات الانبياء وآيات الله الباهرة والبرهان فعصر الرسالة والآيات قد مضى فما بقى الا حجة وبرهان فالمستشرقون يحتجون بحججهم وان كان فيها الكذب والخداع والسفسطة والمغالطات فاين برهاننا وحجتنا على الذين ينكرون ديننا ويطعنون فيه ويضلون الناس وشباننا الذين ليس لهم العلم بالدين .

لا

لا اقول انه ليس فينا افذاذ من العلماء يعملون ما هو واجب عليهم من حماية الدين وتأييده ولكن اين هم من الذين لهم جمعيات لها اوقاف عظيمة تحصل منها اموال طائلة يبلغ قدرها الى آلاف آلاف من الجنيهات فى كل سنة والمعونات الخيرية تزيد فى ثروتها عاما فعاما ويصرف منها فى حماية اغراضهم الرفيعة والدنيئة مال كثير والمؤتمرات تنعقد عاما بعد عام للخوض فى اعمال العاملين والمشاورة بينهم لانجاح مطالبهم ونحن غافلون .

فيا ايها المسلمون انتهوا عن سباتكم وغفلتكم ان كان لكم اذن صاغية وقلوب واعية ونفوس سامية والا فأعرضوا عن دعاويكم العالية .

بسم الله الرحمن الرحیم

مقالة علمية القاها العبد الضعيف خادم العلم والعلماء (الدكتور) محمد زبير الصديقي (ام اى - پى اچ - ڈى - كبرج) (استاذ الاسلاميات بجامعة كلكته).

السير الحثيث فى تاريخ تدوين الحديث

الحمد لاهله والصلاة على نبيه وآله وصحبه

اما بعد فدائرة المعارف الاسلامية وسعيها العلمى كل ذلك غرس من اغراس من هو للعلوم حرز حريز وحصن منيع وهى غيض من فيض من يقدر العلوم قدرا ويرفع لها ذكرا اى سلطان العلوم نظام دكن حفظه الله تعالى وهل يخفى مكانها فى العالم اوينكر فضلها احد، وقد بثت العلوم بثا، ونشرتها نشرا ومن بعض اعمالها الكريمة انها لتوسيع النطاق العلمى احتفلت حفلة فى يوليو سنة ۱۹۳۸ م؛ ودعت العلماء المحققين، فكنت ايضا ممن اكرمه بدعوته الفاضل السيد محمد هاشم الندوى؛ وامرنى بان القى خطبة علمية فيها - وكنت منذسنين اعمل جهدى فى التنقيب عن تاريخ تدوين الحديث؛ فانتخبت بابا من ابواب تاليفى الذى الفته بالانكليزية، ولخصتها، ثم عبرت عنها الى الاردوية، والقيتها فى تلك الحفلة.

وكانت غاية الرجاء من هذا، ان يقف العلماء والمحدثون المحققون على ما تيسر لى من التمحيص فى الابواب المهمة من هذا الفن، ويشرفونى بآرائهم الغائرة النائرة، ليتضح ما كان غير واضح ويتجلى ما كان خفيا.

وفى الحفلة لضيق وقتها وكثرة مقالاتها، لم يسنح لأحد أن يذاكرنى فى موضوع مقالتى اويرشدنى الى مارأى فيها من الاختلال.

فطبعا كنت مولعا بان اسائل الفضلاء عما كان فى صدورهم من شؤن مقالتى خيرا كان اوشرا - فالحمدلله قد استحسنها كل من اولى العلم واثنى بمالم

 اكن

اكن اعرفنى به جديرا — وذلك قد شدعزمى وبعث فىّ النشاط التام .

ولنشر المقالة كان يتحتم علىّ ان اعبرعنها الىالعربية وكان يوافق مرمى غرضى لان العالم الاسلامى الذى يدرس فيه الحديث لم يكن يتأتى لى ان اعرف رأيهم فى شأن مقالتى الابالتعبير عنها الى العربية .

فمقالتى هذه قد نشرتها دائرة المعارف مع غيرها من مقالات الفضلاء التى قد القيت فى الحفلة فاذا وصلت بين يدى اولئك الطلبة والعلماء الذين لهم عناية بهذا الموضوع خصوصا وبالحديث عموما ؛ ويسرالله تعالى لهم الاستفادة منها وانبعث فيهم بهذه المقالة روح تنقيب الاقدمين ، رأيت ذلك لنجاتى الاخروية ذخرا ، فضلا من ان ارى ذلك لى فى الدنيا عزا وفخرا .

محمد زبير الصديقى

استاذ الاسلاميات بجامعة كلكته

(احدى ايالات الهند)

٢٠ يوليو سنة ١٩٣٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله واصحابه اجمعين .

اما بعد ، فان كل صنف من اصناف الادب مع موضوعه ومسائله وغايته وزد على ذلك ان مبدعه وحامله ايضا ، رهين فى نشوئه وارتقائه بالاحوال المستولية عليه سياسة وتاريخا ولاصطباغه بتلك الصبغة تراه يمتاز مما يضاهيه من الآداب ، ويحوز بعض الخصائص التى لايحوزها مجانسه ومشاكله مما تقدم منه او تأخر عنه .

واذا كان ذلك كذلك فعلم الحديث ايضا لايستثنى من الكلية التى قد قدمناها آنفا ، وحيث ان موضوعه اقوال النبى الطاهر الامين وافعاله صلى الله عليه وسلم وغايته الاهتداء بهداه قولا وفعلا ليتذرع بهما المتشبث الى بلوغه ذروة السعادة فى الدنيا والآخرة .

اما حملته الكرام فهم المحدثون وتشبثهم فى زمانهم باحواله السياسية والتاريخية التى نشأ هذا الادب وارتقى فى ظلالها تراه يختص بما يمتازعنه من غيره .

مكانة علم الحديث واهميته

من الواضح البين ان علم الحديث له مزية عظمى واهمية كبرى ؛ ولذلك ترى ادبه قد عظم شأنه وارتفع قدره وتمكن من كل فؤاد بمكان مكين . ولعلو محله قد نشأت فى تدوينه طائفتان ـ طائفة قد عبدت هواها وخضعت دون مطامعها الدنية ، فصحفت الاحاديث نصرفتها ووضعتها واخترعتها وانحرفتها ، اولئك السذجة الاغرار الذين لم ينتووا نواها لكن شاركوها فى اعمالها سذاجة وبلها . والفت تأليفات شحنتها وضعا وهمت بصنعها هذا ان تشوه به وجه السنة الغراء والحنيفية البيضاء .

ولكن الله تعالى جعل لدينه حزبا وكتب لحزبه نصرا ، فقامت طائفة ذبت عن الدين وحمت سنة سيد المرسلين ببواتر التحقيق وسهام التدقيق ،

فهذبت

فهذبت السنة حق التهذيب . ووطدت دعائمها واحكمت احكامها وسارت فى رواية الحديث سير المتثبت الحصيف احتياطا وعزما ، فمهدت للرواية اصولا قويمة، وللدراية قوانين مستقيمة، وقد اصبحت روح النقد ومحك المنتقد ؛ فمن ذخرها اسماء الرجال الذى لم يسبق له مثال فى اى شرعة ودين من الاولين والآخرين ـ واخترعت لدرس الحديث وتدريسه وانتساخه قواعد صحيحة ولم تترك من الحديث لفظة الاحققتها وبلغت صحتها ، وان زاد راو من الرواة لفظة فى الحديث سعت فى تنقيحها حتى بلغت مكمنها ، ورفعت القناع عنها ، ثم نسبت الزيادة الى صاحبها، واصول الاسناد التى كانت رائجة قبل الاسلام بلغتها ذروة الكمال ووسعت نطاقها وافردته فنا يشار اليه بالبنان .

زمرة المحدثين وعلاقتها بالدولة

قد كابدت المشاق وتحملت الشدائد قرونا فى تهذيب علم الحديث الفطاحل من العلماء عربا وعجما ذكرانا واناثا واجتمعوا تحت رايته يدا واحدة ـ نمن السلاطين من جار عليهم وتعدى بجلادهم وسامهم باشد عذاب ، ولكن تلك النفوس الطاهرة التى لم يزل الدهر يخلد ذكرهم وينوه بشأنهم ولا يزال يتلو مآثرهم ما بقى الزمان وتناوب الملوان ، هم رحمهم الله كانوا بمعزل عن الدول وولاتها والسلاطين وحماتها وبجدهم بخلوص طويتهم انفرادا واجتماعا قد تركوا بحور العلوم من ادب الحديث زاخرة وكنوزها طافحة قد اعترفت بفضلها المهرة الحذاق المستشرقون كفضيلة الاستاذ الحاذق المتصلب الاسبق فى التحقيق مارغوليتة فانه قال « ليفتخر المسلمون بعلم حديثهم ما افتخروا » .

لاسباب قد قدمناها آنفا ولغيرها من الطوارئ قد حدثت فى ادب الحديث مسائل مهمة ،ولكن بعضها الى الآن لم يبرح فى حيز الخفاء فلم تمسها يد البحث والتنقيب ، وبعضها وان كانت معروفة عند اولى البصيرة والخبرة من المحدثين ولكنها مع شهرتها لم تتعرض لها يد التحقيق ولم يقدر [illegible] حقيق ، ولذلك جعلت موضوع مقالتى هذه المسائل المهمة راجيا بل معتقدا [illegible]

وسعة نطاق علمكم ثم مهارتكم التامة وحذقكم الباهر وشغفكم بالتنقيب والنقد يساعدني في تنقيح تلك المسائل والتنقيب عنها فيبرد به الغليل ويشفي العليل ان شاء الله تعالى ، وهاهي اقدمها بين يديكم مرتبة مفصلة .

(١) كتابة الحديث وتدوينه وتعليمه

(٢) وضع الحديث واختراعه

(٣) نقد الحديث وتحقيقه

(٤) درس الحديث والنساء

(٥) الاسناد في علم الحديث وتكميله

١ ـ كتابة الحديث وتدوينه

لم تزل هذه المسئلة معضلة من المعاضل سابقا ولاحقا ـ وتلك ان الحديث هل اخذ في الانتساخ والتدوين في عهد النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم ، ام لا ؟ اما المحدثون خاصة وعلماء الاسلام عامة فنراهم على الظاهر شديدي العراك مختلفي الاقوال ـ نعم قد جمع بعض العلماء في رسائلها وكتبها في هذه المسئلة ، اى كتابة الحديث ، آراء متخالفة واحاديث غير متوافقة ـ منهم الامام الاجل الدارمي في مبادي سننه وابن عبدالبر في جامع بيان العلم ، قد افاد بفوائد مهمة من هذا الباب وكذلك الخطيب البغدادي في الرسالة المعروفة برسالة تقييدالعلم قداتى بمعارف مهمة ومنافع جمة من الاحاديث والاخبار وآراء المحدثين الكبار وهذه الرسالة قد نشرها منذزمان فضيلة الاستاذ نقادة اوانه ومحقق زمانه الدكتور اسفرنغر مع تعبيرها الى الانكليزية في المجلد الخامس والعشرين من مجلة ايشياٹك سيوسايتي من بلدة كلكته ، البنغال ، احدى ايالات الهند .

ولكن المحدثين لم يتعرضوا فيها للكتابة انها في اى عهد كانت بل لم يفيدوا فيها برايهم السديد ولم يأتوا بقول فصل يفيد،فلم تزل مسئلة الكتابة بكرا الى الآن .

نعم اول من امعن النظر في الاحاديث بعين النقدوالتمحيص فضيلة الاستاذ

الدكتور

الدكتور اسفرنغر ثم تلاه فضيلة الاستاذ غولدزيهر وكان اشد تعمقا واغزر نقدا، ويدل على غزارة فضله تأليفه المعروف بالمطالعات الاسلامية وهو كتاب غزير الفوائد كثير العوائد قد حظى بعين القبول وله فى محققى اوربا مكان مكين - فقد افصحا (اى غولدزيهر واسفرنغر) متفقين ان الحديث اخذ فى الكتابة فى عهده عليه الصلاة والسلام، بل فى رأى فضيلة الاستاذ المحقق غولدزيهر ان الاختلافات التى نرى للمحدثين فى كتابة الحديث لم تنشأ الابعد عهده صلى الله عليه وسلم والاغلب ان عهد بنى امية هو عهد نشأتها .

ان اسفرنغر يقول انه نزعم ان الاحاديث فى القرن الاول لم تزل فى ذاكرة الرجال محفوظة ومحققوا العلماء من اوربا حسبوا أن لفظة « حدثنا » التى تتقدم كل حديث وتسبق كل رواية لم تصطلح الا فى الرواية شفاها لا كتابة ولذلك زعموا أن الاحاديث المروية فى الصحيح البخارى لم تكن قبله مقيدة فى الكتب بل كانت تروى شفاها .

وهو بين الخطاء فان ابن عمرو رضى الله عنهما وغيره من الصحابة قد كتبوا الاحاديث فى الاسفار؛ وتبعهم فى ذلك حملتها من التابعين الذين عددهم غير قليل»(١) وهذا المحقق المستشرق قد نشر فى مقالته ايضا« ان من بدء الاسلام جعل بعض المحدثين يكتبون من الاحاديث ما يهم لديهم شأنها، ونذكر من كان منهم فى الصحابة اكرم شأنا واعظم مكانا كعبد الله بن عمرو بن العاص ، واس بن مالك ، وناهيك بابن عباس ابن عم النبى ، فقد كان من اخص صحابته عليه السلام؛ وهو رضى الله عنه قد كان احفظ الناس لروايته عليه الصلاة والسلام ، حتى ان مرويات ابن عباس وابن عمرو بن العاص المكتوبة فى الاسفار قد كانت بايدى عشيرتها موجودة » (٢) .

وقد قال فضيلة الاستاد غولدزيهر إن اختبار معظم الن لعبرة الحديث

(١) لايف آف محمد اله آباد ص ٦٦ - ٦٧ (٢) جرنل ايشيائك سوسائ ى بنجال الهند ج ٢٥ ص ٣٨ .

ازاء افظ الاسناد لسلسلة رواته ادل دليل يقضى على خطاء من زعم ان طبق آراء المسلمين كتابة الحديث فى بادئ البدء كان ممنوعا، وانه لم تحفظ الاحاديث فى العهد الاول من الاسلام الا فى اسفار الصدور؛ ولكن لامحيد عن الاذعان بان كتاب الحديث كان لهم طريق مألوف ونهج قديم لحفظه، والاضراب عن ذلك هو ثمرة خيالات نشأت بعد - والاحاديث التى يقال فيها انها كتبت فى القرن الاول من الهجرة جديرة بان تعدلادب الحديث اثمن ذخر واقدم جزء - وما عائق يعوق ولا مانع يمنع عن ان يذعن مذعن ان اصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) وطلبة الحديث حرصوا على ان يكتبوا اقواله واحكامه خوفا من ان يطرأ عليه الذهول والنسيان بعد مرور الزمان فتمحو آثاره وتطمس اخباره - وكيف يمكن ان قوما جمعوا العوام الناس اقوالهم الحكمية ضنا بها وحفظا لها ويدعون اقوال نبيهم اعتمادا على ذاكرتهم وحفظهم فاذن الامر الصحيح والرأى النجيح ان كثيرا من الصحابة رضى الله عنهم كانوا يصحبون معهم صحفهم ويلقون منها على تلامذتهم - وعبارات هذه الصحف هى التى يعبر عنها بمتن الحديث» (١) .

والصحف التى اشار اليها فضيلة الاستاد المحقق غولد زيهر فى العبارات المتقدمة فاكثرها قد ذكرها هذا الفاضل الالمانى فى محل آخر، وما عداها من الصحف فقد حوتها بطون الاسفار من الاحاديث واسماء الرجال - فابن سعد صاحب الطبقات يقول ان عبدالله بن عمرو بن العاص قيد فى الاسفار ماسمع من النبى عليه السلام (٢) وقد جمع الف حديث فى صحيفة سماها الصادقة (٣) وكان رأى هذه الصحيفة عنده مجاهد (٢) وبعد وفاته وجد هذه الصحيفة حفيده عمرو بن شعيب (٤)

وقد قيل ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه قد جمع خمسمائة حديث وهو

---

(١) المطالعات الاسلامية ج ٢ ص ٨ - ٩ (٢) الطبقات ج ٤ قسم ٢ ص ٨ - ٩
(٣) اسد الغابة ذكر عبدالله بن عمرو بن العاص (٤) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٥٤ .

الذى

الذى اضاعها ظنا منه انه ربما يكون فيها مالايعتمد عليها ولا يوثق بها (١) ؛ .

وكان عند على رضى الله عنه ايضا صحيفة ولم يكن فيها الا بعض القوانين (٢) .

وايضا كانت صحيفة حاوية على الحديث عندسمرة بن جندب رضى الله عنه(٣)

وايضا كانت صحيفة عند جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه وهى التى كان يروى منها مجاهد وقتادة وكان حفظة (٤) .

وايضا كانت عند سعد بن عبادة صحيفة ومنها قد روى ابنه بعض الروايات (٥) .

وقد ذكر البخارى رحمه الله فى رواية انها رويت فى بادئ بدئها من صحيفة كانت عند عبدالله بن ابى اوفى رضى الله عنه (٦) .

وكانت عند ابن عباس رضى الله عنه صحف عديدة ، ويدل على ذلك ما رواه الترمذى (٧) ان رجلا قد اتى اليه بكتاب من كتبه وقرأه عليه ـ وقدروى ابن سعد ان ابن عباس رضى الله عنه مانرك من الكتب كانت حمل بعير وكانت بعد موته فى يد ابنه على (٨) .

وقد ارى ابوهريرة رضى الله عنه الحسن بن عمرو بن امية الضمرى صحيفة كتبها (٩) .

اما صحيفة همام بن منبه المأخوذة عن صحيفة ابى هريرة رضى الله عنه فامرها غير خاف على الناس اكثرهم (١٠) .

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٥ (٢) بخارى كتاب الدية باب العاقلة (٣) المطبوعات الاسلامية ج ٢ ص ١٠ (٤) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٤٤ - تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٠ (٥) ترمذى الاحكام باب اليمين مع الشاهد (٦) كتاب الجهاد باب الصبر على القتال (٧) كتاب العلل (٨) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦ (٩) فتح البارى ج ١ ص ١٨٤ – جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٤ (١٠) تهذيب التهذيب ج ١١ – ص ٢٧

وعد هذه الصحف روايات وافرة تدل على ان الاحاديث قد حوتها بطون الاسفار فى عهد النبي المختار صلوات الله عليه وسلامه ؛ وقد قام بهذا المهم جماعة من الصحابة وجمعت قدرا ما ، يعتدبه .

وبعد هذه الروايات والاكتشافات الجديدة لم يبق ريب لمرتاب ان الاحاديث قد اخذت فى النسخ فى القرن الاول من الهجرة . واما امرالتدوين فلم يبلغ الا الى حدما .

تدوين الحديث بعد عهد الصحابة

وكما قدثبت بالدلائل الواضحة القوية التى لا تدع للشك مجالا ان الاحاديث قد قيدتها بطون الاسفار فى عهد النبي المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله الاطهار كذلك يسوغ لنا ويتأتى ان نقول من غير شك وارتياب ان تدوين الاحاديث فى ذلك العهد لامور خاصة واحتياج مهم ازاء التدوين ربما حال بين المسلمين حتى لم تتشمر لتدوينه عصبة من عصائبها بجدتام واهتمام خاص يجدربه ـ نعم قداعتنى بشأنها فى الخلافة الراشدة واخذت هذه الحركة فى عهدعمر رضى الله عنه تسير رويدا رويدا وفى عهد عثمان رضى الله عنه قد اهتاج مستطيرا ؛ والى القرن الثالث من الهجرة اخذت اكناف العالم الاسلامى حتى لم تدع نسيمة تتحرك فى البسيطة الاسلامية شرقا وغربا الا وقد سالت جهدا وطفحت بها جدا ، اما اولئك الذين قاموا لسنته عليه السلام وشغفوا بها فقد بلغ عددهم ماالله عالم به ـ ومثلهم فى طلبها كمثل حفنة من تراب عبثت به العواصف فطارت وانتشرت شرقا وغربا جنوبا وشمالا ـ قد عم سفرهم العالم الاسلامى حتى لم تدع خطاهم بلدة شاسعة الا تخطتها ولم تذر جبا ههم باب محدث الاوقد نحرت دونها ـ اى تعب لم يقاسوه ؟ واى مشقة لم تتفصد بها ثنايا جبينهم عرقا ! انفقوا فى هوى الحديث ما قد رواعليه من الاموال حتى لم يبخلوا فى سبيله على انفسهم ـ ولو لم يتحملوا فى طلبه هذه المحن ، ويكابدوا فيه هذه المشاق ، لما حيزت كنوز الحديث التى لايجدربالعالم الاسلامى ان يفتخر به وحيدا ، بل بالحرى ان يفتخر

به

به العالم العلمى جميعا .

ولنقدم للقراء ما افصح به فضيلة الاستاذ المحقق غولد زيهر عما انطوت عليه سريرته مثنيا على هذه العصابة الكريمة - اى المحدثين « فى عالم الكون من جهة الى اخرى من الاندلس الى وسط آسيا اخذت سعاة الحديث الذين لم ترهمهم وجوه التعب تعبا كانوا يجولون حيارى من بلدة الى بلدة ومن بقعة الى بقعة ليجمعوا الاحاديث كى يفيدوا بها تلامذتهم والاحاديث التى قدانتشرت فى العالم الاسلامى لم يكن لجمعها باسلوب يعتبر به ويعتمد عليه سبيل الا تلك ولا طريق الا ذاك فالحق الصريح ان اللقب الثمين - اى لقب الجوال والرحال - هم كانوا به جديرين وله حقيقين ، وزد على ذلك ان النفوس التى لم تجب البسيطة شرقا وغربا مرة بل مرارا أليست بخليقة ان نخاطبها بجوالة الاقاليم؟ ولعمرى هذا الخطاب حرى ان يكون عن الغلو بمراحل وعن الاطراء بمعزل لانهم لم يجولوا البلاد ليستفيدوا به التجارب وينتفعوا بها بل لم يكن مرمى غرضهم من ذلك الا ان يجتمعوا مع المحدثين ويستفيدوا منهم الحديث حديث النبى الكريم (على صاحبه الف صلاة وتسليم) ولم يكن مثلهم الا كمثل عصفور لم يختر شجرة ولا فرعها الا لينقر ورقها رجاء ان يملأ صدره لطفا وروحه بهجة وسرورا » (١)

حركة طلب العلم

وما قال فضيلة الاستاذ غولد زيهر لايؤيده مثال ، بل امثلة وامثلة فان الاسفار ترى صدورها بها طافحة .

فمن ذلك ان الصحابة رضى الله عنهم اخذوا يسيحون فى بلاد شاسعة لطلب الحديث ، وبعدعصرهم لم تزل هذه الحركة فى رقى يومافيوما ، فابو ايوب الانصارى رضى الله عنه لحديث فذ رحل من المدينة الى مصر وكانت رحلته هذه ليجدد مراجعة ذاك الحديث تأكيدا لحفظه (٢) .

---

(١) المطالعات الاسلامية ج ٢ ص ١٧٧ (٢) جامع بيان العلم ج ١ ص ٩٣ - ٩٤

و قد حثحث جابر بن عبدالله راحلته مسافة شهر ليسمع رواية من عبدالله بن انيس (١) .

و قد رحل رجل الى بيت المقدس ليسمع حديثا من ابى الدرداء رضى‌الله عنه شفاها (٢) .

ومكحول قد قاسى لطلب الحديث صعوبات السفر الى مصر والشام والعراق والحجاز (٣) وكذلك مسروق ساح كثيرا لأخذ الحديث (٤) وسعيد بن المسيب كان لسماع حديث واحد يواصل فى الاسفار الليل بالنهار (٥) ولمثل ذلك امثال لايتيسر للجامع اذا اراد جمعها .

ان علماء الحديث قد كابدوا من المشاق فى طلب الحديث وتدوينه تعبا وتفكرا وتعمقا وتدبر الايقاس الااذا وقف من اراد التطلع عليه على عدد شيوخهم الذين لازموهم . وهذه العناية بشان الحديث وطلبه سوغتهم ان يحوزوا كنوز الحديث ويجمعوها - فمنهم ابو اسحاق السبيعى (م سنة ١٢٦ ه) قد اخذ الحديث من ثلثمائة اواربعمائة شيخ (٦) .

وعبدالله بن المبارك (م سنة ١٨١ ه) قد اخذ من اربعة آلاف شيخ (٧)
وكذلك مالك بن انس (م سنة ١٧٩ ه) استفاد من تسعمائة شيخ (٨)
وهشام بن عبيدالله قد تلقن الحديث من سبعمائة والف شيخ (٩) .
وابونعيم الاصبهانى قد حضر دروس ثمانمائة شيخ (١٠) .
وكتب احمد بن الفرات عن الف وسبعمائة وسبعين شيخا (١١)
وابن العساكر قد تضلع من ثلثمائة والف شيخ (١٢) .

---

(١) بخارى باب الخروج فى طلب العلم (٢) جامع بيان العلم ج ١ ص ٣٣ (٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٩٥ (٤) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤٣ (٥) جامع بيان العلم ج ١ ص ٩٤ (٦) تهذيب الاسماء ص ٦٤٦ (٧) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٥٢ (٨) تهذيب الاسماء ص ٥٣٥ (٩) طبقات الحفاظ ٧ - ٦٩ (١٠) طبقات الحفاظ - ٥ - ٤٥ (١١) طبقات الحفاظ - ٩ - ١٥ (١٢) معجم الادباء ج ٥ ص ١٤

وقد لازم الزهرى سعيد بن المسيب عشر سنين (١) .

وحماد بن زيد (م سنة ١٧٩ هـ) قد صحب ايوب عشرين سنة - (٢) وربيع بن انس صاحب الحسن البصرى عشر سنين (٣) وجالس عمرو بن زارة ابن علية اربع عشرة سنة (٤) وقد قضى ابن جريج مع عطاء بن كيسان ثمانية عشر عاما (٥) وثابت بن اسلم قد حضر درس انس بن مالك اربعين سنة (٦) ولهؤلاء حملة الحديث لم يكن همّ فى حياتهم الا طلب الحديث وتدوينه حتى لم يبالوا فيه بنفائس نفوسهم وثمين حياتهم وكذلك الصحابة رضى الله عنهم بجدهم البالغ وسعيهم التام قد تلقنوا الحديث من نبيهم صلى الله عليه وسلم ومن معاصريهم ويتضح ما تحملوا من الاتعاب وما قاسوا فيه من الشدائد من كتب الحديث نفسها ، والى قرون بعد عصرهم لم نزل روح الجد ونشاط الطلب فى خلفهم جديدا - ويدلك على ذلك ان الزهرى قد انفق فى طلب الحديث طريفه وتالده من غير مبالاة واكتراث (٧) وكان شغفه بالحديث واشتغاله بصحفه قد بلغ مبلغا حمل قرينته على ان تقول « والله لهذه الكتب اشد علىّ من ثلاث ضرائر » (٨) .

وربيعة قد انفق كل ما كان يملكه من المال فى طلبه وآل امره الى انه باع ما كان فى بيته من الاثاث حتى حلق الحديد ، وكان يسدّ رمقه بارداء تمر يرميه الناس (٩) .

وقد انفق ابن المبارك فى طلب الحديث اربعين الف درهم (١٠) ويحى بن

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١٣١ (٢) تهذيب الاسماء ص ٢١٨ (٣) تهذيب الاسماء ص ٢١٠ (٤) تهذيب الاسماء ص ٢٠٥ (٥) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٥٢ (٦) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٣ (٧) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٩٧ (٨) وفيات الاعيان ذكر ابى بكر محمد بن مسلم الزهرى (٩) جامع بيان العلم ج ١ ص ٩٧ (١٠) معجم الادباء ج ١ ص ٧ .

معين قد انفق فى طلب الحديث من تليده الف الف درهم وخمسين الف درهم حتى لم يبق له نعل فكان يمشى حافيا (١) وانفق على بن عاصم الواسطى مائة الف درهم الذى دفع ابوه اليه (٢) وكذلك الذهبى قد انفق مائة وخمسين الفا (٣) وابن رستم ثلثمائة الف درهم (٤) وهشام بن عبيد الله سبعمائة الف درهم(٥) والخطيب البغدادى قد بذل لطلبة الحديث عشرين الف الف دينار(٦) وفيه كفاية لمن ارادالوقوف على شغفهم بالحديث ومن اراد الزيادة فله مجال فى مثل هذه الامثال (٧) ليت شعرى لوأن طلبة هذا العصر وعلماءه اتعظوا بسوقهم وعبروا بشوقهم، لكانوا من انجح الناجحين واسعد الفائزين .

طلبة الحديث وعددهم الكثير

لا يخفى على الناقد البصير أن تدوين الحديث لم يكن من الاعمال التى تبلغ مبلغها بجد شرذمة من الناس وعلى ذلك صحبه عليه السلام ـ حملة الحديث بعد متوفاه ـ انتشروا فى البلاد الشاسعة لسعة نطاق الحروب والفتوحات فمن المستحيل ان ترجع بعد هذا الانتشار ووجود الحروب الى اوعية الحديث وحفظتها مثلهم وتجمع منها شيئا يسيرا فضلا عن ان تقوم باعباء جمعه وتدوينه وتبلغ فيه مبلغا يليق بشانه ـ نعم جلالة موضوع التدوين وجمع الحديث هوّن على الجميع كل عسير ، واضف اليه حبهم البالغ وولهم الغريب بالاسلام وبالنبى عليه السلام، قد انشأ فيهم روحا جرأهم عليه فقام بذلك العبء العظيم عدد لايحصى .

اما طلبة الحديث فى ذلك العصر الزاهر فلا يحصى عددهم ولكن نقدم لمن اراد الاطلاع عليه بعض ما تيسر لنا وان لم يزد على قطرة من اليم والفيان من الديم ليكون على بصيرة من شغف اولئك الطالبين الراغبين .

---

(١) تهذيب الاسماء ص ٦٢٩ - ٦٣٠ (٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٨٩
(٣) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٢ (٤) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٧٤ (٥) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٥٥ (٦) معجم الادباء ج ١ ص ٢٥٥ (٧) ارجع الى تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٠

اما

اما فى عصر الصحابة فقد قيل ان تلامذة أبى هريرة رضى الله عنه قد اناف عددهم على ثلثمائة تلميذ (١) وفى زمان الامام ابن سيرين قد بلغ عدد طلبة الحديث فى الكوفة اربعة آلاف (٢) وكان يصاحب ابا الزناد بالمدينة ثلثمائة طالب (٣) وفى درس امام دار الهجرة مالك بن انس كان يحضر من الطلبة ما الله عالم به، وكان يضيق بهم المقام حتى ربما آل امرهم فى ذلك الى النزاع والخصام (٤) وكان يحضر فى خطب الحديث التى كان يلقيها على بن عاصم ثلاثون الف طالب (٥) وفى الخطب التى كان يلقيها سليمان بن حرب كان يحضر اربعون الف طالب (٦) وكان يحضر مجلس عاصم بن على بن عاصم خلائق حزروا بعشرين ومائة الف (٧) ولما قدم ابو مسلم الكجى الى بغداد واملى فى رحبة غسان فكان فى مجلسه سبعة مستملين كل واحد منهم يبلغ الآخر، وكتب الناس عنه قياما، ثم مسحت الرحبة وحسب من حضر بمحبرته فبلغ نيفا واربعين الف محبرة سوى النظارة (٨)

---

(١) تعليم محمد وسوانحه لا سفر نغر — ص ل — ١١١ (٢) تدريب الراوى طبع مصر ص ٢٧٥ (٣) تهذيب الاسماء طبع اوربا ص ٧١٩ (٤) تهذيب الاسماء ص ٥٣٤ (٥) تذكرة الحفاظ — ج ١ ص ٢٩٠ (٦) طبقات الحفاظ الطبقة السابعة رقم ٧١ (٧) طبقات الحفاظ الطبقة السابعة رقم ٩١ (٨) طبقات الحفاظ الطبقة التاسعة رقم ١٠٠، وقد توجد امثلة اخرى كمثل ما ذكرت، فى طبقات الحفاظ، وتذكرة الحفاظ وغيرها من كتب اسماء الرجال — وربما استحال البعض سماع هذا العدد الخطير فى عصر لم تكن فيه آلة نشر الصوت. ولكن يتلج الصدر ببرد اليقين حين يوقف على دأب المحدثين فى اداء الخطب والدروس فكان دأبهم ان الشيخ كان يرتقى مرتفعا متوضئا لابسا لباسا فاخرا كرامة للحديث النبوى، ثم بعد الحمد والثناء كان يسوق سند الحديث بصوت جهر ويلقى عليهم الحديث فقرة فقرة يسكت فى اثنائها لتتقدم وتكتبها الطلاب الذين كانوا اقرب منه مجلسا وبعد أن يتقاها الادنون منهم كانوا يلقونه على من =

اختراع الحديث او وضعه

اى علم كان لو سعى فى جمعه وتدوينه من حملته العديدة وطلبته الكثيرة، واضف الى ذلك ان امة كائنا ما كانت لو تأثرت مثلما تأثرت الامة الاسلامية بالحديث فى جميع شعب حياتها انفراديا كان او اجتماعيا، سيا سيا كان او دينيا، خصوصيا كان اوعموميا، لجاز بل وجب له ان يكون عرضة التصحيف والتحريف، وان لايعرى عن وصمة الاختراع والافتراء والوضع والقطع؛ لان اقتضاء الظروف والاحوال كان داعيا قويا ــ ووجود الاختراع والوضع الكثير بكوماتها المكومة اول دليل على ما اشرنا اليه من وصمة الوضع وفتنة الاختراع فى ذلك . وقد اتفقت أئمة الحديث بأسرها على ان احاديث كثيرة قد وضعت بل منهم من يدعى ان الوضع الذى بلى به علم الحديث لم يوصم به جبين اى علم من العلوم ــ ولكن تحزب المسلمين سياسة وتشعبهم فرقا، وزد على ذلك خضوع بعض الاحزاب لاله المطامع الدنية واتباعهم سلطان الهوى المردية وخور بعض ضعفة الايمان وسذاجة بعضهم، وعلى ذلك طيش عقولهم فى بلوغهم الحقيقة، كل ذلك كان ينمو شيئا فشيئا ويدب دبيبا خفيا ولم يلبث حتى آض سيلا جارفا كاد يزعزع دعائم علم الحديث ويقوض خيامه ــ فمن هذه الفتن لو قضت واحدة على هذا العلم الشريف ولم تغادر له عينا ولا اثرا لما كان عجيبا .

نشأة وضع الحديث

قد زعم سروليم ميور أن عهد ذى النورين رضى الله عنه كان عهدا ارتقى فيه وضع الاحاديث (١) وعند العلماء عامة ان وضع الاحاديث اخذ فى عهد الامويين نحو غيره من الفتن السود ولكنى ارى ان نشأته كان عهد النبى الامين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه اجمعين وذلك لان المشركين كانوا يضادونه

= يدنو منهم وهلم جرا . وهذا الاسلوب المدرسى قد اورده الائمة فى كتب الاصول ومن اراد المراجعة فليراجع فتح المغيث شرح الالفية للعراقى .

(١) لائف آف محمد ص ٣٦ .

صلى الله

صلى الله عليه وسلم ولم يكن مضادتهم له الا زاد وارتقى شيئا فشيئا فاذن لا يستغرب انهم تلفقوا من عند انفسهم اقوالا وافعالا نسبوها اليه، صلوات الله عليه، وبثوها فى العرب كمثل « تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى » قد رويت هذه الالفاظ من طرق شتى ولكن جميع طرقها اقرب الى الوضع . ويؤيد ما اقول قول امام الظاهريين ، الامام ابن حزم رحمه الله رحمة الابرار وادخله جنات تجرى من تحتها الانهار، فى كتابه الاحكام فى اصول الاحكام، ان الاحاديث قد وضعت فى عهده صلى الله عليه وسلم؛ ويدل على ذلك ان رجلا بعد هجرته عليه السلام جاء الى رجل من قبيلة وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال ان يزوجه اهل القبيلة منهم امرأة مخصوصة فبعث القبيلة رجلا منهم ليتفحص الحال فلما وقف عليه السلام على هذه الفرية امر بقتل ذلك الرجل الكذاب(١) فمن اراد الجمع لمثل هذه الشواهد يتيسر له ذلك فى اليسير جمع الكثير ولا يستغرب اذا قيل ان الوضاعين قد سعوا فى وضع الاحاديث ونشرها فى المسلمين فى اوائل العهد الصديقى حينما عب عباب الارتداد .

بل لو ظن ظان او قال قائل ان الشدة التى كانت فى عهد الخليفتين المرضيين ابى بكر وعمر رضى الله عنهما فى رواية الحديث للتوقى فى الحديث من الوضع لساغ له ذلك ـ ومنذ ما تفرق المسلمون اربا اربا وتحزبوا احزابا عصر فتنة كانت فى عهد عثمان رضى الله عنه ، فمن ذلك الحين اخذت فتنة وضع الحديث تنمو شيئا فشيئا وما نقله الناقلون من وقائع عديدة عن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنه يدل ايضا على ان عصره لم يخل من وضع الاحاديث ودبيب هذا الفساد وان كان خفيا ، لكنه اخذ يستفحل يوما فيوما حتى اصبح على هذا الفن الشريف خطرا عظيما وخطبا جسيما . ويشهد على ذلك الاسفار الضخمة فى الموضوعات واقوال السادة من المحدثين .

نعم قد كان فى نشر هذه الفتنة سهم كبير لمتنبين وخوانهم الزنادقة والملاحدة ولكن لم يقتصر فى وضع الاحاديث المتصاصون والوعاظون جهدهم

---

(١) الاحكام فى اصول الاحكام ص ٢ ـ ـ ٨٣ ـ ٨٤

المستطاع ايضا وان الاحزاب السياسية و الفرق الدينية ان لم تأل جهدا فى افساد هذا الفن المقدس فاولئك المقدسون المخلصون من العلماء الذين جعلوا ديدنهم الوضع للمقاصد الدينية معرضين عن الحزم والاحتياط لم يتأخروا عن غيرهم فى تكدير هذا البحر الزاخر والفن الطاهر ايضا (فانا لله وانا اليه راجعون) .

وضع الحديث والزنادقة وفرق اخرى من المسلمين

الف۔ الزنادقة على قول حماد بن زيد قد وضعت اربعة عشر الف حديث ثم نشرتها فى المسلمين (١) وابن ابى العوجاء بخصيصة نفسه قد وضع اربعة آلاف حديث (١) وحيث ان العلماء خاصة والمسلمين عامة كانوا على علم من زندقتهم وعدم تدينهم فلذلك لم تكن فريتهم خطرا الا الى حد ما ، لكن البلاء العظيم والداء العقيم لم يكن الا زعماء الفرق السياسية ودعاة الفرق المذهبية التى لم تزل الدولة من حماتها بسطوتها وسيطرتها و شوكتها و اعظم من ذلك كله كانت سيادة الارشاد المتمكنة من كل فؤاد بصبغتها الدينية و نفوذها التام ، لم تكن تسوغ لاى رجل ان يخطر بباله ان امثال هؤلاء الدعاة الدينية وحماة الوية التقوى يفترون على نبيهم عليه السلام ويختلقون روايات عنه فرية وزورا ثم يبثونها فى ابناء جلدتهم و شركاء دينهم .

ولا يخفى ان الطمع فى حطام الدنيا بل رجاءه المحض ، ربما كانت اشد تأثيرا فى الفساد و الباطل من الصداقة المحضة والحق الصريح عموما .

والتاريخ الاسلامى ايضا يشهد أن الحب الحزبى فى افئدة زعماء الفرق الدينية كان رسخ من اساس الدين ! ففضحوا الاصول الدينية عن الحب الحزبى وربحه الخسيس غير مكترثين ولا مبالين ـ وادل دليل واقوى شاهد على ذلك ان مهلب بن ابى صفرة القائد لعبدالله بن الزبير رضى الله عنهما والشديد البغضاء للخوارج قد رمى بوضع الاحاديث ضد الخوارج (٢) وكذلك عوانة بن الحكم وغيره الذين كانوا يحمون جانب الامويين قد وضعوا الاحاديث فى حمايتهم

---

(١) تدريب الراوى ص١٠٣ (٢) الكامل للمبرد طبع اوربا ص ٦٣٢ـ ابن خلكان طبع اوربا رقم ـ ٧٦٤

ولنصرتهم

ولنصرتهم (١) وقد وضع ابو العيناء احاديث فى تأييد الشيعة وموافقتها (٢) وقد زور محمد بن القاسم الطالقانى وغيرهم المنتمون الى المرجئة احاديث لنصرتهم ورفعوها الى النبى صلى الله عليه وسلم (٣) ومحمد بن حسين السلمى وغيره قد افتروا الاحاديث فى تعضيد الصوفية (٤) وقد اخترع محمد بن الحسين وغيره الاحاديث طبق آراء السنيين (٥) وخلاصة القول ان كل فرقة وكل حزب قد وضع الاحاديث نصرة لرأيها وتعضيدا لمسلكها ـ والحق الصريح الذى لايشوبه غبار الباطل ان الاحاديث المشعرة بفضائل الاشخاص ومناقب القبائل والبلاد والفرق المذهبية والاحزاب السياسية اكثرها ثمرة طباع الوضاعين ؛ ولذلك نظمها العلماء الراسخون المحتاطون فى سلك الموضوعات .

ب ـ القصاص

اما القصاص فلم يكونوا اقل خطرا ـ بل كانوا ادهى داهية للحديث من الاحزاب السياسية والفرق الدينية ـ وتاريخهم لايخلو عن الطرف الرائقة والاعاجيب الشائقة .

اما نشأتهم فنقول انها كانت فى عهد الخليفة المرضى صاحب النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ ويقال انه رضى الله عنه قد بعث بعوثا منهم ـ وفى بادئ بدئها قد بعث تميم الدارى حسب رواية (٦) وعبيد بن عمير على اخرى (٧) قاصا من طرف الدولة .

وكان من واجباتهم المتحتمة عليهم ان يذكروا الناس بالاحاديث ويعلموهم المسائل الدينية .

وفى عهد معاوية رضى الله تعالى عنه انقسم هؤلاء على فرقتين ـ فرقة

---

(١) معجم الادباء ج ٦ ص ٩٤ (٢) لسان الميزان ج ٥ رقم ١١٣٦ (٣) تدريب الراوى ص ١٠٣ (٤) لسان الميزان ج ٥ رقم ٤٦٦ (٥) لسان الميزان ج ٥ رقم ٤٣ (٦) المطالعات الاسلامية ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ (٧) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ .

عرفت بالقصاص العامة واخرى بالقصاص الخاصة ـ فالاولى كان من واجباتها ان تسمع المسلمين ما صدر من السلاطين وعمالها من الاعمال الحسنة والامور الجليلة لتسخر بها افئدتهم وتنشأ العواطف الحسنة فيهم - (١) .

وفى عهد مروان الاول والعباسيين قد استعمل هؤلاء القصاصون فى الحروب ليسكنوا جاش النـاس ويثبتوا اقدامهم ويملؤا صدورهم حماسة واقداما (٢) وفى هذه الايام قد كثر عددهم وانتشروا فى العراق ووسط آسيا ، وأخذ هؤلاء المصاقع يعظون الناس فى المساجد والشوارع فتمكنوا من المسلمين ببيان سحر الالباب وملك الفؤاد وفيهم قد قال محدث القرن الثانى ابن عون لم يكن يحضر فى حلقات دروس المعلمين والمحدثين فى المساجد من الطلبة الا عدد الانامل واما مجالس القصاصين فكانت تطفح رحابها بالسماع (٣) ٠

واخذ نفوذهم فى الناس ينمو رويدا رويدا حتى استفحل امرهم واصبحوا عقبة كئودا بل خطرا عظيما فى سبل التعليم الصحيح ، وخيف على الامن ان يصاب بثلمة ويعم الفساد ــ وناهيك ان امام دار الهجرة مالك بن انس قد اضطر فضرب دونهم ابواب مسجد المدينة مسجد النبى عليه السلام (٤) .

وفى غضون سنة اثنتين وسبعين بعد المائتين نهوا عن النزول فى مساجد بغداد وسبلها ثم صدر تجديد هذا الامر مرة اخرى فى غضون سنة اربع وثمانين بعد المائتين (٥) .

ومن قاصمة الظهر التى كانت منهم للمسلمين والاسلام انه لم يكن لهم اعتناء بالقرآن ولا بالحديث ولا بالاسلام واحكامه واصولها انما كان نصب اعينهم ان يستولوا على افئدة المسلمين ويتمكنوا منها فان اضحكوهم بخزعبلاتهم لم يضحكوا الا ليسلبوا اموالهم او ابكوهم بشقشقتهم لم يبكوا الا ليختلسوا ما فى اكياسهم

---

(١) كتاب القضاة ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ (٢) المطالعات الاسلامية ج ـ ٢ ص ١٦٢ (٣) المطالعات الاسلامية ج ٢ ص ١٦٤ (٤) المطالعات الاسلامية ج ٢ ص ١٦٨ (٥) الطبرى ج ٧ من الجملة الثالثة ص ٢١٠١ و ٢١٦٥ ٠

هؤلاء

هؤلاء الدهاة هؤلاء العبيد، عبيد الدنيا، عبيد الدينار والدرهم كانوا عارفين. بنفسيات الفوضى بصيرين بألباب العوام انه لا يسرهم الاحاديث العارية عن التشدق، ولاالاقوال الصادقة الساذجة من احكام الاسلام التى تفوه بها النبى صلى الله عليه وسلم، بل الذى يروقهم هواقصص الغريبة والاسمار الرائقة، وعلى الاعمال الحقيرة عدة الاجور الكثيرة من الله المتعال.

ولما لم يجد هؤلاء العبيد، عبيد حطام الدنيا، امانيهم فى الحديث، اخذوا يختلقون الاحاديث من عند انفسهم ويرفعونها إلى النبى الكريم عليه افضل الصلاة وازكى التسليم، فكانت تقبلها الفوضى من المسلمين وعوامهم الراضين. وسترى بطون اسفار الموضوعات وذكر الرجال طافحة بذكرهم وذكر غرائب قصصهم وترهاتهم الباطلة.

وبالحرى ان نقدم مثالا انيقا للقراء من افكهم المضحك ان الشاعر الشهير فى عصر هارون والمامون، كلثوم بن عمرو العتابى مرة «قام فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه ارنبة انفه لم يدخل النار فما بقى احد الا واخرج لسانه يومى به ارنبة انفه ويقدره حتى يبلغها ام لا امتحانا لنفسه انها هل ممن تنجو من نار الجحيم وتدخل جنة نعيم (١).

ومرة تشاور اقصاصان فقام احدهما على جنب طريق يبث فى الناس فضائل على كرم الله وجهه والآخر على جنب آخر من ذلك الطريق يسوق فضائل الصديق رضى الله عنه، ونال كل منهما من الشيعة والخوارج اموالا، فجمعا ما كان حصل لهما ثم اقتسم كل منهما من هذا الكسب الطيب نصفا نصفا (٢) وسترى امثال هذه الحكايات قد طفحت بها صدور اسفار الموضوعات واسماء الرجال ولسان حال الحديث يتلو ظلمهم ويشكو جورهم فهل من معتبر يعتبر ومدكر يدكر.

---

(١) كتاب الاغانى ج ١٢ ص ٥ (٢) تتمة الدهرية ص ٢٨١ .

ج ـ طبقة الزهاد والمتبتلين

وعلى شناعة ما بيناه وفظاعة ما اوردناه آنفا ، علم الحديث لم ينل من القصاص فسادا يعبأبه ازاء الزهاد لان اختراع القصاص ووضعهم كان محدودا فى طبقة الجهلة الفوضى من العوام الذين لم يكن لهم ولا ادنى علاقة بالحديث وادبه ـ اما المهرة من المحدثين فكان لهم يد فى معرفة الحديث ونقد الرجال ، وباع طويل فى اصول الحديث واصول النقد ؛ ولذلك كانوا بابعد منزل من ان ينخدعوا بخزعبلاتهم واباطيلهم .

ولكن داهية ، واية داهية ، وفتنة ، واية فتنة ، قد عمت الحديث من اولئك الفطاحل الذين صيتهم قدعم المشارق والمغارب ولم تجد ولاواحدا ينكر عليهم فضلهم وزهدهم وورعهم وتقواهم ونيتهم الخالصة وشغفهم الدينى من السابقين واللاحقين ـ ولكن من سوء الحظ قداشرب فى قلوبهم وتغلغل فى عقائدهم ان الذى يضع الحديث لاغراض دينية مع نية خالصة وسريرة طاهرة لايجوزله وضع الحديث فقط ، بل يثاب عليه الفاعل اى الوضاع .

ولذلك قد وضع كثير من الزهاد المخلصين ألوفا من الحديث ترغيبا وترهيبا ورفعوها الى النبى عليه الصلاة والسلام .

فهذا نوح بن ابى مريم قد استفاد من اكثر محدثى عصره، وكان هوايضا يعد فى اكابر الفقهاء والمحدثين ، ولغزارة فضله كان يعرف بالجامع ، وكان قاضى مرو فى عهد المنصور العباسى ؛ ومع هذه المزايا قد روى كثيرا من الاحاديث فى فضائل سور القرآن الكريم ـ ولماسئل عن رواتها اعترف بانه قدوضعها بنيته الخالصة لوجه الله رجاء ان يصرف بها عباد الله الى كتابه المجيد(١) .

وكذلك ابان بن ابى عياش كان يعد من المتبتلين الى الله ولكن شعبة بن الحجاج قد علم اكثر رواياته الخمسمائة والف بالوضع (٢) .

---

(١) ميزان الاعتدال طبع مصر ج ٤ ص ٢٤٥ـ تدريب الراوى ص ١٠٢

(٢) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٧ ـ ٨ .

واحمد بن محمد الباهلی کان بعد فی زهاد عصره ولکن روایاته الاربعمائة قد نظمها ابوداود فی سلك الموضوعات ثم هوبنفسه قد اقربانه وضعها لترقیق افئدة عبادالله (١) .

وسلیمان بن عمرو النخعی کان معاصر امام السنة احمد بن حنبل رضی‌الله عنه وکان یعد فی الزهد والعبادة فرید عصره ومع ذلك کان یعرف عند نقدة الحدیث باحسن الالقاب ، اقب الوضاع الکذاب (٢) .

فاذا اراد مرید أن یقف علی مابلی به علم الحدیث وادبه من الجور والجفاء وان کان من غیرعمد من هؤلاء ارباب التقدس والاخلاص وهیاکل الزهد والتقوی فلینظر الی کتب الموضوعات ونقد الرجال ولیمعن فیما صنعوا بادب الحدیث من صنیعهم وما فعلوابه من افاعیلهم .

هؤلاء المنافقون الماذقون بل الاعداء فی لباس الاصدقاء المعربدون وعبید الدنیا الغدر القصاصون،والصالحون والسذجة الاغرار المقدسون ماذا فعلوا بالحدیث وادبه واتوا علیه بداهیة دهیاء وحالقة صماء لن تجد مثله فی ای ادب ودین من الاولین والآخرین — ضل سعیهم فی الحیاة الدنیا وهم یحسبون انهم یحسنون صنعا .

جد المحدثین الکرام فی تحقیق الحدیث وتنقیبه

کما ان علم الحدیث وادبه من حیث الوضع والاختراع فیه لا یشابهه مشابه ولایجاریه مجار فی اندیة ای ادب من آداب الدنیا ، کذلك هونسیج وحده وفرید عصره من جهة حزم حامليه واحتیاطهم فیه وخوضهم فی تنقیبه بدقة نظر وامعان — هذا وان اقرالمحدثون الکرام فی جنب بان علم الحدیث کما بلی بآفات الاختراع والوضع لم یبل بمثله ای ادب من الآداب ،

ففی جنب آخرجمیع المهرة الحذاق والجهابذة النقاد من المسلمین وغیر

---

(١) میزان الاعتدال طبع مصرج ١ ص ٦٧ — لسان المیزان ج ١ رقم ٨٣٢

(٢) تدریب‌الراوی ص ١٠٢،میزان الاعتدال ج ١ ص ٤٠٩

المسلمين قد اذعنوا وسلموا فى ان هـذا العلم كما رزق من ذويه فى التنقيب والتمحيص من دقة النظر والامعان التام لم يوجد له فى السابقين ولا فى اللاحقين مثال ، فى جميع الآداب شرقا وغربا — وكما انهم فدوا فى سبيله ثمين انفسهم ونفائسهم لم يوجد له نظير ولن يعثر له على مثيل .

ومن اراد شاهد ذلك فليتدبر فى اذعان فضيلة الاستاذ الحائز قصبات السبق فى التحقيق المستشرق نكولسن بقول ابن قتيبة ان ليس لامة سنة مثل سنتنا » وكذلك فضيلة الاستاذ المحقق مارغوليتهه قد جاهر بقوله ليفتخر المسلمون كما شاؤا بعلم حديثهم — وسبق منا مثل مما اثنى به فضيلة امام النقدة والحذاق غولدزيهر ، على المحدثين وسعيهم المشكور وجدهم البالغ وتحقيقهم الغائر فى تدوين الحديث وجمعه .

وما قدمناه آنفا من تاريخ وضع الاحاديث واختراعها مختصرا فلقطع دابره واستئصال شأفته ، لم يزل عدد وافر من المؤمنين المتقين الذين كانت سجيتهم الصدق ووظيفتهم الاحتياط — وقد كانوا رحمهم الله تعالى بمعزل عن امانى العز وطلب الجاه ، ولم يكن لهم اعتناء بحطام الدنيا ، ولم يمسهم من حب الامارة وطلب السلطنة ادنى اثر ، جعلوا الصدق والاخلاص ديدنهم وملكوا تقوى الله جميع عواطفهم ؛ وقصارى اصولهم فى معاشرة الناس لم يتجاوز الحب لله والبغض فيه قولا وعملا ؛ لم يدعوا شعار الحزم والاحتياط للحظة فى الاقوال والاعمال ؛ قد باعوا نفوسهم لرمى غرض وحيد وهو الحديث ، حديث الرسول صلى الله عليه وعلى آله واصحابه الف صلاة وتسليم — فوقفوا حياتهم بتبليغه وتفانوا فى تدوينه وتهذيبه ؛ لم يخدموا الحديث كسبا ، اوليبلغوا به عزا وجاها ، اوينالوا به سمعة ، اوينشروا لهم به ذكرا ؛ بل كما قال سفيان الثورى طلب الحديث علة يتشاغل بـه الرجل » (١) فيساب قدرتهم حتى عن انفسهم ويملكهم حتى عواطفهم فكانوا يسيرون تحت زمامه خاضعين وانقيادته مقتدين — اولئك كانوا ارحى الحديث تطبا ونصره المشايخ عمدا ولولا تحملهم

(١) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٢٩ .

المشاق و مكابد تهم المحن لما حزنا من الحديث ما حزنا كنزا ثمينا وذخرا عظيما .

هؤلاء الكرام هم الذين جمعوا الحديث من عهد النبي الكريم بحزم تام واحتياط بليغ ومن رام الاطلاع على ذلك فليراجع اى كتاب من كتب الحديث واصوله ورجاله ، يقضى به عجبا ويندهش به رعبا وخير الذخر فى ذلك ما جمعه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ، والخطيب البغدادى فى رسالته تقييد العلم وفاضل عصرنا العلامة سليمان الندوى ايضا من الذين قد خاضوا غماره وفازوا بما يستحقون عليه الثناء .

قد اخذ الصحابة بيد الحزم والاحتياط فى رواية الحديث وجمعه من عهد النبي عليه السلام فابوبكر الصديق (١) وعمر الفاروق (٢) رضى الله تعالى عنهما لم يكونا يقبلان من الحديث لفظة الا بالشهادة العادلة ، وعلى عليه السلام كان يستحلف الراوى (٣) وعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان رجلا يهاب الحديث (٤) خيفة من الخطاء فيه .

وقد بالغ عبدالله بن مسعود رضى الله تعالى عنه فى ذلك حتى خضع دونه الناقد البصير غولدزيهر واذعن له (٥) ثم اثر عهد الصحابة رضى الله تعالى عنهم كما زاد عدد الوضاعين وعمت جريتهم كذلك اشتد الحزم والاحتياط من اولئك المحدثين الذين جعلوا الحزم ديدنهم والاحتياط شعارهم وكذلك قاسم بن محمد ورجاء بن حيوة ومحمد بن سيرين وابوالزناد ويحيي بن سعيد اخذوا يشددون فى الرواية وقبولها (٦) وبعد عهد التابعين أخذ تبع التابعين يشددون فى ذلك اكثر مما شدد التابعيون فيه حتى ان مالك بن انس رضى الله عنه اذا اشتبه عليه

---

(١) سنن ابى داود كتاب الفرائض باب الجدة (٢) سنن ابى داود دية الجنين ، صحيح البخارى الاستئذان . مسند ابى داود الطيالسى ص ٩٤ ، طبقات ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٠٣ (٣) سنن ابى داود صلاة ـ استغفار ، مسند ابى داود الطيالسى ص ١ (٤) طبقات ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٣٩ (٥) المطالعات الاسلامية ج ٢ (٦) جامع بيان العلم ج ١ ص ٨٠ ـ ٨١

لفظة من الحديث كان يرد تلك الرواية باسرها ولم يقبلها (١) .

وكانت له رضى الله عنه فى قبول الرواية شرائط لايتعداها فاذا وافقتها قبلها ، والافلا- منها (الف) انه كان يرد رواية البله ، (ب) ومن كان ينشر العقائد الباطلة لقصور عقله ، (ج) ومن جعل دأبه الكذب عموما وان كان محتاطا فى رواية الحديث ، (د) ومن كان معتبرا فى روايته لكنه لم يكن يعلم موضوع روايته وخبيرا بمبحثه (٢) .

وكان كذلك معاصروه رضى الله عنهم كشعبة بن الحجاج وسفيان الثورى وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وعبدالله بن المبارك وفضيل بن عياض وغيرهم كانوا يشددون فى رواتهم .

وبعدعهداتباع التابعين حينماسال سيل فتنة الوضع من الفسقة والوضاعين فى جنب واحد ، فأخذ احتياط ولاة الحديث وارباب المخلصين فى جنب آخر يزداد شدة ؛ حتى ان الامام الشافعى رضى الله عنه الذى كان من ارشد تلامذة مالك رحمه الله كان اشد نقدا لروايات شيوخه الكبار كمالك وامثاله (٣) وكانت مراسيل الزهرى رضى الله تعالى عنه عنده مما لم يجدر بالقبول (٤) ويحيى بن معين رحمه الله لم يكن يجمع من الروايات الا ما تعددت طرقه واقل ما ثبتت عنده من ثلاثين طريقا (٥) .

وكان ابراهيم بن سعيد يدعى انه لم يجمع فى كتبه من الروايات الا ماثبتت عنده روايتها من مائة طرق مختلفة (٦) .

اما امام السنة احمد بن حنبل فكان فى الاحتياط والحزم فى الرواية نارا على علم فى اندية العلماء .

والحق ان مسنده قد جمع روايات غير قليلة قد قيل فيها انها اضعف

---

(١) تهذيب الاسماء ص ٥٣١ - ٥٣٢ (٢) جامع بيان العلم ج ٢ ص ٤٨ - تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٤ ص ١٧٢ (٣) رسالة الامام الشافعى ص ٥٢ - ٥٣ (٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٠ (٥) تهذيب الاسماء ص ٦٢٩ (٦) طبقات الحفاظ - طبقة - ٨ - رقم ١٧

الروايات

الروايات ؛ ولكن لم يكن من شرطه فى مسنده انه لا يروى فيه الا ما يستحق القبول بل لاحظ فى جمعه ما كان يحتمل الصحة احتمالا ما ، رجاء ان يقدر له النقد . اما نقد امامى السنة البخارى ومسلم فقد خضع دونه الفطاحل سلفا وخلفا حتى ان حذاق المحققين والجهابذة من عصرنا قد سلموا لهما الفضل فيمن سلف وخلف (١) والحق ان الذين يعول عليهم من المحدثين لاحتياطهم البالغ تاليفهم انطق بلسان الحال قبل ان ينطقوا بلسان القال ـ وذلك لانهم اذا وجدوا ولو ادنى خلف او فرقا ما فى مروياتهم اوردوه بعينه وسترى ذلك فى كل ما الف من زمان تاليف المسند لابى داود الطيالسى من كتب الحديث المعتبرة . حتى ان عبدالله ابن امام السنة احمد بن حنبل الراوى لمسند ابيه قد اوضح الفرق الكائن فى اللفظ قراءة وكتابة كما وجد فى محل من المسند لفظة مكتوبة بمقطعات فاوضح ان هذه اللفظة المكتوبة بالمقطعات قد وجدت هكذا فى الاصل ولكنى حينما قرأتها على شيخى فقرأها مركبة (٢) ومسئلة الرواية بالمعنى والرواية بالالفاظ التى تبحث كتب الاصول فيها ، اوثق شاهد وادل دليل على انها وجدت جماعة من المحدثين اول عصر الجمع ، وان لم يكن من بادئ بدئه فمن اقرب ما يكون بعده ولم تكن تدع الاحتياط فى رواية الحديث بجهد المستطاع .

وهؤلاء خدم الحديث المخلصون ، للتنقيب عن الحديث ، بلغوا فن الاسناد ذروة الكمال ؛ ولاستعمال الاسناد ونقده جمعوا ذخرا كريما وكنزا عظيما من اسماء الرجال الذى ليس له فى العالمين مثل ؛ حتى ان فضيلة الاستاذ المحقق الطائر الصيت اسفرنغر ومرجليوث وغيرهما اثنوا عليهم الثناء الجميل ـ وهم الذين جاهروا بسوآت الوضاعين علما وطالعوا الاحاديث حديثا حديثا بامعان وتثبت ثم حللوها وجزأوها ، وقابلوا بين الاحاديث المؤتلفة المعنى ، واخترعوا لها اصول الدراية والرواية ؛ واخرجوا الموضوعات من كامنها ، وفتشوا عن

---

(١) ترِيڈیشن آف اسلام ـ ص ٢٩ (٢) مسند احمد ج ٤ ص ٩١

الاحاديث المدرجة ، ثم نبهوا على اللفظ المدرج ومحله؛ ولنقاء الحديث من الموضوعات اخترعوا اصولا دونك بعضها .

(الف) ما روى فى المناقب وفضائل الاشخاص والقبائل والبلاد من الروايات اعمها ساقطة الاعتبار لا يعول عليها (ب) ما بشر بها الاجر الكبير ازاء العمل الصغير فان اعمها موضوعة (ج) ما بحث فى اصطلاح اوامر دنيوى يبعد كل منهما من شأن الرسالة جدير بان لايقبل عموما . ومن شاء الاطلاع عليها بالاستقصاء فليراجع كتب الاصول من الفقه والحديث يراها مشحونة بها - فهؤلاء خدم الحديث بجهادهم العلمى قد قطعوا دابر الوضاعين فى جهة، وفى جهة اخرى الفوا تاليفات قد حظيت بالقبول وعول عليها النقاد فى الصحة فجعلوا لها محلا ورتبوا لها مراتب من حيث درجة قبولها وصحتها فعدت كنزا عظيما وذخرا ثمينا وليس ببعيد أن لا تخلو هذه التاليف والمجاميع ايضا من الروايات الساقطة عن الاعتبار، بل الحق ان المحدثين الكرام بانفسهم تعقبوا على بعض اجزائها ، ومع ذلك لاريب لمرتاب ان المحدثين لسعيهم البالغ وجهدهم التام قد اعدوا لنقدها وتهذيبها عدة تدافع عن حوزتها وتناضل من ورائها بل يسوغ لى ان ابوح بلسان طلق وبيان ذلق من غير أن اخاف لومة لائم اورد راد أن ما عندنا من عدة النقد والتميز بين صحتها وضعفها ورفعها ووضعها لا توجد امة علمية تقدم ازاءه ادبها ولو بلغت مناط الثريا .

وما ذكرناه آنفا من الحركة فى المحدثين لسد ابواب وضع الاحاديث بثبات الجاش فقد اخذ فى عهد النبى عليه السلام وجعل يدب دبيبا ويسير رويدا كما دلت عليه الاحاديث نفسها من حيث لم تدع للشك مجالا ،و قدمته آنفا ولكن مع ذلك فضيلة الاستاذ المحقق غولدزيهر يرى ان ذلك قد بدأ فى غضون القرن الثانى والثالث من الهجرة وانبث فى المحدثين فيه فانه يقول« ان السبيل السهل الذى سلكه المتقون من المحدثين فى سعيهم البليغ لاستئصال الوضع فى الاحاديث وقطع دابره لأغرب مايوجد فى التاريخ الادبى فانهم استعملوا لهذا الغرض الدينى

الاحاديث

الاحاديث الموضوعة والمدرجة التى ادرجوا فيها من عند انفسهم ماكان فيه وعيد شديد للوضاعين » وذلك الفاضل الالمانى يزعم ان حديث من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، وما فى معناه قد وضعها المحدثون ليصرفوا الوضاعين عن وضع الحديث ! ومع ذلك يقول ان هذه الرواية وما فى معناها تروى من زهاء ثمانين طريقا وبعض الروايات منها يوصل سندها الى عثمان بن عفان وغيره من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين (١) ٠

فهو لايحسب هذه الروايات مما يعول عليها فى الصحة ويوثق بها ـ ولكنه لم يبين لقوله هذا وجها وجيهـا ولا دليلا قويا ـ وعندى ان مثل هذا الرأى لايقوم عليه دليل ولا يزيد على قول فارغ ووهم محض ، يبعد عن شأن مثله ـ

وعلى كل ذلك يتأتى لنا ان نبتّ القول فى ان رأى الفاضل غولدزيهر فى وضع رواية من كذب على الخ من غير أن يقوم عليه دليل ، رأى كله استبداد ؛ وهو من مثله لغريب : لان فتنة وضع الحديث تداخذت تنمو فى عهد النبى عليـه السلام . وقدم قولنا فيه فى باب الوضع : وايضا انه عليه السـلام قدعاقب الوضاع بعقاب شديد ؛ ولذلك اى عجب فى دعوانا و غرابة فى رأينا اذا رتأينا انه عليه السلام بنفسه قدنهى الناس عن اختلاق الكذب عليه وحذر الناس منه ؟ أليس ذلك مما يقارن القياس ؟ بل لو لم يصدر من مثل محمد الهادى عليـه الصلاة والسلام الذى قد رزق من الذكاء والفهم والتدبر حظا وافرا ، لكان ذلك من مثله بعيدا ٠

المحدثون الكرام واعتزالهم عن روابط الدولة

لابد لنهضة العلوم من يد الدولة؛ ولذلك لم تزل رهينة فى رقيها بمساعدتها فالعلوم العربية والفنون الفارسية وادبها تدنشأ بعناية خلفاء العباسية وسلاطين الاسلام وبلغت مبلغها الرفيع ؛ كذلك نرى ان نهضة العلوم الاسلامية واللغة الاردوية فى ايامنا السعيدة هذه، فى وطننا الحبيب هذا ، لم يقم اكثرها على ساق الا بعناية عظمة النظام خلد الله ملكه، فان دائرة المعارف التى نحن حاضرون

---

(١) المطالعات الاسلامية ج ٢ ص ١٣٢ ـ ١٣٣

حفلتها الاولى، وجل مساعيها العلمية ثمرة قطرة من غمام هذا الكريم و نفيان يدى هـذا الجواد ، ونعم انه لكبير واذا صدر من الكبير امر خطير فليس بغريب ــ ولكن تاريخ ادب الحديث، عندى ، لم يزل غنيا عن مساعدة الخلفاء وسلاطين الاسلام سواء كانوا بنى امية او العباسيين ــ فالمحدثون الكرام الذين بمقاومتهم الكوارث و مكابدتهم المشاق قد حزنا كنوز هذا العلم الرزين وذخره الثمين ، فضلا عن ان يحظوا بمساعدة الخلفاء والملوك ، هم رحمهم الله قد اضحوا ادرية نوائبهم وغرض مصائبهم فساموهم باشد عذاب ــ واى عذاب تركوهم فى العقاب ، فان نال بعضهم منهم بعض العناية والعاطفة الكريمة ليظللوهم بظل ملوكيتهم فهؤلاء المخاصون ، مخاصو الدين ، مجاثم الاباء ، تماثيل الصدق، رفضوا اظلهم السابغ وكرمهم البالغ ــ فان استظل بعضهم بظلهم و الاهم بولائهم فمابرحت فى سطوة الملوكية وابهتها حياتهم تنقضى بين الخوف والرجاء والنعم والبرحاء ــ ويدلك على ذلك ان المضادة بين ارباب الدول والمحدثين لم تزل منذ عهد الخلفاء الراشدين ــ فسيدنا عمر رضى الله عنه وارضاه ، قد عاتب اباهريرة رضى الله عنه ، وكان يسوغ له ذلك سدا لذريعة الكذب الى النبى عليه السلام، على كثرة روايته (١) وحبس ابن مسعود وابا الدرداء وابا مسعود الانصارى عليها (٢) وابو ذر الغفارى الزاهد الاواب ايضا اصبح هدف ذلك العقاب (٣) ثم مع تقلبات اهل الدول و اربابها اخذت علائق المحدثين تتقلب معها تقلبا سيئا حذو القذة بالقذة والاسى بالاسى ــ ولذلك اكابر المحدثين ولوا عن السياسة جانبا ــ ثم خالف سلطان زمانه بعضهم خلافا ظاهرا و استقام ببعضهم الاعتزال الى آخر الاحوال من حلول الآجال ــ فهؤلاء العبادلة الاربعة الذين هم اساس علم الحديث ودعامته ، منهم ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يخض غمارها ولم يتلوث بعارها وشنارها قط ؛ وحينما دعاه مروان ليكون

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١٨ (٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٧
(٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦

هو

هو ايضا من طلبة الخلافة رفض دعوته وابى ان يخضع لها كل الاباء (١) وكذلك عبدالله بن عباس رضى الله عنهما لم يشبه غبار الفتن الكائنة بين عبدالله بن الزبير وعبدالملك (٢) .

نعم قد خرج عبدالله بن عمرو بن العاص الى صفين لامر ابيه واصراره عليه ولكنه سوى خروجه اليها لم يزل طاهر الذيل فى القتال (٣) .

وعدا اولئك من الصحابة والتابعين الذين اكثرهم كانوا يعدون اساس علم الحديث ودعائمه لم يزالوا بمعزل عن الفتن السياسية فابوذر (٤) ومحمد بن مسلمة (٥) وسعيد بن المسيب (٦) وابوالعالية (٧) والمطرف (٨) والحسن بن سيار (٩) ومسروق (١٠) وامثالهم ظلوا على مراحل من الحروب التحزبية عهد نشأتها ـ فكم منهم من آثر السجن وتحمل الشدائد ورضى عن الجور بوجه باسم وانف شامخ ! ولكن لم يركن هؤلاء عشاق الصدق والحق ضد ايمانهم ـ فسعيد بن المسيب قد عذب بالسياط من قبل عبدالله بن الزبير وعمال بنى امية ولكن لم يدع (رضى الله عنه) رضى الجمهور من المسلمين فلم يبايع احدا قبل ان يبايعوا (١١) .

وفى عهد الامويين عدا العصر الذهبى لعمر بن عبدالعزيز رحمه الله الائمة الكبار من المحدثين عامة ، نأوا عن السياسة جانبا وضادوهم كل المضادة فالحسن البصرى وامثاله قد قاسوا الشدائد من الملوك الاموية وعمالها . ولكن مع ذلك ابوا كل الاباء أن يخضعوا لولاتهم. وكذلك عبيدالله بن ابى رافع (١٢)

---

(١) طبقات ابن سعد ـ ج ٤ ـ قسم ـ ١ ص ١١١ (٢) اسد الغابة ـ ج ٣ ص ١٩٣ (٣) اسد الغابة ـ ج ٣ ص ٢٣٤ (٤) طبقات ابن سعد ـ ج ٤ قسم ١ ص ١٦١ (٥) طبقات ابن سعد ـ ج ٣ قسم ٢ ص ٢٠ (٦) طبقات ابن سعد ـ ج ٥ ص ٩٠ (٧) طبقات ابن سعد ـ ج قسم ١ ص ٨٢ (٨) طبقات ابن سعد ج ٧ قسم ١ ص ١٠٣ (٩) طبقات ابن سعد ـ ج ٧ قسم ص ١١٥ (١٠) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٥ (١١) طبقات ابن سعد ـ ج ٥ ص ٩٥و٩٥ (١٢) الكامل للبرد ج ١ ص ٢٨٤ .

وابن ابى كثير (١) وغيرها قدخالفوهم جهارا فعوقبوا لمخالفتهم اياهم - ومناظرة احنف بن قيس مع معاوية رضى الله عنه ومناظرة الاعمش مع عبدالملك ومناظرة الحسن البصرى مع عمر بن هبيرة التى نقلها ابن خلكان فى وفيات الاعيان (٢) تدل على ان روابط المحدثين مع بنى امية وعمالها لم تزل مقطوعة مرهوبة .

ولما انقرض الامويون واستخلف العباسيون فهؤلاء الملوك ، حماة لواء الاسلام الاحداث لما استقربهم القرار وتمكنوا من الدولة كل التمكن تجانس صنيعهم بصنيع الامويين مع المحدثين - فالمنصور العباسى قد امر بقتل سفيان الثورى (٣) رضى الله عنه وعذب مالك بن انس بالسياط (٤) وامام السنة احمد بن حنبل رضى الله عنه قد تجرع غصص الآلام من مثل المامون الكريم الخبير بقدر ذوى الاقدار المبجل العلم والعلماء ، ما غادر سمة سوداء على ممر الايام لمثله من خلفاء الاسلام بل كل امام من الائمة الاربعة رضى الله عنهم لم يسلم من ظلم العباسيين ، وكذلك مؤلفو الصحاح الستة لم يصم احد منهم جبينه بولاية اى ملك وامير ، بل ذخر الحديث الاهم الذى لم يزل الى الآن معمول المحدثين ليس الاثمرة جهد المظلومين ، مظلومى الدول مقهورى الملوك المحدثين .

لا شك ان كثيرا من رواة الحديث وخدمه الذين تقدم ذكرهم آنفا ، قد خدموا الملوك والامراء وجالسوهم وتقربوا اليهم ولكن عدا البعض منهم لم يكن يعد عندائمة الحديث ولا اقرب الى الاعتبار ولا ممن يعول عليه وفى هؤلاء القليلين كان ابن شهاب الزهرى رحمه الله تعالى فهو قد صاحب خلفاء بنى امية الى زمان ؛ ورواياته فى كتب الحديث اكثر من ان تحصى ، وله فى رواة الحديث مكان مكين ، وقد تخرج عليه كثير من اجلاء المحدثين ، وله سهم كبير فى تدوين الحديث حتى لو قلنا انه عماد اقصر التدوين لما كنا من المبالغين ولا من المطرين .

---

(١) تذكرة الحفاظ - ج ١ ص ١١٥ (٢) طبع اوربا رقم ١٥٥ و ٢٧٠ و ٣٠٤ (٣) تهذيب الاسماء ص ٢٨٧ (٤) وفيات الاعيان طبع اوربا رقم ٥٦٠ .

ادا

اما المستشرق الشهير الالمانى غولد زيهر يرى انه رحمه الله فى بنى امية كان يضع من الاحاديث ما يلائمهم ، وهو الذى وضع رواية لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد الخ ليبجل فى اعين الناس بلاد بنى امية فى الشام (١) وان صح قوله هذا فلامحيد من ان يسقط عن الاعتبار عدد وافر من الاحاديث التى قد قبلها المحدثون ووثقوها . ولكن صدق الزهرى ومكانه كما سلم عند المحدثين قد عرفها كل من له علاقة بادب الحديث ، ولنزد على ذلك ماباح به بعد التنقيب فى توثيقه واعتباره المحقق لالمانى الشهير هورووتس ، وهذا الفاضل قد خضعت دونه فى النقد رقاب الخواص والعوام من الاوربيين .وله شغف باسماء الرجال ما ليس بقليل ، وناهيك بعظمته انه ممن اعتنى اعتناء كاملا بتصحيح طبقات ابن سعد ونشرها وانقدم ما قاله هذا الفاضل فى الزهرى رحمه الله« ان مثل الزهرى لا يخترع شيئا ولا يفترى كلمة لكرامة احد عنده ، بل بينه وبين عبدالملك لم يزل اختلاف الآراء وربما استحر الكلام بينهما وانجر الى مجاوزة الحد » اما رايه فى رواية « لا تشد الرحال » الخ انها ليست من موضوعات الزهرى بل رواها رحمه الله تعالى بصحيح علمه وقوى يقينه (٢) — والاصل ان المحدثين قد اختلفوا فى مسئلة التعاون مع الجورة من السلاطين على ثلاث فرق ففرقة لم تعترف بجوازه مطلقا ، واخرى تجوزه لكن فى الخير فقط ، والثالثة لم تزل قائمة على ساقيها فى التعاون بهم خيرا كان اوشرا — وهذه الفرقة الثالثة تعرف عند العلماء الكرام بعلماء السوء وقد كثر عددهم حتى طفحت بذكرهم كتب الرجال — ومن شاء مراجعة ذلك فليراجع ميزان الاعتدال — فانه قد حوى ذكر اكثرها — ويتأتى لنا ان نلقب الثانية بالمقتصدين — ومن اولئك كان الشعبى ، وقبيصة ، والاوزاعى ، ومالك بن انس ، والشافعى ، ورجاء بن حيوة ، رضوان الله عليهم اجمعين — وهؤلاء كانوا يترددون الى الامراء ويصاحبونهم ويسعون فى ان يهدوهم الى الصراط المستقيم ويثبتوا المتثبتين

---

(١) المطالعات الاسلامية — ج ٢ ص ٣٥ و ٣٩ و ٤٠ . (٢) اسلامك كلچر ج ٢ ص ٣٠ ، ٤٨ (٤) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦

حتى امام دار الهجرة مالك بن انس رضى الله عنه قد قيل له مرة انك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون ! فاجابهم « يرحمك الله فاين الكلام بالحق »(١) وعندى ان الامام الزهرى رحمه الله ايضا كان منهم فمنهم من قد تعلق باهداب خد متهم صنيع الزهرى رضى الله عنه ، والبعض كامثال مالك بن انس والشافعى رحمهما الله وغيرهما قد انكرها - واما الفرقة الاولى فيسوغ لنا ان نعرفهم بالمتقشفين ، ومنهم سفيان الثورى ، وايوب السختيانى وابو قلابة وعبد الله بن المبارك ، ومعمر و سحنون وغيرهم - اما سحنون فكان يقول ان من ذهب الى القاضى ثلاث مرات من غير حاجة فلاتقبل شهادته .

٥ - مكان النساء فى درس الحديث وتدريسه

قد وقفنا من درس تاريخ العلوم والفنون ان الكريمات من النساء والنجيبات منهن لم يكن لهن فى درسه نصيب وان كان فلم يكن الا شذوذا والشاذ كالمعدوم ولكن الخائضات من النساء فى عباب الحديث فكانت لهن مع الرجال يد ظافرة وسعى غير قليل - ومن تصفح تاريخ علم الحديث رأى فى اول نظرة ان المئات من النساء لم تتشرف بدرس الحديث فقط بل كان منهن عدد وافر فى التدريس له باع طويل وصيت طائر لحذقه فيه وتضلعه منه والنساء المسلمات اللاتى يعرفن فى عصرنا بالصنف اللطيف كن مثل الرجال فيما خلا من القرون يتحملن مشاق السفر بوجه باسم وعزيمة راسخة فى طلب هذا العلم الثمين ؛ قد وجهن وجهتهن الى المراكز العلمية الشهيرة ، وحضرن حلق دروس الفطاحل بعددها الكثير مصطفة بالصفوف كالرجال محتكة مناكبها بمناكب اولى الافضال ، ونلن شهادات الفضل من العلماء الذين كان يشار اليهم بالبنان ؛ وفى المدارس الشهيرة التى جمعت الرجال والنساء قد افدنهم ؛ بل الحذاق من المحدثين قد حضروا دروسهن وعدوا ذلك لهم فخرا .

فهذه الفاضلات النبيلات لايزال الزمان يردد صدى اعمالهن الفخيمة

---

(١) جامع بيان العلم ج - ٢ - ص ١٨٥ ، ١٨٦

وغزارة

وغزارة علمهن الكريم علنا فان خرست السن قالهن فقد نطقت السن حالهن سرا وجهرا بما اصغى اليها العالم طرا ؛

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

اى سفر من اسفار الحديث عرى من تذكارهن - واى مكتبة لم تتزين جباهها بسيرتهن .

رب حى كميت ليس فيه امل يرتجى لنفع وضر
وعظام تحت التراب وفوق الا رض منها آثار حمد وشكر

فلقد ترى فهارس النسخ الخطية القديمة فى كثير من المكاتب متضلعة بسيرتهن ، وكتب الرجال بشهادة فضلهن فى التدريس طافحة، اسماؤهن فى المدرسين زينة الاسفار ، كما ان اعمالهن فخر لامة المختار ،(صلى الله عليه وسلم وعلى آله الاطهار الى يوم القرار) حتى ان كل من له ادنى علاقة بالحديث وان لم يرزق سعى التنقيب يرى فى اسانيد كتب الحديث انهن حللن فيها حلول العقد من الجيد ، بل قل انهن اصبحن فيها بيت القصيد - ومن اراد الاطلاع على ذلك فليراجع ما نشرته دائرة المعارف بحيدرآباد دكن (الهند) وغيرها من كتب الاسانيد والرجال يجد فيها تذاكر كثير من النساء من حيث المعلمات - فهذه امهات المؤمنين باسرهن ، بعد انقضاء عهد النبوة ، ثم التابعيات اصبحت سهامهن فى رواية الحديث ، وسعيهن فى بقائه اشهر من ان يذكر - فن المؤلفات الحديثية بانواعها المختلفة تجد فيها الوفا من المرويات ترويها مئات من النساء واجدرهن بالذكر واخصهن بالتنويه ام المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنها وارضاها فانها قدعدت فى المكثرين ، ولهافيهم مكان مكين ؛ وكما لها حظ وافر فى الرواية كذلك لها سهم كبير فى الدراية - وقد لوح الى ذلك العلامة السيد سليمان الندوى فى تأليفه الانيق، سيرة عائشة ، الحاوى ما لها من التخصص فى الدراية مع الرواية - وأخرى من الراويات ترى سيرهن فى الجزء الثامن من طبقات ابن سعد .

وبعد أن الفت الكتب المهمة من الحديث فى غضون المائة الثالثة والرابعة ترى كثيرا من المحدثات قد تضلعن بهذه الكتب وحذقن فيها وكانت لهن يد فى تدريسها ايضا ، وقد ذكر الخطيب البغدادى بعضهن فى تاليفه تاريخ بغداد ، فمنهن فاطمة بنت عبد الرحمن المتوفاة سنة اثنتى عشرة بعد ثلثمائة ، وهى لحياتها الزاهدية ولباسها عرفت بالصوفية ، وفاطمة بنت ابن ابى داود ، وامة الوحيد بنت المحاملى المتوفاة سنة سبع وسبعين بعد ثلثمائة ، وجمعة بنت احمد ، قد افدن بدرس الحديث واشتهرن من حيث الحديث (١) .

وفى غضون المائة الخامسة والسادسة وجدت من النساء فاضلات محدثات قد اعترف بفضلهن المهرة الحذاق من المحدثين ، وقد ذكر بعضهن مؤلف شذرات الذهب فى كتابه ، فمنهن فاطمة المتوفاة سنة ثمانين بعد اربعمائة وهى كانت بنت حسن بن على الدقاق الصوفى الشهير ، وقرينة اشهر الصوفيين ابى القاسم القشيرى رحمه الله تعالى ، وكانت من اشهر المحدثات والمحدثين فى المائة الخامسة من الهجرة وقد امتازت فى مبادئ تعليمها بحسن الخط ثم حظيت بسهم وافر فى العلوم الاسلامية ، ثم حثت راحلة طلبها الى المراكز العلمية الشهيرة ، وتعلقت باهداب الفطاحل من المحدثين ، وبرزت نسيجة وحدها فى الحديث وكانت تعد من اشهر المحدثات والمحدثين وفاقت فى عصرها بعلو الاسناد . (٢)

وكانت كريمة بنت احمد رحمها الله تعالى تعد ركنا ركينا للحديث (٣) ، وتحضر دروسها العلماء الكبار كالفاضل المؤرخ الشهير ابو المحاسن المصرى (٤) والفاضل المحدث الفقيه المعروف بالخطيب البغدادى (٥) والمحدث الشهير

---

(١) تاريخ بغداد ج ٤، ص ٤٣٣ – ٤٤٤ (٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٨ وفيات الاعيان طبع اوربا رقم ٤١٠ (٣) ابن الانير ج ١٠ ص ٢٨ (٤) المطالعات الاسلامية ج ٢ ص ٤٠٥ حاشية – ١ (٥) معجم الادباء ج ١ ص ٢٤٧ .

ابو عبدالله

ابو عبد الله محمد بن نصر المعروف بالحميدى الازدى (١) كلهم كانوا من جناة ثمارها العلمية ، وقد اعترف العلماء بفضلها وسبقها فى تدريس الجامع الصحيح للبخارى حتى ان محدث هراة اباذر رحمه الله تعالى قد وصى الطلبة ان لا يأخذوا الجامع الصحيح الا عنها (٢) .

والحق ان النساء كان لهن حظ وافر وسهم كبير فى تاريخ التدريس للجامع الصحيح كما اشار اليه الفاضل المستشرق غولد زيهر اما الشهيرات من معلمات الجامع الصحيح فمنهن فاطمة بنت محمد المتوفاة سنة تسع وثلاثين بعد خمسمائة ؛ وشهدة بنت احمد المتوفاة سنة اربع واربعين بعد خمسمائة ، وست الوزراء بنت عمر المتوفاة سنة ست عشر بعد سبعمائة (٣) وهن من اولئك الذين يجدر بان ينوه بهم — اما فاطمة فكانت اخذت الحديث عن المحدث الشهير سعيد بن العبار وكان المحدثون يذكرونها بمسندة اصبهان — اما شهدة فكان لها فى الخط باع طويل ، وفى الحديث كانت سندا ، واصحاب السير يذكرونها بخطاطة ، سند الحديث ، فخر النساء — وجدها كان يعمل الابر ولذا عرف بالابرى — وابوها قد رزق شغفا بالحديث فأخذه عن اربابه فى عصره (٤) وراعى فى تعليمها اتقان الاساس والغزارة ، وكان زوجها رجلا كريما محبا للعلوم على بن محمد وكان من الاعيان واختص بالامام المقتفى لامر الله ، ولعله رعاية لقرينته بنى مدرسة لاصحاب الشافعى على شاطىء دجلة وبنى جانبها رباطا للصوفية ووقف عليهما وقفا خطيرا — وخلاصة القول ان شهدة رحمها الله تعالى قد رزقت صيتا طائرا فى الحديث وامتازت بعلو سندها خصوصا (٥) وكان يحضر حلقة درسها عدد وافر من الطلاب ، ووصفها [illegible] بعضهم [illegible] احتلالا واقتراء (٦) وايضا ست الوزراء كانت [illegible] ودرست الجامع

---

(١) فهرست مكتبة [illegible] ج [illegible] ص ٩٨ — [illegible] (٢) خطط [illegible] الاسلامية ج ٢ ص ٤٠٦ (٣) شذرات الذهب ج [illegible] و ج [illegible] ص ٤٠ (٤) التكملة لابن الابار ج [illegible] (٥) [illegible] طبع اوربا رقم ٢٩٥
(٦) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٦ .

الصحيح بمصر ودمشق(١) منهن ام الخير أمة الخالق المتوفاة سنة احدى عشرة بعد تسع مائة وهى تعرف بخاتمة محدثات الحجاز(٢) وكذلك عائشة بنت عبدالهادى درست الجامع الصحيح (٣)

وبعد مطالعة كتب الرجال وحواشى المخطوطات فى علم الحديث واجازات المحدثين والاسانيد يبت القول فى ان النساء لم يدرسن الجامع الصحيح فقط على اسلوب يجدر به الثناء ويقدر قدره ؛ بل عدا الجامع الصحيح قد درسن الكتب الاخرى من الجوامع والسنن والاسانيد وقد بلغ حظهن فى ذلك مبلغا عظيما فام الخير فاطمة بنت على المتوفاة سنة اثنتين وثلاثين بعد خمسمائة ، وفاطمة الشهرزورية قد درستا الصحيح لمسلم بن الحجاج (٤) وفاطمة الجوزدانيه المتوفاة سنة اربع وعشرين بعد خمسمائة قد درست المعاجم الثلاثة للطبرانى(٥)وزينب الحرانية المتوفاة سنة ثمان وثمانين بعد ستمائة كان يحضر درسها عدد خطير من الطلبة (٦) وهى رحمها الله تعالى قد القت الخطب على المسند الضخم لامام السنة احمد بن حنبل رحمه الله تعالى (٧) وجويرية بنت عمر والمتوفاة سنة ثلاث وثمانين بعد سبعمائة ، وزينب بنت احمد بن عمر المتوفاة سنة اثنتين وعشرين بعد سبعمائة قد كابدتا متاعب السفر الطويل فى طلب الحديث وألقتا الخطب فى المدينة المنورة وفى مصر ، واقرأتا سنن الدارمى ومسند عبد بن حميد ؛ وكانت الطلبة لاستشفاء غليل طلبها تقصدهما من بلاد شاسعة وشقة بعيدة (٨) وزينب بنت احمد الكمال المتوفاة سنة اربعين وسبعمائة قد اخذت مئات من الشهادات ،ودرست مسند ابى حنيفة رحمه الله تعالى ، والشمائل للترمذى ، وشرح معانى الآثار للطحاوى

---

(١) شذرات الذهب ج ٦ ص ٤٠ (٢) شذرات الذهب ج ٨ ص ١٤ (٣) كتاب الامداد ص ٣٦ (٤) شذرات الذهب ج ٤ص .. ـ إتحاف الاكابر ص ٦٤ (٥) كتاب الامم لايقاظ الهمم ص ٣١ (٦) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٠٤ (٧) كتاب الامداد ص ١٥ (٨) كتاب الامم ص ٢٨ ـ ٢٩ ـ شذرات الذهب ج ٦ ص ٥٦ .

و هذه

وهذه زينب ايضا قد اخذت معانى الآثار عن محدثة تعرف بعجيبة بنت ابى بكر (١) وهذه عجيبة قد قرأ عليها وعلى غيرها من المحدثات بعض كتب الحديث الرحال الاسلامى الشهير ابن بطوطة حين كان بدمشق (٢) ومحدث دمشق ووحيدها فى فن السيرة، ابن عساكر الذى كان اخذ الحديث عن مائتين والف محدث وعن ثمانين محدثة، وقد الف رحمه الله رسالة فى سيرهن (٣)، وايضا قد نال شهادة الموطأ للامام مالك رضى الله عنه عن زينب بنت عبد الرحمن المحدثة — والعلامة السيوطى رحمه الله تعالى قد قرأ الرسالة للامام الشافعى رحمه الله على هاجر بنت محمد المحدثة (٤).

وبعد المائة السادسة من الهجرة قد اهتاج سيلان جارفان ففى جهة الحروب الصليبية قد زعزعت بنيان دول الاسلام، وفى اخرى التتر قد قوضت خيامه وجعلت الارض — ارض السلم — عاليها سافلها، ان كانت عساكر النصارى العطاش ترتوى من دماء المسلمين فى جهة الغرب وتزعزع بنيان شرفها وسيادتها، ففى جهة الشرق كان هولاكو داهية دهياء يسفك الدماء ويدوخ البلاد ويفسد فى العباد — وفى المائة السابعة قد بلغ الجور مبلغا عظيما وسيل الطغيان بامواجه المتلاطمة وتياره المهيب المدهش تدعم بسيطة الاسلام واخذ ينصب من ههنا وههنا حتى طفحت به بلاد الاسلام وشرقت بدماء ابنائها الكرام، وقصر التمدن الاسلامى الشامخ تراه كأنه خرمن مكان سحيق لا بواكى له ولا رفيق — ولكن فى تلك الايام ايام الغارات يام [illegible] الحرمات، هذه مجاهدات العلوم بعواطفهن الحماسية كن يجاهدن فى [illegible] العلوم جهاد الابطال فى حومات القتال: لم تدكدك عزائمهن الحروب ولم تروعهن الكوارث والكروب؛ وترى هنالك جهاد هن [illegible] العلوم [illegible]

---

(١) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٢٦ — [illegible] ص ١٤ و ٨ — تطف الثمر ص ٧٣ — المطالعات الاسلامية ج ٢ ص ٤٠٧ (٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٥٣ (٣) معجم الادباء ج ٥ ص ٤٠ — ٤١ (٤) [illegible] ص ١٧

العذب كمرآة الغريبة صفاء وجلاء ــ اين الرجال ايها الرجال! النساء ذوات الخمر ربات السوار والحجال فى تلك الايام، ايام الفتن السود، ايام الشقاء والجمود، سعيهن البليغ وجدهن الشديد بعواطف الشجاعة الكاملة لم يزل جديدا! فكم من نساء قد سفرن فى ايام هذه الفتن بكما لهن بدورا؛ وتركن دوى فضلهن يدوى لهن دهورا ــ فهل من رجل وان كان عليما حق عليم فضلا عن مآثرهن يذكر اسماء هن؟ كلا! قد خرست الالسن وعميت القلوب وعمت البلوى؛ فلا نشتكى الا الى الله ولا حول ولا قوة الا بالله ــ نعم على رغم الفناء حفظتها بطون الاسفار ــ فيالنا من الاسف والعار؛ فمن محدثات هذا العصر الحرية بالذكر زينب بنت الشعرى (٥٢٤ ــ ٦١٥) وكريمة (م سنة ٦٤١) وصفية بنات عبد الوهاب، وزينب بنت المكى المتوفاة سنة ثمان وثمانين بعد ستمائة ــ اما زينب بنت الشعرى فكفى لها فضلا ان ينتمى الى شرف تلمذها امثال ابن خلكان (١) الفاضل الشهير؛ وكريمة قد عرفت بمسندة الشام، وزينب قد امتازت بحضور حلقة دروسها افواج من الطلاب (٢) وقد ترقى عدد المحدثات فى غضون القرن الثامن والتاسع رقيا بينا كما يدل على ذلك ماسرده الحافظ الحجة الامام ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى من سير سبعين ومائة من المحدثات فى تأليفه الدرر الكامنة فى احوال رجال المائة الثامنة ــ وغيرهن من الفاضلات الكثيرات قد ذكرهن هذا الامام فى تأليفه الآخر إنباء الغمر ــ وفيهن كثير ممن قد حضر دروسهن وتشرف بالاستفادة منهن مثل هذا الامام ــ ومن المحدثات اللاتى كن فى القرن التاسع قد ذكرهن تلميذه العلامة الامام السخاوى فى تأليفه الضوء اللامع ــ وفى هذا العصر الزاهر العلامة ابن فهد قد تشرف بالاخذ عن ثلاثين ومائة محدثة قد ذكرهن فى تأليفه البديع معجم الشيوخ ونسخته الخطية محفوظة فى مكتبة بانكى فور ــ الهند(٣)

---

(١) وفيات الاعيان طبع اوربا رقم ٥٠. (٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٢، و ٤٠٤ (٣) فهرست مكتبة بانكى فور ج ١٢ ص ٦٣.

ومن محدثات القرن الثامن والتاسع اكثرهن قد عددن فى كبار المحدثين فمنهن ام هانئ مريم بنت فخر الدين محمد المتوفاة سنة احدى وسبعين وثمانمائة قد حفظت القرآن فى صباها ــ وبعد أن اتقنت العلوم المتداولة ارتحلت الى مكة المكرمة ومصر وهناك اخذت الحديث عن حذاق المحدثين وبعد تكميل العلوم اخذت تقرئ الحديث وتلقى الشهادة منها المحدثون وكانت رحمها الله تعالى بارعة فى الخط مالكة اعنة النظم والنثر قد اذ عن لحذقها فى الحديث المحدثون وناهيك بفضل من كان مثل العلامة ابن فهد لها تلميذا وكانت رحمها الله تعالى تقية صالحة صوامة وحجت ثلاث عشرة حجة .

وكذلك باى خاتون بنت ابى الحسن المتوفاة سنة اربع وستين وثمانمائة قد اخذت الحديث عن ابى بكر المزى الاكبر والاصغر وتلقت الشهادات من المحدثين والمحدثات واقرأت الحديث فى مصر والشام ــ وغيرهما كثيرات قد ذكرهن العلامة ابن فهد فى تأليفه معجم الشيوخ (۱) .

والذى يسنح لى بمعرفتى ان النساء اخذ ميلهن الى الحديث وشغفهن به يتقهقر بعد القرن التاسع ــ ويدل على ذلك ان العيدروس فى النور السافر، والمحبى فى خلاصة الاثر ، ومحمد بن عبد الله النجدى فى السحب الوابلة ، لم يذكروا فى كتبهم من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر اى فى ثلاثة قرون الابضع نسوة قد برزن فى الحديث ولم تعد فيهن اكثر من ثلاث فى طبقة الكبار من المحدثين .

ولكنه لا ينتج مما قلنا آنفا ان شغف النساء بالحديث كان لا شى فى تلك القرون مطلقا لان اسماء بنت كمال الدين موسى المتوفاة فى سنة اربع بعد تسعمائة كانت رحمها الله تعالى تدرس العلوم الاسلامية عامة والحديث خاصة ــ وكان لها فى عمال الدولة وولاتها نفوذ تام ومكان مكين حتى كانت تشفع فى الامور اذا شفعت بجلالتها وعظمتها عندهم ــ (۲) وكذلك عائشة بنت محمد بن احمد ، قرينة مصلح الدين ، المتوفاة سنة ست بعد تسعمائة قد درست كثيرا من

---

(۱) نسخة بانكى فور ص ۵۸ و ٦٦ (۲) النور السافر نسخة المكتبة الامبراطورية بكلكته ص ۲۸

الطلاب منهم ابن طولون امير مصر ثم نوض اليها التدريس بدمشق فى المدرسة الصالحية (١) وكذلك فاطمة المتوفاة سنة خمس وعشرين بعد تسعمائة كانت تعد افضل الفضلاء فى عصرها (٢)

وخاتمة المحدثات التى وقفت عليها فى السحب الوابلة لمحمد بن عبد الله النجدى ـ هى رحمها الله تعالى قد ولدت فى منتصف القرن الثانى عشر وكان لها فى حسن الخط فضل لاينكر ـ قد تضلعت بالعلوم الاسلامية ونسخت بيدها كتبا كثيرة وجمعت مكتبة شائقة ـ وكانت فى الحديث ذات باع طويل ونظر غائر ومادة غزيرة ، ظفرت بشهادات الحديث من الاعلام فى تلك الايام ومن حيث انها محدثة كان لها صيت طائر ؛ وفى آخر عمرها هاجرت الى مكة المكرمة زادها الله شرفا و تعظيما وجعلتها لها سكنى ؛ وهناك اشتغلت بتأسيس مكتبة عمومية ـ وقد حضر درسها هناك المحدثون الكبار ونالوا منها الشهادات فممن يجدر منهم بالذكر الشيخ عمر الحنفى والشيخ محمد صالح ـ ثم بعد ايام وقفت مكتبتها لله الكريم المتعال ـ ثم خرجت الى مدينة الرسول ابى البتول وتوفيت سنة سبع واربعين بعد المائتين والف رحمها الله تعالى رحمة الابرار واسكنها جنات تجرى من تحتها الانهار (٣)

وقد حوت المخطوطات العربية وحواشيها وكتب اسانيد الحديث ايضا اسماء من تعلمت الحديث وعلمت من النساء فمن تلك الاسفار ، المشيخة مع التخريج ، وكتاب الكفاية ، اللذان نسختاها محفوظتان فى مكتبة بانكى فور (الهند) وانجدن فى حواشيها واسانيدها مئات من النساء قد احتككت منا كبها بمناكب الرجال فى المدارس فى درس كتب الحديث وبعضها قد حظيت بسهم وافر فى تدريسه ايضا (٤)

---

(١) تاج الطبقات نسخة بانكى فور ج ٩ ص ٢٥ (٢) تاج الطبقات ج ١٠ ص ١٤٥ (٣) السحب الوابلة النسخه الخطية بمكتبة بانكى فور ص ٣٣٥ ــ ٣٣٧ (٤) فهرست مكتبة بانكى فور ج ٥ قسم ٢ ص ٥١ ، و ٥٢ و ٥٤ وغيرها .

٥ ـ الاسناد فى علم الحديث ، وتكميله

مكان الاسناد فى ادب الحديث مكان الاساس من البناء او الروح من الجسد فكما انه لاقيام للبناء اذا لم يكن له اساس ، ولا قوام للجسد اذا عرى عن الروح كذلك ادب الحديث ليس بادب اذا عرى عن الاسناد وذخره الذى ادخرته القرون الاربعة الاولية من الحديث ترى فى كل حديث منه سلسلة رواة تصحبه وهذا الذى يحوى سلسلة الرواة هوالذى يعبر عنه بالاسناد واما الحديث نفسه سواء كان قول الرسول اوفعله صلى الله عليه وسلم ، فيعرف بمتن الحديث .

فاذن الحديث عبارة عن جزئين . اولهما الاسناد ، وثانيهما المتن ــ وهذان الجزآن يعرفان عند المحدثين باصلى ادب الحديث الذى تدور عليهما رحاه .

وعندهم اذا عراه تغير ما من سنده فى اى محل كان اوفى متنه من اى نوع كان يتحول الحديث من صورة الى صورة وينتقل من حال الى حال بالنسبة الى نوعية تغيره ومن شاء الاطلاع عليه فليراجع اى كتاب شاء من اصول الحديث ، وبيان سلسلة الرواة بهذا النمط يعد لادب الحديث مقاما عاليا يهتم به لخصوصيته الخاصة ، فاذا عبرنا عن هذه الخصوصية الخاصة بالامتياز الداخلى لم نستعمل لها ما لا يناسب لها لان هذه الخصوصية متداخلة فى ادب الحديث نفسه ، والخصائص التى قدمناها سابقا حرية بان نعبر عنها بالخصائص الخارجية لانها نشأت لاحوال خارجية ، فهى خارجة عن ادب الحديث نفسه .

اختراع اسلوب الاسناد

اما الاسناد فعند جميع العلماء هو مما يختص بالحديث ويمتاز به ، والعلماء المستشرقون ايضا يرون ذلك كما يتضح من قول فضيلة الاستاذ المستشرق مارغوليته « للمسلمين ان يفتخروا بعلم الحديث » (١) ولا شك فى ان المسلمين كما التزموا الاسناد واهتموا به لايكاد يرى له نظير فى غيره من الآداب .

الاسناد فى عين فضيلة الاستاذين هوروتس والكائتانى

---

(١) عرب هستور ينس ص ٢٠

فضيلة الاستاذ الايطالى اى الكائتانى قد عرض سؤ الابديها فى أمر الاسناد وذاك ان اسلوب الاسناد هل ابدعته العرب ام ابدعه قوم ماقبلهم، ثم تلقاه العرب ممن قبلهم دأبهم فى تلقى العلوم الأخر من قوم آخرين، ولكن هذا الفاضل لم يشف عليل هذه المسئلة، ولم يقض فيها بما تشتفى به النفس و يثلج به الصدر وقد برهن على ادعائه هذا بقوله الغريب الانيق وذاك « ان العرب سكان الصحارى والفلوات، سكان الغابات والقفار، بل منهم اشبه بالوحش، مغلوبو الغيظ، الجهلة المتعصبون الذين لم يمسهم من غضارة التمدن مس ادنى، يستحيل من شمائلهم ان يكونوا اباعذرة الاسانيد ومخترعى هذا الاسلوب الانيق » (١) فانظر ايها الناظر المتثبت الحصيف أليس هـذا فارغا عن الدليل؛ أليس اسلوب هـذا القول من امارات ذلك التمدن الذى ثلب عليها العرب و اكل لحمهم ومع هذا فقوله هذا كله قدبنى على الظن و ان الظن لايغنى من الحق شيئا بل كان يتحتم على فضيلته ان يثبت ان العرب ليس لهم نصيب فى اختراعه بل لغيرهم — ولكن العجب انه نفى عن العرب اختراع الاسانيد ولم ينسبه الى غيرهم — وان هذا من مثله لبعيد مع انه فى بحبوحة تحقيقه فريد وفى التمتع من غضارة التمدن وحيد.

وقد سدخلل ما اخل فيه الفاضل الكائتانى الاستاذ المحقق هورووتس فانه قد كسا ظن الكائتانى العارى عن التحقيق، حلل التحقيق الحقيق وقد اثبت بعد ايراد امثلة غير قليلة ان اليهودهم الذين استعملوا الاسناد قبل العرب بزمان بعيد — وقد اثبت ان اليهود كانوا استعملوا الاسناد فى العهد الموسوى، وفى العهد التالى قد توجد اسانيد طويلة، (٢).

قد حل هذه العقدة قبل الكائتانى وهورووتس

سند الائمة الامام ابن حزم رحمه الله تعالى

وانى لست من اولئك الذين ينكرون قياس الكائتانى المحض ولا انتضاءل

---

(١) تاريخ الاسلام ج ١ ص ٣٠ (٢) دار اسلام ج ٥ ص ٢٩ و ٧٥ .

من

من الثناء على الفاضل هورووتس لتحقيقه المدلل - ولكن لا اكاد اتاخر عن العجب فى ان المسئلة التى عسرت على المستشرق الايطالى الشهير، وكذلك ثمرة التحقيق الذى جناها المحقق الالمانى الشهير بعد تقيب تفصدت به ثنايا جبينه، فى القرن المتقدم للعشرين، قد قضى وطره من حل تلك العقدة مع التفصيل الذى اتى به المستشرق الالمانى فى تحقيقه، محدث اندلسى قبل تحقيقه بنحو الف سنة - وهذا المحدث الاندلسى هو ابو محمد بن على بن حزم المعروف بالامام ابن حزم - وهو فى العلماء الاسلاميين واسطة العقد وفى محققيهم امام النقد - وعدا تحقيقه الانيق هذا، تصانيفه قد بلغت فى ضخامتها منتهاها - وقصارى القول ان تصانيفه من حيث الفوائد طافحة ومن حيث الضخامة فى المصنفين الاسلاميين عدا تصانيف الامام ابن جرير الطبرى قد سبقت سبق الجواد فى الرهان (١) ومن تصانيفه الشهيرة تصنيف يعرف بكتاب الفصل - فى الملل والنحل - وفى هذا الكتاب تداتى المصنف على روايات احكام الاسلام بقول فصل بسيط؛ وبين فيه اقسامها؛ وعرف فيها ان اى قسم من اقسامها قد استعمل قبل العرب فى ادب النصارى واليهود - وهذا نص ما اورده الامام فى كتاب الفصل فى الملل فيما يتعلق بروايات الاحكام (٢).

« ان نقل المسلمين لكل ما ذكرنا ينقسم اقساما ستة - اولها شىء ينقله اهل المشرق والمغرب عن امثالهم جيلا جيلا لا يختلف مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة . . .

والثانى شىء نقلته الكافة عن مثلها حتى يبلغ الامر كذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . .

والثالث ما نقله الثقة عن الثقة حتى يبلغ الى النبى صلى الله عليه وسلم، يخبر كل واحد منهم باسم الذى اخبره ونسبه؛ وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان . . . . وهذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر اهل

---

(١) معجم الادباء ج ٥ ص ٨٦ (٢) الفصل فى الملل والنحل طبع مصر ج ٢ ص ٦٧ - ٧٠ .

الملل كلها وابقاه عندهم غضا جديدا على قديم الدهور من اربعمائة عام وخمسين عاما . . . . .

والرابع شيء نقله اهل المشرق والمغرب اوالكافة اوالواحد الثقة عن امثالهم الى ان يبلغ من ليس بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم الا واحد فاكثر ، فسكت ذلك المبلوغ اليه عمن اخبره بتلك الشريعة عن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعرف من هو. . . . . ومن هـذا النوع كثير من نقل اليهود بل هوا على ما عندهم لانهم لايقربون فيه من موسى كقربنا فيه من محمد صلى الله عليه وسلم بل يقفون ولابدحيث بينهم وبين موسى عليه السلام ازيد من ثلاثين عصرا فى ازيد من الف وخمسمائة عام ـ وانما يبلغون بالنقل الى هلال وشمانى وشمعون ومرعقيبا وامثالهم ـ واظن ان لهم مسئلة واحدة فقط يروونها عن حبر من احبارهم عن نبي من متاخرى انبيائهم اخذها عنه مشافهة فى نكاح الرجل ابنته اذا مات عنها اخوه ـ واما النصارى فليس عندهم من صفة هـذا النقل الا تحريم الطلاق وحده .

والخامس شيء نقل كما ذكرنا ، اما بنقل اهل المشرق والمغرب اوكافةعن كافة او ثقة عن ثقة حتى يبلغ الى النبى صلى الله عليه وسلم ، الا ان فى الطريق رجلا مجروحا بكذب اوغفلة اومجهول الحال . . . . وهذه صفة نقل اليهود والنصارى فيما اضافوه الى انبيائهم.

والسادس نقل باحد الوجوه التى قدمنا اما بنقل من بين المشرق والمغرب اوبالكافة ، او بالثقة عن الثقة حتى يبلغ ذلك الى صاحب اوتابع ، اوامام دونهما انه قال كذا اوحكم بكذا غير مضاف ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الصنف من النقل هوصفة جميع نقل اليهود لشرائعهم التى هم عليها الآن مما ليس فى التوراة وهوصفة جميع نقل النصارى حاشا تحريم الطلاق ، الا ان اليهود لا يمكنهم ان يبلغوا فى ذلك الى صاحب نبى اصلا ولا الى تابع له واعلى من يقف عنده النصارى الشمعون ثم بولس» .

لاشك

لاشك فى ان توضيح ابن حزم عار عن القطعية والتفصيل والاختصاص الذى اتى به هوررووتس فى هذه المسئلة لكنه لاشك فى ان الفاضل المحدث الاندلسى قد اتى بما اورده الاستاذ الالمانى هوررووتس من الوقائع العمومية والنتائج المهمة التى استنتج منها اعنى ان اليهود كانوا استعملوا الاسناد فى ادبهم ، واما قوله اى هوررووتس انهم استعملوه فى العهد الموسوى فيقضى عليه انه مورد شك ومحل ارتياب قوى لانه (اى هوررووتس) لم يورد دليلا دالا على ان الاسانيد التى نسبت الى العهد الموسوى لم تلحق فى زمن بعده كما اشار اليه الامام ابن حزم رحمه الله تعالى ؛ ولان فى العهد الابتدائى لليهود لا توجد ذخيرة ما لاسماء الرجال وذلك قد اعترف به هوررووتس ايضا ولذلك لامحيد للانسان من الشك فى الجهالة عن احوال رواتهم كما قال الامام ابن حزم رحمه الله .

الاسناد فى ادب اهل الهند

لاشك فى ان اليهود والنصارى ايضا قد استعملوا الاسناد قبل العرب ولكن هل استعملها سواهم قوم ما ام لا ؟ قد يعسر القول فى ان اليونانيين والروميين هل استعملوا الاسناد ام لا — لكن الهندوك قد استعملوه فى ادبهم مع ان هذا البحث لم تمسسه يد التنقيب وارجو انى اول رجل كشف عنه القناع كما اخبرنى به صديقى الدكتور فرووده سندر راغجى — نطبق قوله يوجد من ادب الهند فى الهندوك والبوذيين والجينيين استعمال الاسناد فى محال شتى ويدل على ذلك مايوجد فى القطعة الاولى من مهابارتا « ان ويس قد صنفه وكتبه غنيش وويسا مفيان رواه وبين يدى الملك جنمجى تلاه — وهناك سوتى كان حاضرا ، فسمعه ورواه بين يدى العلماء (١) وكذلك يوجد الاسناد فى فرانا ايضا — (٢) وشروح ويدا ايضا لم تخل من سلاسل الاسناد وان كانت

---

(١) الترجمة الانجليزية لمهابهارتا عن پى — سى — رأى ج [illegible] رقم — [illegible] — رجع ايضا الى تاريخ ادب الهند لونترنتس ج — ١ ص — ٣٢٣ — ٣٢٤ (٢) ارجع الى [illegible] ارنكا نقل كيتهه ص ٧١ — ٧٢ .

قصيرة جدا ــ نعم لم يوجد فى ادب بوذا شيء من ذكر الرواة سوى ان فى رواية كل متن يقول الراوى انى سمعت كذا (ولكن عمن سمع فليس لذلك فيه تصريح) نعم قد توجد سلسلة الرواة فى زمن بعده ، لا سيما فى الادب الذى قد الف فى اللغة السنسكريتية ولكن الآن لم يوجد له اثر ولا عين سوى ترجمته باللغة التبتية ودونكم ما ذكرت فى خاتمة سدنغ يوغ من سلسلة الرواة ــ بوذا ــ جم دهرا ــ نغرجون ــ ناغستودهى ــ اريديو ــ كندا كرتى سكير كستا ــ راترامترا ــ دهرم بهدرا ــ غونا متى ــ منجو سرجنا نا ــ اموغهشرى ــ ويرامتى ــ وجايوكرتى ــ ورفرجنا ــ دهرما بهدرا ــ شريبهدرا دهرما قالا ــ شكيا دهرجا ــ واكشوا راكرتى ــ رتنا كرتى ــ ونا راترا ــ دهرما بدهى .

وآخر من فى هذه الرواة هو رجل من سكان شرقى الهند ، وهو الذى تولى ترجمة ــ سدنغ يوغ ــ الى اللغة التبتية بأمر عالم كان يعرف ــ برون ــ باعانة منجوسرى رانا ونسخته الى الآن محفوظة فى مكتبة فرنسا (١) .

ابتداء استعمال الاسناد فى الحديث

اما عندنا ، معشر المسلمين ، فمسئلة ابتداء الاسناد واستعماله فى الاسلام اهم من امر اختراعه وابتدائه ــ فعند فضيلة الاستاذ الكائتانى ان اول من استعمل الاسناد هو الزهرى المتوفى سنة اربع وعشرين بعد المائة ــ وتلامذته كموسى بن عقبة ، وابن اسحاق وغيرهم ،هم الذين بلغوه درجة الرقى فعلى رأى الكائتانى استعمال الاسناد فى الحديث لم يكن الابعد سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة ؛ وترقى بعد سنة خمسين ومائة (٢) . وعند هورووتس ابتداؤه كان قبل الثلث الثالث فى المائة الاولى من الهجرة ــ اما فضيلة الاستاذ هورووتس بعد ايراده بعض الدلائل القوية على دعواه يقول « ان الاسناد فى سنة خمس وسبعين كان يستعمل عموما استعمالا ابتدائيا وليس لاحد أن

(١) فهرست كوردير كتب تبت ج ٣ ص ٦٠، ٨٩، ـــ ١٦٩ وغيرها (٢) تاريخ

ينكر على عروة استعمال الاسناد لاجل ان لا يوجد فى تحاريره الاسناد الاشاذا (اما عند الكائتانى فان عروة لم يستعمل الاسناد قط) ليس لاحد ان يضرب الصفح عن الاحاديث التى يرويها عروة باسانيدها الكاملة (كما فعله الكائتانى) والحق ان فى عصر عروة كان استعمال الاسناد شائعا وان لم يبلغ مبلغا يعد للحديث جزءا ضروريا (١) وعندى هذه المسئلة اى مسئلة ابتداء استعمال الاسناد كما هى مهمة كذلك هى عسرة جدا ولكن ليس للشك مجال فى ان راى هورووتس يقارب رأى المحدثين ودعواهم فيه — ويدل على ذلك قول ابن سيرين وغيره من الائمة ، ان الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين لم يكونوا يكترثون بالاسناد فى عصرهم الاول ، ولكن من عصر الفتن اخذوا يشددون فى ذلك — والمراد بالفتنة ههنا فتنة على كرم الله وجهه عند البعض ؛ وعند الآخرين فتنة عثمان رضى الله عنه — وقد قيل فى الامام على رضى الله عنه انه امر طلبة الحديث ان لا ينسخوا الحديث الا باسناده (٢) وابو هند عبد الرحمن الصحابى كان يسدد عصاه الى تلامذته مروعا اذا ضربوا الصفح عن الاسناد فى نقل الحديث (٣) فمن هذه الامثال وشدة احتياط الصحابة فى أمر الحديث يستنتج من غير شك ومرية ان الاسناد أخذ يستعمل من المائة الاولى قبل وسطها وفى اواخرها صار للحديث جزءا لا ينفك ٠

تكميل الاسناد بين المسلمين

نعم الاسناد قد استعمله علماء الاسلام ، ولكن مهدوا له اصولا محكمة ملئت حكمة واستوعبت ضبطا ، وبلغوها ذروة الكمال ، ولاجله ادخروا ذخر اسماء الرجال — وهى التى تدور عليها رحى عظمة الحديث وقدره وقيمته وجعلوا لصحته اقساما ؛ وكل قسم جعلوا له مراتب تتبوأه اوزانه — نعم قد كان فى الهندوك واليهود استعمال للاسناد ولكن لم تكن عندهم له اصول يعتمدونها

---

(١) اسلامك كلچر ج ١ ص ٥٤٠ — ٥٥١ ٠ (٢) شرح المواهب للزرقانى — ج ٥ ص ٤٧٤ (٣) الجواهر المضية فى تذكرة ابى هند عبد الرحمن ٠

ويسلكونها ولم يخترعوا لنقدها مايصار اليها ويعتمد عليها رواية او دراية ؛ بل لم يخطر ببال الهنود ان يصنعوا بالاسناد صنيعا ليستفاد به ويعملوا له عملا يقدر به قدره ـ امافن اسماء الرجال الذى هو روح الاسناد فلايرى له فى ادبهم القديم عين ولا اثر بل قل ان ادبهم لم يزل محروما من اصول التاريخ ـ وكذلك اليهود ، ادبهم القديم عار عن اسماء الرجال وعن استعمال اصول التاريخ فيه ؛ بل ليس له فى ادبهم حظ ولا نصيب ما ـ ولذلك ترى الاسناد الذى يوجد فى ادبهم القديم جسما عاريا عن الروح ، حتى ان مثل هوروونس قد اضطر الى ان يكتب ان فى الادب التلمودى ليس لاصول التاريخ اسم ولا رسم ـ وزد على ذلك ان اقدم كتب اليهود فى اسماء الرجال هو الف بعد سنة خمس وثمانين وثمانمائة اى بعد مائة سنة من تأليف اول كتاب للسلمين فى هذا الموضوع ؛ وان اهم كتب اليهود فى هذا العصر قد الفت فى الممالك الاسلامية ـ فهاتان الحقيقتان تقضيان على ان غلو اليهود بالتاريخ كان رهين اثر المسلمين (١) .

الاسانيد المختلفة ومطالعته الاضافية

اما علماء الاسلام فلم يمهدوا للاسناد اصولا حكمية فقط بل امعنوا فى مطالعة الاسانيد المختلفة وجعلوا لها مراتب وانزلوها منازلها كما حكى ان احمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى قد جمعهم مجلس فتذاكروا اجود الاسانيد فقال قائل منهم ان اجود الاسانيد « شعبة عن قتادة عن سعيد عن عامر اخى ام سلمة عن ام سلمة رضى الله تعالى عنهم ـ وقال على بن المدينى ان اوثق الاسانيد ابن عون عن محمد عن عبيدة عن على ـ وقال احمد بن حنبل اوثق الاسانيد الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم » اما البخارى رضى الله عنه فاوثق الاسانيد عنده مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهم اما المتأخرون فقد اضافوا اليه احمد بن حنبل عن الشافعى عن مالك عن نافع عن ابن عمر وعند المحدثين يعرف هذا الاسناد بسلسلة الذهب ونظير هذا فى ادب الحديث قد عز وجوده كما قال السيوطى ان فى مسند احمد بن حنبل رضى الله عنه

---

(١) دار اسلام ـ ج ـ ٧ ص ٧ ٤٧ .

مع

عنه مع ضخامته لم يوجد بهذا الاسناد اى احمد عن الشافعى عن مالك الخ غير اربع روايات (١) وقد سعى بعض المحدثين فى تعيين اضعف الروايات ايضا فعند بعضهم اضعف الاسانيد محمد بن مروان عن الكلبى عن ابى صالح عن ابن عباس (١) .

استعمال الاسناد فى كتب الحديث

اما بدء استعمال الاسناد فى ادب الحديث فكان حديثا حديثا ، والى المائة الرابعة لم يزل على هذا المنوال — ولكن فى نهاية المائة الاولى حينما حوتها بطون الاسفار وانشعبت من هذا الادب علوم شتى اخذوا يستعملون الاسناد فى الكتب ايضا دأبهم فى الاحاديث المفردة — ومحافظة على الاحتياط خوفا من التحريف فى الحديث وتصحيفه جعل معلمو الحديث وفنونه المختلفة ديدنهم فى شهادات تلامذتهم ان يذكروا المعلمين المحدثين الذين رووا عنهم الكتب الحديثية، واخذوها عنهم كلها اوبعضها، مع بيان مقدار ما رووا ، ان كلافكلا اوجزءا بجزءا — وكان من شروط الشهادة ايضا ان يقرأ على التلامذة الشهادة بجميع ماذكرناه آنفا — وكان من واجباتهم فى ذلك ايضا ان يبلغوا سندهم من معلميهم الى مصنف الكتاب — والى يومنا هذا ، هذا الدأب مستمر فى المدارس القديمة ، ان الشهادة التى ينالها التلميذ لم يذكروا فيها ان التلميذ قد قرأ على شيخه كتابا اوكتبا فقط ، بل يلزم عليهم ان يذكروا المعلمين الذين رووا عنهم الكتاب الى ان يبلغوا سنده الى المصنف .

عصرنا هذا غنى عن هذا التكليف

اسلوب تعليم الحديث الذى قد مناه كان جديرا بالعصر الذى كان يعز فيه وجود الكتب ، ولم ترد على بعض النسخ الخطية ؛ ولذلك لم تزل معرضة للتحريف والتصحيف حتى كان غير عسير على المحرف والمصحف ان يفعل به ما يشاء — ولكن فى هذا العصر الزاهر الذى كثرت فيه المطابع ونشرت الكتب نشرا لم يوجد له فيما خلا من القرون مثال فاى عائد يعود علينا بتتبعنا

---

(١) تدريب الراوى ص — ٢١ .

صنيع علمائنا الاقدمين فى ان نذكر من قرأنا عليه او نبلغ سندنا الى مصنفى الامهات الست وغيرها بل اذا اعرضنا عنه وراعينا صحة الطبع والتزمنا فى نشر الكتاب ان لاينشر فى الطلبة الااذا وقع عليها من العلماء من كان سندا فى الحديث مسلما له الفضل فيه مصدقا بتوقيعه انه عانى بنفسه مقابلتها بنسخة معتبرة صحيحة لكان اعود وانفع .

ولكن من سوء حظنا ان علماء عصرنا الحاضر لايستحسنون ان يرغبوا عن طريق الاقدمين ؛ ويرون اتباع سنة الاقدمين فى شهادة الحديث (سند الحديث) ضربا لازما ـ نعم اذا اريد بذلك علو الاسناد فلم اخالفه ولن اخالفه لان ذلك من المزايا التى لا تنكر ـ والحق ان اصول تعليم الحديث بل تعليم كافة العلوم الدينية لم يبق منه الا رسمه وتلاشى روحه ـ واولئك الذين يرون اتباع سنن الاقدمين واجبا فى سند الحديث لايعرفون من فنون الحديث الااسماءها ـ عظمت حيرتى حينما قال لى شيخ قدافنى عمره فى تدريس الحديث، ان اقدم كتب الرجال تاريخ البخارى رحمة الله عليه ـ ليت شعرى لو قال طبقات ابن سعد .

اسناد النسخ الخطية

اسلوب الاسناد قد تجاوز الاحاديث المتفرقة الى جوامعها من كتبها ثم بلغ الى نسخها الخطية ايضا ؛ فان المحدثين الزموا على طلبتها فى نسخها ان يذكروا فى ما ينسخون من كتب الحديث، سلسلة شيوخهم حتى يبلغوا بها الى جامع الكتاب مع كناهم ونسبهم قبل الافتتاح اوبعده اوفى الصفحة الاولى من الكتاب اوفى محل واضح منه وليكتب صاحب النسخة زمن قراءة الكتاب ومحل قراءته واسماء رفقائه الذين شاركوه فى درسه (١) والذى ذكرناه من اصول النسخ يجد كل من شاء فى الصفحة الاولى اوفى الحواشى اوفى خاتمة الكتاب من النسخ الخطية لكتب الحديث وما يتعلق به من الفنون ، مصرحا مفصلا

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص٨١ ـ ٨٢ تدريب الراوى ص١٥٨ ،فتح المغيث ص٢٦٥

كالنسخة

كالنسخة الخطية لسنن ابى داود الكائنة بمكتبة برلن(١) ومسند ابى داود الطيالسى والسنن للدارمى ، والمشيخة مع التخريج للبخارى ، وكتاب الكفاية للخطيب البغدادى ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٢) وقد رأيت بعينى هاتين هذه النسخ مع صفاتها التى وصفتها بمكتبة بانكى فور (الهند) ولمثلها امثال لمن اراد الاطلاع عليها وقد توجد نسخ خطية عارية عن هذه الاوصاف ولكنها لاتخلو من وجهين الاول انها ناقصة اما من اولها او آخرها ولذلك قد ضاعت منها تلك الاوصاف التى ذكرناها والثانى نسختها كتاب لم يكن لهم من علوم الحديث نصيب ؛ ولم ينسخوا الا للعوام ، فبعيد أن يكون فيها للطلبة والمحدثين حظ ما ولذلك لم يراعوا فى نسخها ما كان يتحتم عليهم من اقتفاء الاصول فى نسخ كتب الحديث .

تاريخ تحرير هذه الاوصاف مفصلا

فى الظن الغالب ان تحرير هذه التفاصيل قد اخذت فى المائة الثانية ، ومخطوطات ذلك العهد الاغر قد تلاشت وان لم يكن فلا قل ان عينى لم تحظ بشرف رؤيتها — ولكن هناك فى كتب اصول الحديث امور وتفاصيل يتأتى لمن رءاها ان يقول ما قلته ويدعى ما ادعيته — وذلك ان حفص بن غياث (م سنة ١٩٤ هـ) الكائن فى المائة الثانية قد قضى فى مرافعة مستدلا بهذه التفاصيل وقد وقع فضيل بن عياض المتوفى سنة سبع وثمانين بعد المائة ان لايجوز لمحدث ان يأخذ سماع رجل فيحبسه عنه ، ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه — ويقال ان ابن شهاب الزهرى رضى الله عنه ايضا كان يرى ذلك (٣) والذى اعلم بلامرية ان هذه التفاصيل التى ملكها فن الحديث لا ينازعه فى هذه المزايا الكاملة والتفاصيل العامة ادب اى لغة — قد رأيت الفهارس العديدة المفصلة لكتب اللغة اليونانية واللاطينية والسريانية والعبرانية ولكن لم اظفر بجهدى ببليغ على تلك التفاصيل

---

(١) فهرست الكتب العربية ببرلين لآلورت ج ٢ رقم ١٢٤٠ .

(٢) فهرست مكتبة بانكى فور ج ٥ جزء ١ رقم ٢٤١ و ٢٥٦ و ٢٦٠

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص ٨٢

التى قد حواها ادب الحديث ـ نعم فى تراجم كتب السنسكرتية الى اللغة التبتية قد وجدت فهارس طوالا لمعلميها فى نسخها التى قد مر ذكرها آنفا ؛ ولكنها عارية عن مزايا التفاصيل التى امتازبها ادب الحديث وذكرتها آنفا ـ فهذه التفاصيل للنسخ الخطية من حيث الفحص عن صحتها وسقمها اثمن الاشياء واغلاها ـ ولفقد ان هذه الحواشى فى النسخ الخطية اليونانية نحتاج الى الشواهد الخارجية فى التنقيب عن صحتها و سقمها ـ وتلك الشواهد الخارجية لا تفيد اليقين ولا معشار ما تفيد هذه الشواهد الداخلية ولذلك يعسر على القائل فى اى نسخة خطية من اليونانية ان يقول بيقينه التام انها نقل صحيح لاصلها ـ ولكن النسخ الخطية الحديثية لمزاياها الخاصة يسوغ للقائل القول فى صحة نقلها المعتبر من غير شبهة وريبة .

استعمال الاسناد فى العلوم الأخرى من الادب العربى

قد بدأ الاسناد من الحديث وكتبه ولكنه شاع فى غيره من العلوم العربية شيئا فشيئا ولذلك ترى فى كتب الجغرافيا والتاريخ والادب اللطيف وغيرها اسانيد طوالا ـ فقد اعترف الفاضل المستشرق مارغوليته فى تحريره هذا ـ ان فى ادب العرب بعض الكتب لم تحتوالا المطالب السوقية ولكن مع ذلك مؤلفوها قد اثبتوا به اسماء رواتها مع بيان الزمان والمحل الذى رووها ويدل على ذلك مصارع العشاق لمؤلفه السراج الذى حوى قصص النساء والرجال الذين قضوا نحبهم فى العشق ـ فالمؤلف لم يراع فيه الصحة فقط بل لم يدع محلا ولا تاريخا سمع فيه هذه الحكايات ، مع ذكر اسماء رواته مفصلا(١) والحق ان العلوم العربية وفنونها فى استعمال الاسناد قد تفردت فى العالم .

وكذلك المحقق هيتى امريكى قد صرح فى ضمن استعمال الاسناد فى الكتب التاريخية ان اسلوب العرب فى تأليف التاريخ اسلوب ليس له نظير وانه يقضى اهم ما يحتاج اليه هذا الزمان فى تأليف التاريخ وبه يستعين الانسان فى بلوغه

---

(١) عرب استوربنس ص ٢٠ .

اصول

اصول الوقائع ويقف به على اثر الرواة وسلسلتها (١)

ايها الفطاحل قد قدمت بين يديكم بعض مميزات الحديث ولكنى اعتقد أن العلماء الحاضرين فى هذه الحفلة لسعة مطالعتهم وحذقهم فى هذا الفن يقدرون على ان يفيدوا العالم العلمى باهم مما قدمته وارجو أن تلك الفوائد والمميزات لعظم قدرها تكون يدا اوساعدا فى ميدان التحقيق .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العلمين

وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا

محمد وآله صحبه اجمعين آمين

---

(٢) اوريجن اسلامك استيٹ ص ٣



نشر اللغة العربية فى الهند
واصلاح مناهج تعليمها

محاضرة القاها الاستاذ محمد المأمون بن السيد الشيخ عبدالوهاب

الارزنجانى المدنى الدمشقى فى ردهة الجامعة

العثمانية بمناسبة حفلة دائرة المعارف

فى سنة ١٣٥٧ بحيدرآباد الدكن بالهند

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها الملأ الصالح ! انى اعد نفسى سعيدا جدا بوجودى فى مجتمعكم الزاهر وان موجات السرور التى تغمرنى وتنفذ فى اعماق نفسى بمشاهدتكم تجعلنى اشعر بلذة عظيمة تفوق كل اللذات المادية لأنها لذة روحانية تستمد قوتها وفيضها من ارواحكم الذكية .

سادتى ! ليس مرادى ان اقف بين يديكم خطيبا ينثر على السامعين درر بلاغته ويسمو بهم الى آفاق الحكمة العالية والبيان وانما مقصدى ان اتحدث اليكم ببعض مايجيش فى صدرى من الآراء والافكار فى نشر اللغة العربية فى الهند وفى اصلاح مناهج تعليمها ، خدمة للعلم والدين .

ولعمرى انى لمعجب بغيرتكم على اللغة العربية وباهتمامكم بشأنها هذا الاهتمام العظيم .

وقبل الشروع فى الموضوع ارحب بكم وبالوفود الكرام الذين شدوا الرحال من كل فج عميق زرافات ووحدانا ليشتركوا فى هذه الحفلة العلمية المباركة وانشدكم كما انشد بعض فضلاء الاندلس ضيوفه الأماجد .

اهلا وسهلا بكم من سادة نجب ... كالذبل (١) السمر اوكالأنجم الشهب
اضاء مجلسنا من نور اوجهكم ... وطاب من عيشنا مالم يكن يطب
آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... فى الحادثات اذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم

سادتى الابرار ! ان العلم والمدنية والعمران لا تسير سيرا تدريجيا فى هذا العصر بل تهرول هرولة وتقفز قفزا ولقد دبت فكرة الرقى والتجدد فى كل نواحى الحياة ومظاهرها فى العلم والأدب والاجتماع واللغة والفن والصناعة والاختراع فبلغت شأوا عظيما لم تبلغه فى عصر من العصور .

فى هذا العصر اصبح المستحيل ممكنا واضحت اجنحة الحياة الانسانية

(١) جمع ذابل صفة لموصوف محذوف وهى الرماح .

خفاقة

خفاقة تحلق فى الهواء وتسير سير البرق فى الأرجاء، الحركة والتجدد من خصائصها والتقدم السريع من مميزاتها ورب سائل يقول هل هناك من خطر على الاسلام والعلوم العربية من تيار هذا الرقى الحديث ؟ .

فأقول كلا لاخطر ولاضرر من ذلك اذ الاسلام دين المعرفة والعلم ودين التمدن الحق والعمران الزاهى ودين الحياة الصحيحة والتجدد المقبول. ان الاسلام يسير مع الحياة جنبا الى جنب ويساوق العلم والعقل بل هما صنوان لايفترقان. ولقد مهد الاسلام سبيل المعرفة والعلم وجعله من المهد الى اللحد وامرنا بطلب العلم ولو كان بالصين وهو اول دين رفع لواء العلم والثقافة الانسانية فى العالم عاليا وحسبنا شهادة الغربيين بأن محمدا عليه الصلاة والسلام مدن العالم، والفضل ما شهدت به الأعداء ،وقد اقتبس الغرب عن الاسلام معظم اصول الثقافة الانسانية العامة فأنماها الى حد بعيد فما هذه الثقافة الغربية الراهنة الاصورة مكبرة من ثقافة الاسلام اذا فالاسلام للثقافة هيولاها ومادتها التى تتركب منها. وبالشرارة التى نستوردها اليوم من الغرب علينا ان نضرم شعلة العبقرية الاسلامية لنهتدى الى احكم واصلح ما فى الحياة من اسباب ووسائل وعلى علمائنا الكرام ان يخرجوا من دائرة النظريات المحدودة التى قد تبدلت معظمها ويدرسوا العلم على الطراز الحديث قارنين ذلك بالعمل المنتج حتى تجنى الامة من ورائها الثمرات اليانعة وتبلغ اوج الكمال .

قال الفيلسوف الكبير سبنسر متى اتفق الدين والعلم نموا نموا صحيحا فالدين ينمو بامتداد جذوره وتغذية اصوله فى رياض العلم الصحيح والعلم الصحيح يؤيده الدين ويشد ازره فيكون قويا متينا وهذه الموافقة هى الحكمة البليغة .

ان فى الحكمة البليغة للروح غذاء كالطب للأجساد

ومن جملة مميزات هذا العصر العناية باللغات ودراستها دراسة علمية تحليلية للاطلاع على تراث الأقدمين فى العلم والأدب والاجتماع المدون فى بطون

الكتب والأسفار ومن جملة تلك اللغات الهامة هى اللغة العربية .

ان اللغة العربية كانت قبل قرون لغة عالمية عامة كانت لغة الثقافة العالية والعلم والادب والفن والطب والفلسفة وقد اسس المسلمون جامعات فى الشرق والغرب فى القاهرة وبغداد وقرطبة وغيرها تدرس فيها كافة العلوم بالعربية ويقصدها المسلمون وغيرهم من الشرقيين والغربيين ليدرسوا العلم والحكمة بلغة القرآن المجيد فلذلك استفاض انتشار اللغة العربية فى ارجاء العالم حتى اصبحت دراستها اليوم جزءاً ما من الثقافة الحاضرة ولذا لا تجد فى الغرب جامعة إلا و اللغة العربية تدرس فيها .

وانك لتجد دور الكتب العامة فى عواصم الغرب طافحة بالكتب العربية القيمة ولقد اشتروها من بلدان الشرق بثمن بخس دراهم معدودة وما تلك الكتب والأسفار الا كنوز ثمينة وآثار خالدة يضن علينا بمثلها الزمان فكان الواجب علينا حفظها وحراستها دواما لأنها تحتوى على تراث آبائنا الاقدمين ولقد عرف الغرب قيمة تلك الكتب والآثار فجمعها وحفظها وخصص دورا للكتب العربية ومعاهد لدراستها .

وما الكتب الا كالضيوف وحقها بان تتلقى بالقبول وان تقرى

ولقد تجاوز انتشار اللغة العربية حدود جزيرة العرب فأضحت لغة التخاطب والتحرير والثقافة فى بلاد الشام ومصر والسودان والعراق وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ونجيريا وزنجبار ومدعسكر وكثير من سواحل افريقيا وبعض بلدان امريكا وهى منتشرة فى المدارس فى الهند والصين وجاوا وايران وافغانستان وغيرها من الممالك الاسلامية كما انها تدرس فى جامعات العالم فى الغرب والشرق كلغة حية تحمل بين دفتيها الادب القديم القيم والادب الجديد الرائع فهى ولا عرو لغة العالم الاسلامى جميعا ولغة الدين والعلم .

ومهما اختلفت لهجات التخاطب فى مختلف البلاد العربية فان لغة التعليم والكتابة والخطابة واحدة وهى الفصحى اعنى لغة القرآن الكريم وبسبب

توحيد

توحيد مناهج التعليم فى البلاد العربية وتعميمها بين الأفراد بمكافحة الأمية يرجى ان تعم اللغة الفصحى كل البلاد التى يتكلم سكانها العربية فى زمن يسير ولقد كانت اللغة الفصحى رائجة فى زمن الخلفاء العباسيين اذ كان التكلم بالعامية عارا على اهل العلم والطبقة الراقية .

اهمية اللغة العربية من الوجهة الدينية

معلوم لدى الجميع بأنه لا يمكن التوصل الى فهم حقيقة الدين الاسلامى الابدراسة العربية دراسة جيدة لأن القرآن الكريم والاحاديث النبوية وآثار الصحابة الكرام والتابعين وتبع التابعين واكثر الكتب التى ألفت فى علوم الدين حتى لدى الأعاجم كانت بالعربية فلذلك يتحتم على كل عالم دينى يريد التخصص فى علوم الدين ان يتقن العربية،واما الالمام بها فلايكفى لفهم اسرار الدين والكتب الدينية الهامة من مخطوطة ومطبوعة التى بلغت مئات الألوف من المجلدات بحيث لايمكن ترجمتها بكاملها اوبدون تغيير الى لغة اخرى ولو قلنا بامكان ذلك فمهما بلغت الترجمة من الاتقان والوضوح فهى لاتغنى عن مراجعة الأصل فان لكل لغة روحا خاصة بها لا يمكن اظهارها بلغة اخرى تماما ، فلذلك قال احد فلاسفة الغرب « ان للغة كل شعب من الخصوصيات مالا يمكن التعبير بها فى لغات سائر الشعوب بحيث ان الترجمة تغير المعنى وتذهب بجمال الاصل وروحه »

فاذا كانت الترجمة مجحفة بكتابات الادباء واظهار معانيها فبالأحرى ان تكون تراجم القرآن غير وافية بالمقصود منها احرز من دقة التعبير وحسن الاداء وجودة الاسلوب ولذلك ذهب الكثيرون من العلماء فى تركيا ومصر والشام الى عدم جواز ترجمة القرآن الى اللغات الأخرى لانها لا تؤدى المعنى المطلوب وتذهب بجمال الاصل وروحه وكيف لا وهو كلام الهى منزل بلفظه ومعناه من حول العرش بوحى سماوى من حكيم حميد فلذلك يتأكد أن لا تنشر الترجمة الا مع الاصل العربى ليستعين بها القارئ على فهم الاصل حسب الامكان

سهولة تعليم اللغة العربية

ان تعلم اللغة العربية ليس بصعب كما يظن فهى كسائر اللغات الحية فيلزم درسها ايضا كما تدرس سائر اللغات بأصول جديدة وعلى اساتذة ماهرين وان قراءة العربية بعلامات الاعراب سهلة جدا بعد التمرين والممارسة ، وخاصة على الذين يقرأون لغة (الاردو) (١) لانها تشتمل على كثير من الكلمات العربية كما انها تكتب بالحروف العربية .

وقراءتها بدون اعراب تسهل عند ما يتمرن الطالب على قواعد النحو والصرف بكثرة المطالعة والقراءة امام الاستاذ لأن القواعد العربية مضبوطة تماما .

مميزات اللغة العربية وخصائصها

ومن اعظم مميزات اللغة العربية وخصائصها تجددها وسيرها مع رقى الفكر الانسانى وتطوره وحاجات المدنية والتقدم العلمى والعمرانى فيمكن بواسطتها دراسة كل العلوم العصرية العالية والفنون الجميلة والصناعات ولقد اسست معاهد علمية وجامعات عديدة فى مصر والشام والعراق على طراز جامعات اوروبا الحديثة المشتملة على كافة الشعب العلمية وفروعها ، ولغة الدراسة فيها هى العربية،ولقد وضع العلماء للعلوم والفنون الجديدة اصطلاحات وتعبيرات خاصة ، مشتقة من نفس اللغة واصلها ، ومهما ازدهرت الحضارة وبلغت الثقافة الانسانية قمة الرقى والتقدم وتشعبت علومها وفنونها فاللغة العربية لاتضيق من ان تجد لكل ذلك كلمات تعبر بها عنها فبحرها زاخر ، ودررها لاتنفد ولا تحصى لأنها لغة القرآن الكريم « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا »

ولقد اجاد شاعر النيل حافظ ابراهيم فى التعبير عن لسان حال اللغة العربية

---

(١) الاردو - لغة المسلمين فى الهند وهى مركبة من اللغة الهندية والعربية والفارسية وكلمة (اردو) لفظة تركية بمعنى (الجيش) وهى تكتب بالحروف العربية على القاعدة الفارسية .

حيث

حيث قال .

وسعت كتاب الله لفظا وغاية   وما ضقت عن آى بها وعظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق اسماء لمخترعات
انا البحر فى احشائه الدر كامن   فهل سألوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكم ، ابلى وتبلى محاسنى   ومنكم وان عز الدواء اساتى
فلا تكلونى للزمان فاننى   اخاف عليكم ان تحين وفاتى

ومن مميزات العربية ان رقيها يسير ويتكامل فى دائرة اصولها الاولية، وان قواعد صرفها ونحوها الموضوعة على اساس القرآن المجيد وكلام فصحاء العرب الأقدمين ما زالت تحفظ بهجة اللغة من التغيير والتبديل .

فاللغة العربية مجدة فى السير فى طريق الرقى الدائمى فى حلبة المعرفة الحديثة والعلم الجديد فى اطارها الاصلى محافظة على نضارتها الأولى، ولعمرى ان هذه الصفة اختصاص وامتيازلها على سائر اللغات وهى تجعل اللغة العربية حائزة صفات الخلود وبذلك يكون قد أبرالله تعالى بوعده فى قوله (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

ولا ريب من ان آى القرآن الكريم هى افصح وابلغ ما نسج على الاسلوب العربى فى جميع الأدوار ولأجل ذا تجد البلغاء والادباء حتى من غير المسلمين يزينون مقالاتهم بالاقتباس من القرآن .

ما هو السبب فى عدم ازدهار اللغة العربية فى الهند ؟

ان السبب فى عدم ازدهار اللغة العربية فى الهند ليس لأجل صعوبتها ، بل لأن اصول دراستها فى المدارس الدينية والمدارس الاميرية ليست كما يجب ، فهى لاتخول الطالب ان يمهر فيها ولو كرّس عمره فى دراستها .

وانى ارجو من الاساتذة والطلاب ان يلاحظوا هذه المواد عند درسها لتسهل عليهم دراسة العربية .

أ ــ يلزم النظر الى اللغة العربية كلغة حية نامية يتخاطب ويتكلم بها

ما ينوف على الثمانين مليونا من البشر فى مختلف بقاع الارض ، ومن العجيب ان غالب الناس يدرسونها كما يدرسون احدى اللغات القديمة كاللاتينية واليونانية والسنسكريتية لأجل الاطلاع على ما فى تلك اللغة من كنوز العلوم والمعارف للأمم البائدة فقط لا لأجل النبوغ فيها لتذوق بلاغتها وللاستفادة من آدابها وعلومها .

ب ـ فلأجل اتقان العربية يلزم التمرن على التكلم باللغة الفصحى والتعود على القاء الخطب والمحاضرات والمباحث العلمية بها كما يعمل ذلك طلاب اللغة الانكليزية فى دراستهم لها .

ج ـ ومن الشروط الأساسية للنجاح الجرأة فى المحادثه والمخاطبة والتكلم بها دائما فالحياء والخوف من الوقوع فى الاخطاء يمنعان الطالب من الوصول الى الغاية. ولو تعلم الانسان اللغة ثم ترك التكلم بها فانه ينساها ، اذ التكلم بها بمثابة غذائها الباعث لبقائها ونموها .

د ـ ومنها اعتياد التفكير باللغة العربية ، وغالب الناس يفكرون بلغتهم ثم يترجمون افكارهم الى العربية عند التخاطب ، وهذا هو الذى يسبب الوقوع فى الأغلاط ، ويزيد الأمر صعوبة والنفس انقباضا .

ه ـ يجب ان لا يتعود المبتدئ التكلم بالعامية ، بل عليه ان يتقن الفصحى اولا ثم اذا احتاج الى كلمات عامية يتعلمها ، ويتعلم مقابلها بالفصحى حتى يستعمل كل واحدة منها فى الموقع المناسب لها .

مثلا كلمة (الشوربة) عامية ومستعملة فى المطاعم والفنادق والبيوت واما فى لغة الكتابة والخطابة لايجوز استعمالها فيلزم ان نعرف الكلمة الفصحى لها وهى (الحساء) .

وهكذا كلمة (التلفون) عامية وفصيحها (الهاتف) .

و ـ يلزم تلقى العربية من علماء العرب انفسهم ، اوممن تلقوا عن علماء العرب ، لان ذلك يعين على اجادة التلفظ وحسن التعبير ومعرفة الاصطلاحات

فى المخاطبة و المكاتبة و المحاضرة،وهذا من جملة اسباب اتقان الناس للانكليزية لأنهم يتلقونها عن اهلها اوعمن درسوها عنهم و العناية بالتلفظ العربى الصحيح فى القراءةو الخطابة مهمل فى الهند حتى بين اكثر العلماء . ويجب الفات النظر الى هذا الامر لانه مهم جدا .

ز ـ ويلزم ان يبدأ الطالب اولا بالقراءة العربية السهلة وبتكوين الجمل البسيطة وبالمران على الكتابة العربيـة والاملاء ، ثم يتدرج منها الى ما هو اعلى وارق .

ولقد تصفحت كتب مبادئ القراءة العربية الصادرة عن مصر والشام فوجدتها غير موافقة لمدارك طلاب العربية فى الهند ، لأسباب شتى لامجال لذكرها هاهنا فلذلك بدأت بكتابـة دروس فى مبادئ اللغة العربية لطلاب الهند واملى وطيد فى حيازتها القبول بين الطلاب والاساتذة ، واما الكتب التى الفت فى الهند جديدا لتعليم العربية فهى غير صالحـة لان عباراتها لا تخلو من الركاكة وطبعها ردىء فى الغالب ومملوء بالأخطاء .

ح ـ رأيت ان الطلاب اذا ارادوا تعلم العربية يبتدئون قبل كل شيء بقراءة كتب الصرف والنحو وخاصة تلك الكتب القديمـة التى لا تلائم درجة المبتدئين ولا توافق ملكات طلاب هذا العصر ، اذلا توجد فيها تمرينات كافية للمران ، وعباراتها مستعصية على الفهم ومثقلة للأذهان ، فهم لأجل حل رموزها يقرؤن الشرح معها ثم الحاشية ، فيضيع اللب بين القشور ويتشتت الفكر ولا يحصل المقصود . اذ المقصود تعلم العربية لفهم القرآن والحـديث ، والاتصال بالعالم لاسلامى ، وليس المقصود قراءة كتاب خاص لمؤلف معين

ط ـ ان كتب القواعد والمطالعة العربية الجديدة حازت درجة الاتقان فى سهولة التعبير ووضوح العبارة وكثرة التمارين وهى موافقة لطلاب الهندوغير الهند فيلزم ترجيحها على غيرها فى الدراسة ويلزم ان يعلم بأن التوغل فى معرفة القواعد لايجدى نفعا الا اذا طبقت تلك القواعد فى المطالعة العربية والقراءة و الكتابة

والخطابة ، فعلينا ان نعلم قاعدة ثم نطبقها الف مرة حتى نتعود الكلام والكتابة بأسلوب صحيح .

قواعد للران على العربية

١ ــ تمرن على القراءة العربية الصحيحة امام استاذ ماهر فيها واطلب منه ان يصحح قراءتك ، اقرأ اولا بدون ترجمة مرارا بل عشرات المرات وبصوت عال مؤديا للحروف مخارجها الى ان تتعود القراءة على وجه صحيح ثم ترجم العبارة حرفيا ، وفرق الاسم من الفعل ، وصرف الافعال واجمع الاسماء ، وتأمل فى عوامل الاعراب ، وفرق بين الفاعل والمفعول والمضاف والمضاف اليه والجار والمجرور وماليه ، والاولى ان تتمرن فى كتاب مشكّل بعلامات الاعراب اولا وبعد حين تتمرن فى كتاب خال عن الحركات لتتعود على تطبيق القواعد العربية .

٢ ــ احفظ بعض الاشعار الحكمية السهلة والآى القرآنية والأحاديث النبوية وبعض الحكم والامثال فان ذلك يقوى فيك ملكة القراءة والتكلم .

٣ ــ اقرأ بعض القصص الصغيرة ، وحاول قصها على المعلم وعلى رفاقك بالعربية البسيطة السهلة ولكن بعبارات صحيحة والفاظ جيدة .

٤ ــ تمرن على نقل ماتقرؤه بخطك ولاحظ ان يكون الخط عربيا وضع على الكلمات التى يصعب تلفظها اويشكل اعرابها حركات .

٥ ــ تمرن على الاملاء ، وأعد كتابة الكلمات التى غلطت فيها .

٦ ــ تعود الانشاء بكتابة جمل قصيرة ووصف اشياء بسيطة تحيط بك وتسهل عليك معرفتها ، اذ الأهم ان تتمرن على وضع افكارك فى قوالب من الالفاظ والجمل العربية الصحيحة المتينة المسبوكة سبكا جيدا والموافقة لطراز اسلوب العرب فى التحرير والتعبير .

٧ ــ تمرن على الترجمتين من العربية الى الهندية ومنها الى العربية ، ترجم العبارة حرفيا اولا ثم أعد نظرك الى الترجمة فضعها فى قالب صحيح يلائم ذوق تلك

اللغة واسلوبها بدون ان تضيع من جوهرها لاصل شيئا .

مناهج جامعة الازهر الجديدة خير انموذج لاصلاح المدارس الدينية

لاشك ان تغيير القديم البالى وبناء المدارس الدينية الجديدة على الجيد من القديم والجيد من الحديث ليس بالأمر السهل وأمامنا الجامعة الازهرية بمصر التى يغشاها الوف من طلاب العلوم العربية والدينية فى كافة اقطار العالم فهى لم توفق الى اصلاح مناهجها الا قبل عشر سنوات مع انه بدئ بالاصلاح قبل نصف قرن .

ولقدسمعت فى ردهة الجامعة العثمانية من احد اركان الوفد الازهرى الذى أم الحاضرة قبل ثلاثة اعوام انه قال « ان معاهد الجامع الازهر بدأت تتبع فى دراستها مناهج احدث المعاهد العلمية وتدرس فيها كافة العلوم والفنون واللغات على الطراز العلمى الحديث . وان مناهج الجامعة الازهرية اصبحت تضارع مناهج المعاهد العلمية الكبرى فى الممالك الراقية بسبب احتوائها على المواد العلمية الهامة التى تجب معرفتها على كل عالم دينى فى هذا العصر، اذلا يمكن الانسان ان يتوصل الى معرفة قوانين الحياة ويستفيد منها ويخدم بها الصالح العالم الا بتعلم تلك العلوم . وحيث ان تعاليم الاسلام تأمرنا باستغلال الحياة والاستفادة من مرافقها العديدة على احسن وجه ، فيجب على طلاب العلوم الدينية ان يبرعوا فى المعارف والعلوم الكونية فى اسلوبها الجديد بجانب مايدرسونه من العلوم الشرعية حتى يمكنهم ان يطبقوا ما يتعلمونه من مسائل الدين فى الحياة اليومية تطبيقاعمليا ، اذ لا فائدة فى الحكمة النظرية اذا لم تطبق فى شؤن الحياة .

ان المعاهد الازهرية اليوم تنهج بطلابها منهجا جديدا فى التربية والتعليم فتعنى بتثقيف عقولهم بالعلوم الجديدة وتهذيب نفوسهم بالمعارف الدينية لتجعلهم رجالا عاملين فى خدمة الامة الاسلامية والمصلحة العامة .

اقتراحات فى تسهيل تعليم اللغة العربية

انى أقترح على علمائنا الكرام فى الهند أن يسلكوا فى تعليم اللغة العربية و تدريسها مناهج تعليم اللغات الحية حتى يستطيع الطلاب ان يبرعوا فيها ويتذوقوا اسرار إعجازها ويفهموا القرآن الكريم والأحاديث النبوية وسائر الكتب العربية بسهولة وبدون تكلف ، فانهم بذلك يمكنهم خدمة العلوم الاسلامية على احسن وجه ، واما هذه الاصول البالية الرائجة فى الهند اليوم فانها تنفر الطلاب من تعلم اللغة العربية .

كل من يريد خدمة الدين الاسلامى وثقافته العالية فعليه ان يهتم اهتماما شديدا بمسألة نشر اللغة العربية على الاصول الجديدة ، وإلا تنقرض اللغة العربية من الهند عن قريب ، واذا انقرضت فلا يمكنك ان تجد من يسعى لفهم اصول الدين من منبعه الاصلى ، فعند ذلك تقوم الخرافات والأباطيل مقام الأسس الدينية ، كما هى فى سائر الأديان التى نسخت بحكم القرآن ونزوله ، وانما نسخت لانهم ضيعوا الاصل وابتعدوا عن الحقيقة .

يجب تبديل نصاب الادب العربى ووضع نصاب جديد

ان نصاب الادب العربى فى المدارس الهندية غير مفيد تماما فماذا يستفيد الطالب الذى لايعرف التهجى العربى من قراءة المعلقات السبع والحماسة ومقامات الحريرى ومجانى الادب التى تعد من منتهى كتب الادب العربى القديم . فلقد سمعت بان الأساتذة يجبرون الطلاب على حفظ تلك القصائد والمقامات بدون ان يفهموا منها شيئا فهم يحفظونها كالببغاء ثم ينسونها بأسرع وقت ولا ينتفعون بها قط مع انهم يضيعون فى حفظها وقتا طويلا . أليس الاجدر بالعقلاء ان يأتوا البيوت من ابوابها ويمرّنون الطلاب على المطالعة العربية السهلة ويتدرجون بهم من الاسهل الى السهل ومنه الى ماهو اعلى وارقى فبعد حصول ملكة المطالعة والقراءة الصحيحة والفهم لمبادئ العربية يمكنهم ان يقرؤا

القرآن

القرآن والحديث وسائر الكتب الدينية ويفهموها بسهولة .

واما قراءة المعلقات والمقامات فلا تفيد المبتدئ شيئا، اذا فهم يضيعون اوقاتهم سدى ويبدون اى فائدة وينفرون من تعلم العربية لصعوبة مناهجها .

وفيما يلى بعض اقتراحاتى فى احياء اللغة العربية

ا - يلزم على المعاهد الدينية فى الهند أن ترسل كل سنة من معاهدها عشرات من اذكى الطلاب الى المعاهد العلمية فى البلاد العربية مثلا الى دار العلوم الاسلامية للامام ابى حنيفة فى بغداد والى الجامعة السورية فى دمشق الشام والى الجامعة الازهرية فى مصر القاهرة والى جامع الزيتونة بتونس .

ويمكن المخابرة مع تلك الجامعات فى قبول طلاب الهند للدراسة وانى على يقين بانها ترحب بهم وتتقبلهم بكل سرور واما مصاريف هؤلاء فيلزم ان تجمع بواسطة التبرعات من المسلمين من جانب جمعية تؤلف لغرض احياء العلوم الاسلامية العربية ويمكن ايضا ان تقدم عريضة الى رؤساء الجامعات لقبول بعض الطلاب الاذكياء مجانا ، فانها تفعل ذلك بلا شك فقد قبلت الحكومة المصرية خمسة عشر طالبا صينيا فى معاهدها واجرت عليهم شهرية كافية لمصاريفهم فى ابّان تحصيلهم العلوم بمصر . فلا شك بان طلاب الهند يرجحون على طلاب الصين لما لمسلمى الهند من خدمات جلّى فى خدمة الدين والبلاد الاسلامية .

نداء الى طلاب العلوم الاسلامية واللغة العربية فى الهند

اخوانى الاعزاء ! انظروا الى الاعاجم فى صدر الاسلام كيف انهم اتقنوا اللغة العربية وبرعوا فى الشريعة الاسلامية وصاروا اساتذة اعلاما فيها حتى انهم فاقوا على العرب ولقد اعترف بهذه الحقيقة المؤرخ العربى الشهير بابن خلدون فى مقدمته؛ ألايجدر بكم ياطلاب الهند ان تتبعوا منهج اجدادكم الذين خدموا الاسلام والعربية اعظم خدمة فلذلك خلدت آثارهم ونقشت فى القلوب آيات مجدهم فعليكم ان تقتدوا بهم فى خدمة الدين والعلوم العربية وان تشمروا عن ساعد الجد فى أخذ الجيد من القديم واقتباس الجيد من الاصول الحديثة حتى

تصلوا الى النتيجة المرجوة والثمرة المنتظرة فى خدمة الدين والامة الاسلامية والله لايضيع اجر من احسن عملا .

لدائرة المعارف

ان دائرة المعارف التى نتشرف بحضور حفلتها اليوم قداسدت الى العلم واهله ايادى بيضاء ولقداخرجت من دفائن آبائنا كنوزا ثمينة جديرة بأن تكون من ازهى عقود جواهر المعرفة فى جيد الدهر .

تلك العقود والجواهر الخالدة التى كانت العقول النيرة تائقة لسبرغورها والاستطلاع عليها من كل الأمم ، نعم ان دائرة المعارف العثمانية قد احيت تلك الآثار القديمة وحفظتها من الضياع والاندثار لانها تحتوى على نتاج عقول الاقدمين ومعلوماتهم ومشاهداتهم وتجاربهم التى تنضى لها مطايا البحث وتشد لأجل معرفتها الرحال وهى لاتزال تتحفنا من آن لآخر بمؤلفات قيمة تمتاز بجودة الطبع وحسن الترتيب ولقد برهنت باعمالها المستمرة منذ نصف قرن على ان مقصدها الاصلى خدمة الثقافة العامة واحياء ما اندرس من معالم العلوم ولم تقصد فى عملها التجارة ولا جاب المغانم لنفسها وانى اتتبع سيرها ورقيها منذ عشرسنوات وارى انها تتدرج فى مدارج الرقى والتكامل يوما فيوما من الحسن الى الأحسن ومن الجيد الى الاجود فلذلك اتيقن انها ستكون منهلاعذبا لرواد المعارف فى كل انحاء العالم .

شكر

وبهذه المناسبة السعيدة اسدى شكرى وامتنانى الى معالى وزير المعارف الجليل النواب مهدى يارجنگ بهادر لعنايته بدائرة المعارف والسعى الى ارقائها وهذه من اجمل الحسنات التى تخلد له خير ذكرى على صفحات التأريخ .

رجاء

وانى ارجو من اهل الفضل والعلم الذين يسرهم رقى العلوم الاسلامية فى الهند عامة وفى حيدرآباد خاصة ان يشجعوا الذين يقومون بنشرا للغة العربية واحيائها

واحيائها مهما وجدوا الى ذلك سبيلا ويؤازروهم ماديا وادبيا. وانى اكون سعيد اجدا ان اقوم بقسطى من الواجب فى هذا الشان كما انى اطلب اليهم ان يشرفونى باقترا حاتهم فى بيان اسهل الطرق واحسنها لنشر القرآن المجيد ولغته الكريمة لأستفيد منها واعمل بها .

ونسأل الله ان يوفقنا جميعا لاحياء هدى المصطفى صلى الله عليه وسلم ولاداء هذا الفرض العينى اذ فى ادائه رضا البارى عز وجل واحياء علوم الاسلام واولئك « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم »

الا ان خير الهدى هدى محمد   تمسك به تسلم من الضر والعيب
ودع كل نور غير نور كتابه   ففيه جلاء للقلوب من الريب
فمطلعه سعد ومنزله هدى   ومظهره حق تجلى من الغيب

وفى الختام أبتهل الى الله تعالى ان يديم الملك الآصفى رافلا فى حلل المجد والبشرى بنيل الآمال راقيا فى مدارج السعادة والاقبال يزداد نوره تشعشعا واشراقا كلما تعاقبت الاعوام والاجيال والله على كل شيء قدير وبالاجابة جدير .

محمد المامون الارزنجانى الدمشقى

بيگم پيٹ حيدرا باد دكن

المنبد